# صعلـــــــوك .. ؟!

محمد محمود النجدي

# صُعلُـوك .. ؟!

هل انتهى بي المطاف إلى التصعلك؟!! كلا!! بل أنا مسلمٌ مهاجر.. آمنت بالنبي محمد.. وهاجرت إلى الله ورسوله.

- لكنَّك لستَ في جوار الرسول.. ولا في مدينته.. ولستَ بين أصحابه!؟

ذلك مِن كيد قريش لي.. وتَكبُّرها على الله ورسوله!!

- لا تكابر؛ إنَّك طريدٌ شَريدٌ.. لا تملك شيئاً، وهل الصعلوك.. إلا فقيرٌ مُشرَّدٌ؟!!

الصعلوك.. نَهَّابٌ فَتَّاك؛ وإنّي.. لستُ كذلك!! قد أبيتُ الصعلكة -آنفاً- لمَّا عُرِضت عليَّ حينما غاضبتُ ثقيف، تَنَزَّهتُ عنها.. ورضيتُ أنْ أرحل -مظلوماً- عن الطائف.. إلى مكة!

كنتُ غريباً، وحالفتُ قوماً.. ليسوا بقومي ولا عشيرتي، كافحتُ.. وبدأتُ من جديد.. راغباً عن حياة الصعاليك المشردين، ثم.. بعد أنْ اهتديتُ إلى دين الفضيلة والرشاد؛ تزعم أنّي.. تصعلكتُ؟!!

## كلا.. والذي نفسي بيده.. لستُ بصعلوك!!

# صعلـــــــــوك .. ؟!

## رحلة أبي بصير

محمد محمود النجدي

# تقديم

## أ.. صعلوكٌ.. هو؟!!

حقاً.. لقد كنتُ في حيرةٍ شديدة، وما زلتُ أحتار –عزيزي القارئ- كلما تفكَّرتُ في حال بطل قصتنا.. هذه: هل هو صعلوكٌ من صعاليك العرب؟! وهل ثمة صعلوكٌ مؤمن؟! على أنَّه.. لابد أنْ يتبادر إلى الذهن –قبل هذا السؤال- سؤالٌ آخر؛ ألا.. وهو: ما تعريف الصعلوك؟؟ ومَن هم الصعاليك عند العرب؟؟

يُعرِّف أبو زيد القرشي –صاحب جمهرة أشعار العرب- قائلاً: (الصعلوك: هو الفقير، وهو –أيضاً- المُتجرِّد للغارات)، ويقولون: صعاليك العرب.. وذؤبانها: أي.. ذئابها.
وفي لسان العرب: (مادة: صعلك، الصعلوك: هو الفقير الذي لا مال له)، وزاد الأزهري: (ولا اعتماد له: أي.. لا اعتماد له على شيءٍ أو على أحدٍ ليُعينه على أعباء الحياة).
فالصعلوك –إذاً- ليس فقيراً فقط؛ بل.. فقير يواجه الحياة وحيداً.. وقد جرَّدته من وسائل العيش فيها، وسلبته كل ما يمكن الاعتماد عليه لمواجهة صعوباتها، فالصعلكة.. ليست فقراً فقط؛ ولكنها.. فقرٌ يُغلِّق أبواب الحياة في وجه صاحبه.. ويسدُّ مسالكها أمامه.

لكن.. إذا استعرضنا وصف العرب لصعاليكها.. وسردها لقصصهم؛ لوجدنا أنَّ الصعاليك ليسوا فقراء معدومين يقنعون بفقرهم.. أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم، وإنَّما هم أولئك المشاغبون المغيرون.. أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في السلب والنهب والإغارة.
والمتأمِّل في أخبار صعاليك العرب وأشعارهم يلفت نظره.. شعورٌ حاد بالفقر والجوع، وإحساسٌ مرير بالهوان، وشكوى صارخة من ظلم المجتمع لهم، وعجزٌ عن الوقوف

على قدم المساواة مع أفراد مجتمعهم في معترك الحياة، وسبب هذا العجز هو ظلم ذاك المجتمع لهم.. وحرمانه لهم من العدالة الاجتماعية التي ينشدها كل فرد في مجتمعه، بل.. وتجريد المجتمع لهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة.

وبالتالي.. ينظر هؤلاء الفقراء الجياع المنبوذون.. إلى الحياة نظرةً حائرة؛ كيف يشقّون فيها لأنفسهم طريقاً –وقد جُرِّدوا من وسائلها المشروعة-؛ فلا يجدون أمامهم إلا أمرين: إما أنْ يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع، وإما أنْ يشقّوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية.. يفرضون فيها أنفسهم على المجتمع بعزيمةٍ قويةٍ صادقة، وينتزعون الحق في الحياة من أيدي مَن حرموهم منه بشجاعةٍ وجرأة.. دون أنْ يبالوا في سبيل غايتهم: أ كانت وسائلهم مشروعةً أم غير مشروعةٍ، والنتيجة الحتمية لذلك أنْ يصبح الصعلوك -الذي سلك الطريق الثاني- منبوذاً من مجتمعه.. شريداً في الصحراء الموحشة ووديانها الرهيبة.

وبالتالي تنقطع الصلة بين الصعاليك وقبائلهم؛ فينطلقون إلى الصحراء كالذئاب الجائعة، يجمع بينهم.. على اختلاف قبائلهم: الفقر والتشرُّد والتمرُّد.

لذا.. فإنّي أتساءل –عزيزي القارئ-: "هل بطل حكايتنا.. صعلوكٌ؟؟!"؛ علماً بأنَّه لم يُنبَذ لفقرٍ أو لجوع؛ بل.. لأنَّه أراد أنَّ يكون حراً في اختيار دينه.. والإله الذي يعبده.

اسمح لي –قارئي الكريم - أنْ أروي لك حكايته؛ عسى أنْ تحكم معي.. وتنتشلني من حيرتي!!

محمد محمود النجدي

00201004607502

# -الفصل الأول-

قيظٌ مُصْلٍ؛ وما ترى.. سِوَى صحراءٍ قاحلة وجبالٍ صماءٍ.. ذات غرابيب سود[1]! اِرجع البصر؛ هل ترى.. إلا التيه والضياع؟!!

شمسٌ حانقةٌ حارقةٌ.. تَصُبُّ سياط لهيبها على ركب خُنيس بن جابر.. ومولاه كوثر، اثنان قرشيان.. من بني عامر بن لؤي.. قافلان - من يثرب إلى مكة- يجرجران أسيرهما الذي يرسف في قيوده.

لم يكد الركب يفارق يثرب.. حتى سمع أخو بني عامر للأسير زَوْماً مكظوماً، التفت إليه؛ فرآه يرفع بصره إلى السماء غير عابئ لشعاع الشمس الباهر الذي يأخذ بالأبصار، سمعه يقول –كأنَّما يناجي نفسه بصوتٍ عالٍ- وأمارات الحنق والحقد.. نافرةٌ في قسمات وجهه:

- ويحي!! كيف أفارق دين قومي؟! كيف أفارق.. اللات والعزى؟!!
- ما بال هذا؟!! هل سحره.. محمد؟!!
- أو.. لعلَّ السحر يَبْطُل!!؟ أسمعه يتندَّم على مفارقة ديننا!؟

أَنصَتا.. فسمعاه يصرخ:

- تباً!! أُفارق ديني وقومي.. لأجلك، فتَصُدّني.. وتَرُدّني إليهم؟! لعمري.. لتجدنَّ مني ما يسؤك، ولتعلمنَّ أنّني.. أنا الرجل!

تَلَفَّت إليهما.. مجادلاً في حَمِيَّة:

- هيا.. أسرعا!! اِرجعا بي إلى مكة، رُدَّاني.. إلى قريش!!

أعرضا عنه.. وهما يتضاحكان...

---

[1]: أي: صخور جبلية شديدة السواد.

مالت الشمس عن كبد السماء، وبلغ الركبُ ذا الحليفة؛ فقال خُنيس:

- يا حبذا.. أنْ نزل هنا؛ نستريح.. ونجلس للغداء!
- كما تشاء.. يا سيدي! (أجابه كوثر)

تَرَجَّلا.. عن دابتيهما، عقل كوثر الدابتين، ثم جذب أسيره.. وأقعده إلى جوار خنيس، هتف خُنيس:

- آتِنا غداءنا.. يا كوثر!

انصرف كوثر ليُعِدَّ الطعام، تساءل الأسير:

- لِمَ التمهُّل.. يا أخا بني عامر؟! هَلُمَّ.. عَجِّل بنا إلى مكة!
- أنا.. خُنيس بن جابر!!
- أيا خنيس! أُحْثُث الخُطى بي إلى مكة!
- ويحك.. أبا بصير[1]! حسبتُ أنَّك تكره الرجوع إلى مكة!!؟
- بل.. وددتُ لو أركب الريح.. عائداً إليها!!
- عجباً!! لِمَ.. فررتَ.. إذاً؟؟!
- ويحك.. أخا بني عامر! ألم ترَ كيف فعل بي محمدٌ؟! أَ وبعد أنْ فارقتُ قومي ومالي مهاجراً إليه.. يرُدّني ولا يقبلني؟؟! أَ وبعد أنْ يفعل بي هذا.. تتعجَّب أنّي نادمٌ على ما بدر مني في حق قومي؟؟!
- أرى.. أنَّه ثاب إليك عقلك، وعَلِمتَ أنَّ دين قريش هو الدين الحق!؟

---

[1] : هو: عتبة –وقيل: عبيد- بن أسيد بن جارية بن أسيد بن عبد الله بن سلمة بن عبد الله بن غيرة بن عوف بن ثقيف، من قبيلة ثقيف، وهو حليف بني زهرة.. وهم بطن مِن بطون قبيلة قريش.

- آه.. يا أخا بني عامر! لو تعلم كم يتحرَّق قلبي حقداً على من أهانني، لكنَّك.. سترى بعينك ما سيفعله أبو بصير ثأراً لعزته وكرامته!!
- كنتُ مستاءً لأني بُعِثتُ في هذه المُهِمَّة؛ لكن.. حديثك أثلج صدري.. يا حليف بني زهرة!
- هَلُمَّ.. نرجع إلى مكة؛ فإنّي لا أطيق صبراً!!
- تريَّث.. حتى نتناول غداءنا!
- ها هو ذا الغداء! (هتف كوثر منادياً)
- هيا إلى الطعام.. أبا بصير!

علَّق خنيس سيفه على جدارٍ وراء ظهره، وابتسم إلى أسيره.. آمراً مولاه:

- فك وثاق أبي بصير.. يا كوثر؛ فلا حاجة لنا به!

رمقه كوثر.. مُتوجِّساً، لكن.. لم يسعه سِوَى طاعة أمر سيده، ثم جلسوا.. يأكلون ويتفكَّهون بالحديث.. حتى شبعوا، ثم شرعوا في الاستعداد للرحيل؛ فهتف خنيس:

- لا يليق أنْ نركب وتمشي.. أبا بصير؛ كن رديفي على حصاني!!
- بُوركتَ.. خنيس! سأمشي.. حتى أُكفِّر عن جريرتي!
- انتظراني.. سأذهب للخلاء! (استماحهما.. كوثر)

نهض كوثر ليقضي حاجته، نظر أبو بصير إلى السيف المُعلَّق خَلْف جليسه.. وسأله:

- أ صارم سيفك هذا.. يا خُنيس؟؟

- نعم! لقد جربتُ به.. ثم جربتُ!! (هتف.. بخيلاء)، ثم أردف بحميَّةٍ: "ولأضربنَّ به في الأوس والخزرج.. يوماً إلى الليل!".
- ناولنيه.. أنظر إليه!
- انظر.. إنْ شئت! (قالها خُنيس.. مَزْهُوّاً بسيفه)

وسحب السيف من فوق رأسه.. وناوله إياه، أمسك أبو بصير السيف.. وهزَّه بيده مُبدِياً الإعجاب به، رفعه في الهواء.. ولوَّح به اختباراً لثِقْله، وبغتةً.. ضرب به عنق جليسه؛ فقتله بضربةٍ قاصمة!!

أقبل كوثر.. من بعيد، شاهد مَوْلاه صريعاً.. والسيف في يد الأسير الغادر يَقْطُر دماً، صرخ فَزِعاً، ركض إلى دابته.. وقفز على ظهرها مذعوراً.
تابعه أبو بصير -بعيونه- يعدو بجواده صَوْب المدينة، هَمهَم في نفسه:
(هذا الفتى ذاهبٌ -لا ريب- إلى رسول الله، ينبغي أنْ ألحق به، وأتنصَّل إلى النبي!).

عفَّ عن سَلَب قتيله؛ لكن.. لا غَنَاء عن السيف والحصان، بهدوءٍ وسكينة.. جلب ماءً طهوراً وتَوَضَّأ، صلى الظهر، ثم امتطى الجواد، وقصد إلى المدينة.

*****

في مسجد النبي محمد ﷺ بالمدينة، وبينما الرسول جالسٌ مع أصحابه؛ إذ طلع عليهم كوثر.. يلهث من الهلع، رآه النبي ﷺ فقال:
- إنَّ هذا قد رأى فزعاً!
أقبل ينتفض مذعوراً، سأله النبي ﷺ:
- ويحك! ما لك؟!!

- قتل صاحبكم.. صاحبي! وإنّي.. لمقتولٌ!!

ما لبث أنْ طلع عليهم.. والسيف في يده، وقف على باب المسجد هاتفاً:

- يا نبي الله! قد –والله- أَوفى اللهُ ذمتك، قد ردَّدتَني إليهم، ثم أنجاني اللهُ منهم، وقد امتنعتُ بديني.. أنْ أُفتن فيه، أو يُعبث بي!

أشاح عنه النبي ﷺ مستاءً، وقال:

- ويل أُمه! مُسْعَر[1] حربٍ.. لو كان معه رجال!!

ثم التفت إلى كوثر.. قائلاً:

- اِرجع به إلى أصحابك!
- ليست لي به قوةٌ!!

بيد أنَّ أبا بصير اِنفلت خارجاً من المسجد، وانطلق إلى الصحراء.

**********

[1] : مسعر: أسعر النار أو الحرب: أي.. أوقدها أو أشعلها.

# -الفصل الثاني-

**قبل.. عدة أسابيع:**

(ذو القعدة مِن سنة ٦ هـ)، (مطلع صيف.. سنة ٦٢٨م).

مكة –بأَسْرِها- تَتَلَظَّى.. كأنَّها جاثمةٌ فوق شفير وادي مُلتهبٍ من الغضب.. أوشك على ابتلاعها، لقد تأكَّد النبأ: محمدٌ قادمٌ –وأصحابه- إلى مكة، يقصد البيت الحرام، يزعم أنَّه جاء مُعتمِراً، وقد قَلَّد[1] الهَدْي وأشعره.
جاء يتحدى قريش وسلطانها، هل يظنُّ أنَّ سدنة الكعبة لن يمنعوه عنها.. مثلما لا يَصُدُّون أحداً من العرب.. حتى وإنْ كان حاجّاً أو مُعتمِرا؟!!

اجتمعت قريش في دار ندوتها، وتشاوروا.. فقالوا: "لا مِراء أنَّ العهد الذي على قريش ألا يعرضوا لأحدٍ جاء حاجّاً أو معتمراً.. إلا بخير؛ لكن.. يريد محمدٌ أنْ يدخل علينا في جنوده مُعتمِراً، فتسمع به العرب.. وقد دخل علينا عنوةً وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا، والله.. لا يمكن هذا أبداً.. ومنَّا عينٌ تطرف!".

*****

بينما يتحسَّس أبو جندل[2] نُدوب ضربات السوط في جسده، ويكظم أنين توجُّعه، ويغسل قيوده –التي غَلَّه بها أبوه- بدموع شوقه للهجرة إلى مدينة رسول الله؛

---

[1] : قلَّدها: أي علق بها القلائد، وأشعرها: أي أعلمها، وذلك ليُعرف أنها هدي للكعبة.

[2] : هو: العاص بن سهيل بن عمرو بن عامر بن لؤي القرشي، أبوه سهيل.. سيد من سادات قريش.

بينما هو كذلك.. إذ فُتِح باب محبسه.. ودخل عليه صديقه (أبو بصير)، تأمَّله مُتعجِّباً، جلس إلى جواره.. وهمس مُطمئِناً:

- لا تعجبْ! بعثني إليك أبوك وأهلك.. كي أَرُدَّ إليك رشدك!
- وهل.. ستفعل؟؟!
- أجل!! (هتف أبو بصير.. ساخراً)
- أ يئس أبو يزيد[1]–سيد بني عامر بن لؤي- من زحزحتي عن الإسلام بسطوة التعذيب؛ ويحاول أنْ يُجرِب سطوة الصديق؟!!
- ربما كان رأي أُمّك.. أو أحدٍ من أهلك!!؟
- يعلمون أنَّك أحب أصحابي إليَّ، لكنَّك.. لستَ أحب إليَّ من نبي الله، فارجع.. وأخبرهم أنَّك فشلتَ في إثنائي عن عزمي، إنّي قد عرفتُ الدين الحق، وإنّي ثابتٌ عليه، لا أُفارقه.. حتى تفارق الروح الجسد؛ فألقى الله على هذا!!
- كنتُ أُحبذ أنْ تكتم إيمانك، ثم تغافلهم.. وتهاجر إلى النبي كما نويتُ أنا أنْ أفعل! (همس.. في أُذنه)
- صارحتُ أبي –سهيل- بحقيقة إيماني رجاء أنْ يؤمن، غير أنَّ كبره وخوفه على دنياه.. صَدَّاه عن سبيل الرشاد!!

مال أبو بصير على أُذنه –خشية أنْ يكون خَلْف الجدار مُتصنتٌ- وأسرَّه:

- النبي.. قادمٌ إلى مكة في كوكبةٍ من أصحابه.. يريدون العمرة!

تهلَّل وجه أبو جندل.. وتساءل مُستبشِراً:

- أ حقاً ما تقول.. يا أبا بصير؟؟!

---

[1] : هي كنية سهيل بن عمرو.. والد أبي جندل.

- قد علم الخبرَ بطاحُ مكة وظواهرها.. والعرب أجمعون!
- هذه فرصتنا –يا أبا بصير- لنجتمع إلى النبي وأصحابه، ونهاجر معهم إلى يثرب! (خفت صوته بها.. خشية المُتجسِّسين)
- أجل.. والله.. أبا جندل! وهذا ما جئتُك من أجله، ينبغي أنْ نتحيَّن الفرصة المناسبة؛ ونلوذ من أرض الكفر إلى أرض الإيمان!!
- لكن.. هل ستتركه قريشُ يطوف –وأصحابه- بالكعبة.. آمنين؟؟!
- قريش!؟؟ قد اجتمع سادة قريش في دار الندوة، وأزمعوا على منعه.. وصَدِّه وأصحابه عن البيت بقوة السلاح، وهم –الآن- يستنفرون كل قادرٍ على حمل السلاح لقتال النبي والمسلمين، بل.. استنفروا حلفاءهم من الأحابيش[1] وثقيف وغيرهم، ويجمعون الأموال لأجل ذلك!!
- تباً لقومٍ جُهّال ضالين.. يحاربون الله ورسوله!!
- إنَّ أباك أحد سادات قريش المتزعمين لصدِّ النبي عن البيت!!؟
- إنّي أتعجَّب لجحوده الحق.. رغم ما فيه من عقلٍ وحكمة!؟؟
- لا جرم.. يحفظ ماله ويخاف على نفوذه في قريش ومكة!
- أصبت! إنَّهم لا يُمارون في أنَّ محمداً على الحق؛ لكنَّهم.. يؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة.. خيرٌ وأبقى!
- والكِبْر –أيضاً- يمنع كثيراً منهم عن الإذعان للحق!

---

[1] : قبائل عربية غير قرشية –أهمهم كنانة- تحالفت مع قريش في الجاهلية على أنهم معهم يد واحدة على من عاداهم ما سجا ليل وما وضح نهار.. وما رسا جبل حُبْش، وكان ذلك عند جبل يُسمى حُبْشي؛ فسمُّوا أحابش قريش.

هنالك.. ولجت إليهما أم أبي جندل.. تتبعها أَمةٌ تحمل قدح حليب قدمته إلى صديق ابنها، وهتفت:

- اسمع لأبي بصير –يا ولدي- فإنَّه أنصح رجال مكة لك!

طأطأ أبو جندل ولم يجبها، حالما خالسه أبو بصير النظر، ثم قال:

- قد حدَّثتُه اليوم -يا أم العاص-، ولن أدعه حتى يثوب إلى رشده، ويرجع.. ليسير في ركاب أبيه!!
- لله دَرُّك.. أبا بصير! واللات.. لا أدري: كيف سحره محمد.. وبيننا وبينه كل هذه المسافة البعيدة!!؟
- سأنصرف الحين؛ لكن.. سأعود إليك مرة ثانية.. يا أبا جندل!

في الأيام التالية.. تكرَّرت زيارات أبي بصير لأبي جندل في محبسه، تظنُّ أمه وأبوه أنَّ صاحبه يأتيه ليُثنيه عن عزمه ويردُّه عن الإسلام؛ بينما هو يأتيه ليُطلعه على جديد الأخبار، وليخطط معه كيف يتسلَّلان معاً ليلحقا بركب النبي ﷺ وهم عائدون إلى المدينة.

أقبل إليه –مع غروب شمس يومٍ تالٍ- ليقول:

- جاء سيد الأحابيش (الحُلَيس بن زبّان الكناني) بجنوده من الأحابيش، وجاء سيد ثقيف (عروة بن مسعود) من الطائف بجنوده، فاجتمع عند قريش ثمانية ألاف مقاتل عازمين على صدِّ النبي وأصحابه عن مكة، وعسكروا جميعاً غرب مكة.. في وادي بَلْدح[1].
- لعنة الله.. على العتاة المتغطرسين!!

[1] : وادي من أشهر أودية مكة –ويسمى وادي مكة الثاني- في طريق التنعيم إلى مكة من جهة الغرب.

- لم يكتفوا بهذا فحسب؛ بل.. خرج مائتا فارس يقودهم خالد بن الوليد المخزومي ليرابطوا في كراع الغميم[1]، ليقطعوا على النبي.. طريقه إلى مكة!
- وماذا سنفعل.. يا أخي؟!! هل نذر قريش تفتك برسول الله وأصحابه؟؟!
- أمرني حليفي –أزهر بن عبد عوف الزهري[2] - أنْ ألتحق بجيش قريش.. في بَلْدح! (قال أبو بصير.. باستخفاف)

تساءل أبو جندل باستعظام:

- وهل ستفعل؟!!

هزَّ أبو بصير كتفيه.. باستسلام:

- لا يسعني.. غير أنْ أُجيب!!
- وإنْ كان قتال؟؟! (تساءل.. باستنكار)
- سأُقاتل!! (قالها.. بحسم)
- تقاتل.. مَن.. يا أبا بصير؟؟! (هتف.. مُمتعِضاً)
- في ظنّك.. يا أخي؛ مَن.. سأُقاتل؟! هذه فرصتي لأكون قريباً من رسول الله، وأذب عنه!
- خذني معك.. يا أبا بصير، خذني معك!!

---

[1] : كـرَاع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، على طريق حجاج يثرب، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال. وتبعد نحو ستين كم عن مكة المكرمة، تقع في محافظة الجموم، بين الجموم وعسفان، بالقرب من قرية الشامية.

[2] : بنو زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي.. هم بطن من بطون قريش.. كانت منهم السيدة آمنة بنت وهب.. أم النبي محمد.. ﷺ.

- اِصبر.. ولا ترتاع.. يا أبا جندل؛ سيجعل الله لك مخرجا!!

*****

اِكْتَظَّ وادي بَلْدح بقريش وحلفائها.. من الأحابيش وثقيف، وضربوا القباب والخيام، واصطحبوا معهم النساء والأطفال، رابط القوم في تلك الضاحية من ضواحي مكة.. مزمعين بكل حَميَّة وأنفة على صدِّ محمد وأصحابه عن مكة والبيت العتيق.. مهما كانت التضحيات.

وفد -إلى بَلْدح- عروة بن مسعود الثقفي (من سادة ثقيف في الطائف)، قام إليه أبو سفيان بن حرب الأموي (سيد بني أمية.. وزعيم قريش وقائد جيوشها)، وأحسن استقباله، جلسا معاً.. ثم هتف عروة قائلاً:

- يا معشر قريش! إنَّكم والد.. وأنا الولد[1]، وقد سمعتُ بالذي نابكم؛ فجمعتُ من أطاعني من قومي، ثم جئتُكم حتى آسيتكم[2] بنفسي!
- أهلاً.. ومرحباً! قد وفيتَ.. يا سيد ثقيف!

في فسطاط القيادة.. انعقد مجلس الحرب لبحث آخر الأنباء، فقال صفوان بن أمية الجمحي (سيد بني جمح: بطن من قريش):

---

[1] : يقصد: أنهم أخواله؛ حيث أنَّ أمه هي: سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، امرأة من بنات أسياد قريش، وعبد شمس هو شقيق هاشم جد بني هاشم، ووالد بني أمية الذين منهم: أبو سفيان بن حرب.

[2] : يقصد: شاطرتُكم مصابكم.

- جاء الخبر من الحكم[1] بن عبد مناف بأنَّ محمداً وأصحابه وصلوا عُسفان، وهم كثيرٌ.. بالمئات، وإنَّهم مُحرِمون مُلبّون.

هتف أبو سيفان بن حرب.. بحَمِيَّة:

- حتى لو جاءوا حاجِّين البيت؛ لن يدخلوه، لا تتحدَّث العرب أنَّ محمداً دخل علينا عنوة!!

ثم التفت إلى عكرمة بن أبي الحكم المخزومي (ابن أبي جهل) سائلاً:

- ما بال فرسانك.. يا أبا عثمان؟؟
- أبو سليمان (خالد بن الوليد المخزومي) مرابطٌ بهم في كراع الغميم.. عازمٌ على الاصطدام بالصابئين؛ إنْ تجاوزوه!!

هتف عروة بن مسعود الثقفي مفاخراً:

- أحسنتم صنيعاً! وأنا –ومَن أطاعني من قومي- معكم بسيوفنا ورماحنا.. على مَن جاء يحارب قريش.. وينتهك حرمة البيت الحرام!!

دلف إليهم الحُلَيس بن زبّان (سيد بني كنانة.. وزعيم الأحابيش جميعاً) يصحبه ويحتفي به سهيل بن عمرو.. وحويطب[2] بن عبد العزى.. سيدا بني عامر بن لؤي، نهض إليه أبو سيفان مُرحِباً ومُوقِّراً، وأجلسه إلى جواره،

---

[1] : هو قائد قوة انتخبتها قريش من عشرة رجال، وضعوهم على رؤوس الجبال في الطريق من يثرب إلى مكة ليرصدوا تحركات المسلمين، فكان الأول ينقل إلى الثاني ما يرى ويسمع من أخبار المسلمين والثاني ينقل إلى الثالث.. وهكذا حتى العاشر الذي ينقل إلى الحكم الذي ينقل الخبر إلى معسكر قريش في بلدح.

[2] : هو: حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس، قرشي من بني عامر بن لؤي، يكنى أبو الأصبغ.. وقيل أبو محمد، من أغنياء قريش وشيخ من سادات بني عامر بن لؤي.

ثم هتف سيد الأحابيش.. مُستعظِماً:

- أيا معشر كعب بن لؤي.. وعامر بن لؤي! أراكم لبستم جلود النمور، وجلبتم معكم العُوذ المطافيل[1]؟!!

أجابه أبو سيفان.. باستهجان:

- ألم تسمع.. يا سيد الأحابيش؟!! قد جاءنا محمدٌ وجيشه ليغزوا مكة، وينتهكوا حرمة بيت الله، ويُدنِّسوا حرمه.. في الأشهر الحرم، وهو الذي يزعم أنَّه.. على دين إبراهيم؟!!
- إنْ كانوا كما تقول؛ فكأنّي أرى الطير الأبابيل تطوف بالسماء.. تترصَّد الظالمين!!

جأر مكرز[2] بن حفص: "لا حاجة لنا بالطير الأبابيل؛ سيوفنا كفيلةٌ بهم!! إنَّا نُهدر دماءهم ونبيح سفكها حتى لو وُجدوا مُهلِّلين داخل الحرم!!".

تساءل الحُلَيس بن زبّان.. باستعظام:

- هي الحرب.. إذاً؟؟!

فهتف سهيل بن عمرو.. بمروءةٍ وسخاء:

- أجل!! وإطعام رجالكم وفرسانكم واجبٌ على قريش.. يا سيد الأحابيش، وقد تَكفَّلتُ به أنا وحويطب (ابن عبد العزى).. وعكرمة (ابن أبي جهل).. وصفوان (ابن أمية)!

---

[1] : استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن، والعوذ: جمع عائذ.. وهي الإبل حديثة النتاج، والمطافيل: جمع مطفل.. وهي التي معها أطفالها.

[2] : هو: مكرز بن حفص بن الأخيف، قرشي من سادات بني عامر بن لؤي، أحد أبطال قريش وشياطينها.. وأيضاً من شعرائها في الجاهلية، هو الذي حضر إلى المدينة بعد غزوة بدر ليفتدي سهيل بن عمرو بنفسه.. وقال: اجعلوا رجليَّ في القيّد مكان رجليه حتى يبعث إليكم بالفداء.

أجابه الحُلَيس.. بامتنان:

- لله دَرُّكم.. يا أكارم قريش!!

ثم كَلَّمه صفوان ابن أمية:

- يا حليس! أنت رجلٌ مُتألِّهٌ[1]؛ ولا يرضيك أنْ ينتهكوا حرمة الأشهر الحرم.. ولا حرمات البيت!!؟

وهتف عكرمة بن أبي جهل.. بحَمِيَّة جاهلية:

- واللات والعزى.. لن يدخلوه علينا.. ما كانت فينا عينٌ تطرف!

- يا سادة قريش! أنا –والأحابش جميعاً- معكم.. يداً واحدة على مَن جاء.. يُدنِّس البيت الحرام!!

ثم صاح أبو سفيان بحزم.. بعد أنْ استوثق من ثبات الأحابيش معه:

- أبلغوا أبا سليمان (خالد بن الوليد).. أنْ يتحرَّك بفرسانه من كراع الغميم إلى وادي عُسفان.. ليعترض محمداً وجيشه!

*****

[1] : مُتألِّه: أي.. يُعظِّم الإله.

## في وادي عُسْفَان[1]:

نزل ركب المسلمين وادي عسفان، وانتظر النبي ﷺ أياماً حتى يوافيه بسر[2] بن سفيان الخزاعي[3]، بالأخبار، وما لبث أنْ التقى به في ذات الأشطاط[33].

سلَّم على النبي، ثم اختلى به.. وبادره مُستخبِراً:

- يا بُسْر.. ما وراءك؟؟
- يا رسول الله! تركتُ قومك –كعب بن لؤي وعامر بن لؤي- قد سمعوا

---

[1] : عسفان بلدة تقع شمال غرب مكة المكرمة بمسافة ٨٠ كم، وهي منهل من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة المكرمة، وتسمى بالأبواء لتبوء السيل بها، كما يكثر فيها النخيل. سميت عسفان بهذا الاسم لتعسُّف السيول بها (أي جريانها بغزارة)،

[2] : هو: بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر.. من بني كعب.. بقبيلة خزاعة، وهو سيد من سادات قومه، جاء إلى النبي في المدينة مسلماً في شهر شوال، فقال له النبي: يا بسر! لا تبرح حتى تخرج معنا فإنَّا إنْ شاء الله معتمرون، فمكث في المدينة مدة.. أمره النبي خلالها أنْ يشتري له بُدْناً لتكون هَدْيه إلى الكعبة في عمرته؛ فذهب إلى البادية واشترى له سبعين بدنة، وبما أنَّ قريش وحلفاءها لم يعرفوا بعد بإسلامه؛ فأمره النبي بالتقدم في الطريق إلى مكة.. ليرصد له الأخبار قائلاً: إنَّ قريشاً قد بلغها أني أريد العمرة؛ فخبر لي خبرهم، ثم ألقني –في ذات أشطاط- بما يكون منهم.

[3] : قبيلة خُزَاعة: كانت منازلهم بقرب الأبواء وعسفان في تهامة، وكان بينهم وبين عبد المطلب بن هاشم.. جد النبي حلفاً قديم، فكانوا بموجب هذا الحلف يُنصحون إلى النبي.. سواء المشركون منهم أو البعض الذي أسلم لله.

[33] : غدير ذات الأشطاط: مَوْضِعٌ عَلَى بُعْدِ ٥ كم جَنوبَ عُسْفَانَ.. في طريقهم إلى مكة.

بمسيرك ففزعوا.. وهابوا أنْ تدخل عليهم عنوة، وقد استنفروا الأحابيش ومَن أطاعهم، معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا لك جلود النمور ليصدُّوك عن المسجد الحرام، وقد خرجوا إلى بلدح وضربوا الأبنية، وتركتُ عُمادهم[1] يُطعِمون الجزر أحابيشهم ومَن ضَوَي في دورهم، وقَدَّموا الخيلَ عليها خالد بن الوليد المخزومي، وقد وضعوا العيون على الجبال.. ووضعوا الأرصاد!!؟

فرجع النبي ﷺ يستشير أصحابه.. فقال:

- كيف ترون –يا معشر المسلمين- في هؤلاء الذين استنفروا إليَّ مَن أطاعهم.. ليصدُّونا عن المسجد الحرام؟؟

فقام أبو بكر الصديق ﷺ فقال:

- الله ورسوله أعلم! نرى –يا رسول الله- أنْ نمضي لوجهنا؛ فمَن صَدَّنا عن البيت.. قاتلناه!!

وقام آخرون فقالوا مثلما قال.. أو قريباً منه؛ فتيقَّن رسول الله ﷺ أنَّ أصحابه –جميعاً- موافقون على المضي نحو غايتهم، ألا وهي.. زيارة البيت العتيق، وأنَّهم مستعدون للصدام إذا ما ألجأتهم قريش إليه.. بإصرارها على منعهم من دخول الحرم.

ولم يَنْشَب أنْ جاءه وفدٌ مِن قبيلة خزاعة بقيادة: بديل بن ورقاء، قد جاءوا -متطوعين من تلقاء أنفسهم- لينظروا: أ غاية محمدٍ وأصحابه هي العمرة حقاً.. أم يبتغي من ورائها أمراً آخر، جاءوا إليه.. ومُرادهم الإصلاح بينه وبين

[1] : عمادهم: أي.. قادتهم.

قريش؛ فأحسن النبي ﷺ استقبالهم.. وحَدَّثهم بمبتغاه.

*****

## في وادي بلدح:

وبينما تذبح قريش الجزر لتُطعِم حلفاءها ومرتزقيها.. وتضرب نساؤها وجواريها الدفوف؛ إذ جاءهم سيد خزاعة (بديل بن ورقاء) -وقد كان يومئذٍ مشركاً- ومعه فريقٌ مِن أشراف قومه، وقال لسادة قريش وحلفائها:

- يا معشر قريش! إنَّا جئنا من عند محمد؛ أ تُحبون أنْ نُخبركم؟؟

فأجابه صفوان بن أمية.. بصلفٍ:

- لا.. والله! ما لنا حاجة بأنْ تخبرنا عنه!

هتف بديل.. مُؤكِّداً:

- تالله.. ما التمس لقائي؛ بل.. أنا تطوَّعتُ -من تلقاء نفسي- ساعياً للوساطة بينكم وبينه، فاسمعوا مني!!

بينما أجابه مكرز بن حفص.. حانقاً:

- إنَّكم -معشر خزاعة- قد وادعتم[1] محمداً، بل.. إنَّكم عَيْبَة[2] نصحه، لا نرضى بكم وسيطاً!!

فجأر عروة بن مسعود.. عاتباً على سادة قريش:

- والله.. ما رأيتُ كاليوم قط رأياً أعجب!! ما تكرهون أنْ تسمعوا من بديل وأصحابه؟! فإنْ أعجبكم أمراً.. قبلتموه، وإنْ كرهتم شيئاً.. تركتموه!!

---

[1] : أي: صالحتموه وسالمتموه وهادنتموه.

[2] : العَيْبَة من الرجل: أي موضع سره.

استجابوا لسيد ثقيف متبرمين، واستمعوا غير مكترثين؛ فقال بديل:

- يا معشر قريش! إنَّكم تَعْجَلون على محمد، وإنَّ محمداً لم يأت لقتال؛ وإنَّما جاء زائراً هذا البيت!

صاح عكرمة بن أبي جهل بحميَّةٍ صارمة:

- أخبروه عنا: أنَّه لا يدخلها علينا أبداً.. حتى لا يبقى مِنّا رجل!!

فأعرض عنه بديل بن ورقاء.. واسترسل قائلاً:

- وإنَّه يقول: يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر العرب، فإنْ هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإنْ أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإنْ لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظنُّ قريش.. فو الله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يُظهِره الله.. أو تنفرد هذه السالفة[1]!

جأر عمرو بن سالم الخزاعي.. أحد أفراد وفد خزاعة:

- والله.. لا تُنصَرون على مَن يعرض هذا أبدا!!

استشاط مكرز بن حفص وعكرمة بن أبي جهل.. والطائشون مِن ملأ قريش، فشاتموا وفد خزاعة.. واتهموهم بالتَحيُّز إلى محمدٍ وأصحابه، ورفضوا وساطتهم، وصرفوهم مِن مجلسهم.

*****

مرَّ بعض يومٍ، ثم نكص خالد بن الوليد على عقبيه.. بكتيبة فرسانه مُنكفئين إلى معسكر بلدح، تباغت سادة قريش.. وارتابوا، فأرسلوا إلى خالد، ولج فسطاطهم؛ فبادهوه مُستفِهمين:

---

[1] : السالفة: صفحة العنق.. يعني: حتى تذهب روحه.

- ما خطبكم.. يا أبا سليمان؟!!
- تحركنا من كراع الغميم إلى وادي عُسْفان حيث نزل محمدٌ وأصحابه.. طامحين أنْ نُرهبهم أو نأخذهم على غِرَّةٍ، وسَدَدْنا عليهم الجادَّة إلى مكة، ثم تعمَّدتُ إثارتهم واستدراجهم للقتال؛ فاقتربتُ حتى لم يكن بيننا وبينهم مرمى حجر، وصففتُ الخيل بينهم وبين الكعبة لأمنعهم من صلاتهم، وتَوهَّمتُ أنَّ خطتي نجحت؛ فقد خرج أمامي جماعةٌ مِن فرسانهم، لكن –بعد حين- رأينا قَتَرَةَ جيشهم وقد خالفوا عن طريقنا، وسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش!!
- لا أشك أنَّهم يسعون إلى ثنية المرار[1].. مهبط الحديبية من أسفل مكة!؟ (هتف أحدهم)
- إنَّه طريقٌ ضيقٌ -بين الشعاب-، وعرٌ.. أجرلٌ[2]، مهجورٌ.. لا يعلمه أحدٌ سِوَى خِرِّيتٌ[3].. عالمٌ بالمسالك!! (أضاف ثان)
- قد يضلون الطريق.. أو يلقون عنتاً شديداً حتى يصلوا أسفل مكة!؟؟ لِمَ يتجنب محمدٌ الاصطدام بفرساننا؟؟ ولِمَ يُجهِد أصحابه كل هذا الجهد؟؟! (تساءل ثالث.. مُتعجِباً).

بينما جأر الحُلَيس (سيد الأحابيش).. باستحسان:

- أحسب أنَّه جاء راغباً في زيارة البيت.. حقاً، ويستعظم أنْ يدخل الحرم مقاتلاً!!

---

[1] : هي: ثنية ذات الحنظل.

[2] : كثير الحجارة

[3] : الدليل الحاذق.

- لا تُحسن به الظن هكذا.. يا سيد الأحابيش! نرى أنَّه يخشانا، ويهرب مِن سيوفنا التي ستأخذه –هو وأصحابه- كل مأخذ!!
- إذاً.. القول الفصل أنَّ محمداً تجنَّب دخول مكة مِن جهة التنعيم، ويسعى إلى دخولها.. من جهة الحديبية!!؟
- إذ لم يرجع إلى يثرب؛ فليس –ثمة- سبيلٌ آخر!!

*****

حين علم النبي ﷺ بكتيبة فرسان خالد –ورأى عزمهم على اعتراض طريقه.. وجرَّه إلى قتالٍ لا يرغب فيه- أمر أصحابه أنْ يسلكوا ذات اليمين –مبتعدين عن الاحتكاك بفرسان خالد-، ثم سأل أصحابه:

- هل مِن رجلٍ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ أيكم يعرف ثَنِيّة[1] ذات الحنظل[2]؟؟

فقال بُريدة[3] بن الخصيب الأسلمي:

- أنا –يا رسول الله- عالمٌ بها!!
- أُسلك أمامنا!

قاد بريدةُ النبي ﷺ وأصحابه غرباً.. في طريقٍ مُتعرّجٍ قُبال جبل سراوع[33]، سار –قليلاً- تنكَّبه الحجارة وتعلقه الشجر، ثم احتار.. كأنَّه لم يعرفها قط؛

---

[1] : الثَّنِيَّة: هي الطريق في الجبل.

[2] : تعرف أيضاً بثنية المراد.. وتعرف اليوم بفج الكريمي.

[3] : رجلٌ من بني أسلم، وبني أسلم أدلاء.. ويعرفون هذه المنطقة بشكل جيد، وكان مع النبي منهم يومئذ: قرابة المائة رجل.

[33] : من سلاسل جبال تهامة.. شمال غربي مكة المكرمة.

فتوقَّف.. ثم قال:

- احترتُ.. يا رسول الله!! والله.. إنْ كنتُ لأسلكها –في الجمعة- مراراً!

فلما رآه النبي ﷺ قد احتار وضَلَّ عنها؛ قال له:

- اركب!!

ثم نادى رسولُ الله ﷺ:

- مَن رجل يدلنا على طريق ذات الحنظل؟؟

فنزل حمزة بن عمرو الأسلمي.. فقال:

- أنا –يا رسول الله- أدلك!

فسار قليلاً.. ثم سَقَطَ بهم في خمر الشجر؛ فلم يدرِ أين يتوجَّه، فنزل عمرو بن عبد نهم الأسلمي.. وانطلق أمامهم وسار بهم حتى جهدوا، ثم نظر رسول الله ﷺ فرأى ثَنِيَّةً؛ فسأله:

- هذه.. ثَنِيَّة ذات الحنظل؟؟

- نعم.. يا رسول الله!

فوقف النبي ﷺ وقال مُبشِّراً:

- لا يجوز هذه الثَّنِيَّة أحدٌ.. إلا غُفِر له!!

فجعل أصحابه يتهافتون على اجتيازها.. حتى اِجْتَازوها بعد عناءٍ وضياعٍ في الطريق، ووصلوا إلى منقطع الوادي.. في طرف سهل الحديبية[1].

---

[1] : .الحديبية: هي موضع قرب مكة المكرمة على طريق جدة القديم، في مكان يُعرَف الآن بالشميسي تبعد قرابة ٢ كم من حد الحرم، وحوالي ٢٤ كم من المسجد الحرام، ويقال إنها سميت بهذا الاسم لوجود شجرة حدباء بذات الموضع.

فـما اِجْتَازوهـا إلا وقـد جـنَّ علـيهم الليـل –وكانـت ليلـة غيـر مقمـرة في أوائـل شـهر ذي القعـدة-، ثـم رأوا عجبـاً؛ فقـد أبصـروا السـماء.. قـد أضـاءت الأرض.. كأنَّمـا الليلة مقمرةٌ، تعجَّبوا؛ فقال لهم النبي ﷺ:

- قولوا: نستغفر الله.. ونتوب إليه!

فجأروا بها جميعاً؛ فأجابهم:

- والله.. إنَّها للحِطّة[1] التي عُرِضت على بني إسرائيل.. فلم يقولوها!

*****

تنفَّس الصبح، ولم يكد النبي ﷺ وأصحابه يطؤون سهل الحديبية.. حتى علمت بهم عيون قريش، وبلغ الخبر إلى ساداتها بوادي بلدح.. فوقع كما كانوا يتوقَّعون، عَلَّقوا على نزول النبي بذاك المنزل مُتندِّرين.. فقالوا:

- نزل –والله- بشر منزلٍ، فهو سهلٌ ناضبٌ فيه الماء، أمهلوهم قليلاً.. ولسوف يُلجئهم العطش إلينا؛ فنحكم فيهم بما نشاء!

وكذلك علمت خزاعة بمنزل النبي ﷺ؛ فشُقَّ عليهم –مسلمهم ومشركهم- أنْ ينزل محمدٌ وأصحابه -قريباً من ديارهم- بمنزلٍ شحيح الماء!!

*****

أصبح المسلمون –ولا سيما المهاجرين منهم- ينظرون إلى حرم مكة.. فهي على مرمى البصر، وما هي إلا خطواتٍ قليلة تفصلهم عن مراتع الصبا، خفقت القلوبُ وَجْداً وشوقاً.. وتَهيَّجت الذكريات والمشاعر، هفت قلوبهم إلى الكعبة وزمزم.. وإلى الصفا وأبي قبيس.. والحجون.

---

[1] : يريد قول الله –تعالى- لبني إسرائيل كما في سورة البقرة: {وقولوا حطة}.. ومعناه: اللهم حطّ عنا ذنوبنا.

وجاشت بخيالاتهم ذكريات عكاظ.. ومجنة وذي المجاز؛ سنون عديدة باعدت بينهم وبين تلك الذكريات.. حرمتهم فيها قريش من الوطن المحبوب!!

لكن الآن.. ها هم أولاء على وشك الدخول إلى أرض الله الحرام التي يأمن فيها الطير، ثارت الدماء في عروقهم تَلهُّفاً على تنشُّق عبيرها، نكزوا دوابهم.. يحثُّهم الحنين إلى مكة؛ أحب البلاد إليهم.. وإلى الله وإلى رسول الله؛ والتي لولا أنْ أخرجه أهلها منها.. ما خرج.

طردهم أهلها منذ سنوات –بعد أنْ صادروا أموالهم.. ومنعوهم أهلهم وأولادهم- لا لجريرةٍ إلا أنَّهم يقولون: (ربنا الله وحده.. لا شريك له)، هاجروا ضعفاء مستضعفين، لكن.. بإيمانهم مستمسكين، الآن.. بهم قوةٌ وعزيمة، الآن.. هم على أبواب مكة، جاءوا مُعظِّمين لحرمات الله.. معتمرين، سيدخلون الأرض المقدسة، ولن يقدر ملأُ قريش.. أنْ يمنعهم عنها؛ سيقاتلونهم على أبوابها بالسيوف.. حتى يدخلوا البيت الحرام.. ويطوفوا بالكعبة مُعتمِرين، أو يموتوا دونها؛ أجل! إما الطواف، أو القتال.. والموت في سبيل الله!!

كلا! لن يكون موتاً؛ بل.. نصرٌ وطواف، لقد جاءتهم البشرى، إنَّها الرؤيا التي حدَّثهم بها رسول الله ﷺ: أنَّه رأى في منامه أنَّه دخل مكة وأصحابه آمنين.. مُحلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين، وأنَّه أخذ مفتاح الكعبة ودخلها، وأنَّهم طافوا حولها مع الطائفين، إنَّها رؤيا حق.. لا يمارون فيها، ولسوف يدخلون ويطوفون.. رغم أنف قريش.. ورغم كيد الكائدين.

زجر النبي ﷺ ناقته (القصواء) لتجتاز حد الحرم[1]؛ فما تحركت.. بل بركت ولم تغادر مكانها، جفل الناس.. وهتفوا مُتشائمين:

- خلأت[2].. القصواء!!؟

فقال النبي ﷺ:

- ما خلأت.. وما هو لها بخُلُق[3]، ولكن حبسها حابس الفيل[33]!؟؟

ثم تفكَّر النبي ﷺ؛ فأدرك ما لم يُدركه غيره من أصحابه؛ فقال لهم:

- والذي نفس محمدٍ بيده.. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطةٍ يسألوني فيها صلة الرحم وتعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم إياها!

ثم زجر ناقته؛ فقامت –ليس بها بأس- وعاد بها راجعاً إلى الحديبية.. مُقرِّراً عدم اجتياز حدود الحرم، وأمر أصحابه بالنزول والمكث في الحديبية.

أطاعوا أمره.. ونزلوا على بئرٍ ليس فيها من الماء إلا النذر اليسير؛ فتسابق القوم إلى الماء.. كلٌ يريد أنْ يشرب ويسقي دابته؛ فوجدوا الماء لا يكفي لإرواء عطش النفر القليل، وثبوا يبحثون عن نبعٍ آخر للمياه؛ فما عثروا عليه.. إلا ما تسيطر عليه قريش؛ سُقِطَ في أيديهم.. واحتاروا!!؟

---

[1] : حَدُّ الْحَرَمِ مِنْ جِهَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ عِنْدَ التَّنْعِيمِ وَهُوَ عَلَى ثَلاَثَةِ أَمْيَالٍ. وَمَبْدَأُ التَّنْعِيمِ مِنْ جِهَةِ مَكَّةَ عِنْدَ بُيُوتِ السُّقْيَا، وَمِنْ جِهَةِ جُدَّةَ عَشَرَةُ أَمْيَالٍ عِنْدَ مُنْقَطَعِ الأَعْشَاشِ لآخِرِ الْحُدَيْبِيَة.

[2] : أي: حرنت.. وامتنعت عن أن تقم من مبركها، وهذا عيب في بعض الإبل.

[3] : لأنها كانت من أجود النوق المطاويع.

[33] : يقصد: فيل الحبشة الذي جاء به أبرهة الحبشي إلى الحرم لهدم الكعبة في عام الفيل.. قبل ما يقارب الستين سنة.

هرع ناجية بن جندب الأسلمي -وكان راعي بُدُن النبي- واشتكى إلى النبي.. فقال:

- يا رسول الله! ما بالوادي ماء لننزل عليه.. إلا ثَمْد[1]؟؟!

فدعا النبي بدلو من ماء ذاك القَلِيب[2]، فتوضَّأ منه، ثم مضمض فاه.. ثم مَجَّ في الدلو، ثم أخرج ﷺ سهماً من كنانته.. ودفعه إلى ناجية، وقال له:

- انزل بالماء فصبه في البئر، وأثِّر ماءها بالسهم!

ففعل ناجية كما أمره النبي ﷺ؛ ففارت البئر بالماء.. حتى طمَّت[3] واستوت بشفيرها[33]، وما كاد ناجية يخرج منها إلا وقد غمره الماء، وطفق الناس يغترفون الماء من جانبي البئر حتى نهلوا منه جميعاً.

اطمأن أصحاب ا لنبي ﷺ وارتووا، وما استقروا بالمكان.. حتى جاءهم رُسل خزاعة بهديةٍ مِن أشرافها.. تعبيراً عن مشاعر الودّ والصداقة، وكانت الهدية غنماً وجزوراً؛ فإنّهم قَدَّروا أنَّ طول المكث في عُسفان الذي أصاب ركب النبي ﷺ قد أهلك أغلب طعامهم.

أثنى النبي عليهم وشكرهم، بيد أنَّهم أخبروه ﷺ أنَّ سادة قريش تمادوا في غيهم.. ورفضوا وساطة بديل بن ورقاء والوفد الخزاعي، وردُّوهم خائبين.

أراد النبي ﷺ أنْ يبعث من عنده رسولاً ليؤكد لزعماء قريش صدق نواياه السلمية، وأنَّه جاء معتمراً.. لا مقاتلاً.

---

[1] : ماء ثَمْد: ماء قليل ليس له مدد.

[2] : القليب: هو البئر.

[3] : طمَّ الماء: كثر وغمر.

[33] : أي: فاضت على جانبي البئر.

وحبَّذ أنْ يكون مبعوثه حليفاً لبني مخزوم[1] (قادة قريش العسكريين)، وأيضاً من خزاعة نفسها.. لأنَّها قبيلةٌ على الحياد بينه وبين قريش.. وأنَّهم أول من تطوَّعوا للوساطة بينهم؛ فاختار لتلك المهمة الخزاعي: خِراش[2] بن أُميَّة، وقال له:

- اذهب.. فأخبرهم عنا أننا جئنا معتمرين.. معنا الهَدْي معكوفاً، فنطوف بالبيت ونحلّ وننصرف!

ثم حمله النبي ﷺ على جملٍ له.. يُدعى: (ثعلب).. تعرفه قريش بعلامته؛ ليستوثقوا مِن أنَّه مبعوث رسول الله.. ويتكلَّم بلسانه.

*****

امتثل خِراش لأمر النبي ﷺ وهبط إلى وادي بلدح.. حيث تقيم قريش بقضها وقضيضها وحلفائها.. ونسائها وأطفالها.

ولج البعير (ثعلب) إلى بلدح.. يتهدهد بمبعوث محمد.. الذي جاء ينادي:

- يا معشر قريش! أنا مبعوث رسول الله إليكم...

سمع صوته أهل المعسكر، وكان عكرمة -ابن أبي جهل المخزومي- أول المقبلين عليه، سمعه يقول: (رسول الله)؛ فثارت حفيظته.. واعترضه حانقاً:

---

[1] : هم أصحاب قبة قريش، أي: الحلقة والسلاح والحرب في قريش (بمعنى أوضح: مسئولو الشئون العسكرية في قريش)؛ ولكن سيادتهم كانت تنحصر على قبيلة قريش بعكس بني عبد مناف الذين كانت سيادتهم تتسع في الحروب لتشمل جميع قبيلة كنانة، وبنو مخزوم من أقوى ثلاث عشائر في مكة قبل الإسلام؛ أما العشيرتان الأخريان فهما: بنو هاشم.. وبنو أمية.

[2] : هو خِراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، كان حليف بني مخزوم من قريش، وكانت حرفته الحجامة.

(حليف بني مخزوم.. ويصيح بهذا وسط جيش قريش؟!!)، ثم أبصر الجمل (ثعلب) -الذي كان يعرف أنَّه جمل محمد- فتذكَّر جمل أبيه المَهْري الذي غنمه محمد منهم في بدر، أخذته الحميَّة الجاهلية.. وفارت دماء الثأر في عروقه، استل سيفه وهوى به على البعير.. فعقره، برك الجمل صريعاً.. وسَقَطَ مبعوث محمد من فوقه، وانقض عكرمة -فائراً.. ساخطاً- على حليف قومه.. يريد ضربه بالسيف؛ لولا أنْ أدركه الحُلَيس -سيد الأحابيش-.. وبعض رجاله؛ فاستنقذوه من بين يديه.

شاهد عروة بن مسعود المشهد باستياءٍ، وتمتم.. مُستهجِن صنيع عكرمة:

- لا يفلح قومٌ.. فعلوا هذا أبداً!!

وجاء الحارث بن هشام المخزومي -عم عكرمة- واعتذر عما بدر من ابن أخيه.. إكباراً لسيد الأحابيش وسيد ثقيف، ثم طيَّب خاطر خِراش -حليفهم الخزاعي- وسمعوا منه رسالته، بيد أنَّ عكرمة ومكرز بن حفص وآخرين من أصحاب الحميَّة الجاهلية الطائشة.. رفضوا طلب محمد، وهتفوا بإصرار:

- واللات والعزى.. لن يدخلها علينا أبداً.. وفينا عينٌ تطرف!!

ثم إنَّ سيد الأحابيش أخلى سبيل خِراش الخزاعي؛ فانكفأ إلى النبي وقال مُعتذِراً:

- يا رسول الله! ابعث رجلاً.. أمنع مني!!

*****

بيد أنَّ عروة بن مسعود لم يكف عن معاتبة عكرمة على ما فعله، واقترح أنْ يذهب بنفسه ليَدي[1]البعير ويسمع من محمد، على أنَّ عكرمة وصفوان بن أمية والآخرين.. رفضوا، اختلف القوم ولجُّوا.. حتى صاح مكرز بن حفص العامري.. قائلاً:

- ذروني.. أذهب أنا.. إلى محمدٍ!!

رمقه عكرمة مغتاظاً، بينما وافقه الآخرون، وانفض الجمع على أنْ يذهب مكرز بن حفص؛ غير أنَّه قبل أنْ يذهب.. اختلى بصديقه عكرمة مُخافتاً:

- أ وَجَدتَ عليَّ لأنني وافقت سيد ثقيف على رأيه؟؟!
- .....
- اسمع مني.. إذاً! فإني أرى أنَّ محمداً غير متهيئٍ لقتال؛ بل.. ويخاف أنْ يُناجزنا، وتلك هي فرصتنا السانحة.. لنثأر لما مضى؛ لذا.. فإنّي ذاهبٌ إليه.. لا لأسمع منه؛ إنَّما لأحزر[2]جيشه وعسكره، لعلنا نُصيب منهم غِرَّة؛ فنقتل منهم رجالاً؛ وتشتعل الحرب.. ويكون الذي تحب!!

تهلَّل وجه عكرمة وانفرجت أساريره.. وهمس بارتياح:

- إذاً.. اذهب، ولا تُحدِث أمراً.. حتى تُعلمني!!

*****

---

[1] : أي: يدفع ديته.

[2] : حزر الشيء: قدَّره بالتخمين.

انبلج النهار.. فخرج مكرز بن حفص –وبعض رفاقه- إلى الحديبية، نظر النبي ﷺ إلى مكرز قادماً، وتَفرَّسه من بعيد؛ فحذَّر أصحابه قائلاً:

- هذا رجلٌ.. غادرٌ!!؟

على أنَّ النبي ﷺ استقبله.. وسمع منه، كان مكرز يتكلَّم ويثرثر.. وعيناه تدوران في المكان كعيني ذئبٍ يبحث عن فريسةٍ شاردة، حتى لم يجد قولاً يتحدَّث به.. أنهى ثرثرته؛ فأجابه النبي ﷺ قائلاً:

- إنَّا لم نأت لقتال أحد.. ولكن جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإنْ شاءوا ماددناهم[1] مدة، ويُخلوا بيني وبين الناس؛ فإنْ أظهر.. فإنْ شاءوا أنْ يدخلوا فيما دخل فيه الناس.. فعلوا، وإلا فقد جمُوا[2]، فوالله.. لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي.. أو لينفذن الله أمره.

*****

رجع مكرز بن حفص إلى الملأ من قومه، لامح عكرمةَ بنظرةٍ خاطفةٍ ذات مغزى، ثم أنبأهم بما قاله محمد؛ فشكَّك القوم في صدق نواياه، وصَرَّحوا بأنَّهم يخافون الغدر.

فقام عروة بن مسعود –سيد ثقيف- فسألهم.. هاتفاً:

- يا معشر قريش! أ تتهمونني؟؟

- ما أنت عندنا بمتهم!!

- ألستم الوالد.. وأنا الولد؟؟!

---

[1] : جعلننا بيننا وبينهم مدة نترك فيها الحرب.

[2] : استراحوا.

- نعم!!
- وقد استنفرتُ لكم أهل عكاظ[1] لنصرتكم، فلمَّا بلَّحوا[11] عليَّ.. نفرتُ إليكم بنفسي وولدي ومَن أطاعني؟؟
- أجل! قد.. فعلتَ!!
- فإني ناصحٌ لكم.. شفيقٌ عليكم، لا أدخر عنكم نصحا، إنَّه قد جاءكم بخطة رشدٍ.. لا يردّها أحدٌ إلا أخذ شراً منها؛ فاقبلوها منه!
- كلا.. والله! لا يدخلها؛ فتتحدَّث العرب أنَّه دخلها علينا عنوة!!
- فابعثوني حتى آتيكم بمصداقها[2] من عنده!؟

*****

ذهب عروة إلى منازل الحديبية.. وغاب أمداً، ثم عاد بغير الوجه الذي ذهب به، دخل فسطاط قيادتهم؛ ثم التف حوله ملأُ قريش؛ فخطبهم قائلاً:

- يا معشر قريش! إنّي قد جئتُ محمداً.. فقلتُ: (يا محمد! أ جمعت أوشاب[22] الناس، ثم جئتَ بهم إلى بيضتك[3] لتفضَّها[33]؟!! إنَّها قريش.. قد خرجت معها العُوذ المطافيل.. قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوةً أبدا، وأيم الله.. لكأني بهؤلاء الأوباش قد انكشفوا عنك غدا!)، لكني.. وأيم الله.. قد رأيتُ عجبا!!

---

[1] : كان سوق عكاظ يقام –كل عام- في العشرين يوم الأولى من ذي القعدة، ومكانه شمال الطائف والتي يعد عروة بن مسعود هذا.. أحد سادتها.

[11] : أي: امتنعوا عن إجابتي.

[2] : بمعنى أنْ يتأكَّد لهم من صدق الخطة التي عرضها عليهم النبي.

[22] : أوباش وأخلاط.

[3] : أي: أهلك وأصلك.

[33] : أي: لتكسرها وتحطمها.

- ماذا رأيتَ.. يا أبا يعفور[1]؟!!
- قد رأيتُ ما يصنع أصحابه! والله.. وما يشدُّون إليه النظر، ولا يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أنْ يشير إلى أمرٍ.. فيُفعَل، إنَّه لا يتوضَّأ إلا ازدحموا على وَضُوءه[2] أيهم يظفر منه بشيءٍ، ولا بصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيءٌ إلا أخذوه!
- .....
- يا معشر قريش! إني قد وفدتُ على كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيتُ ملكاً في قومٍ قط مثل محمدٍ في أصحابه، ولقد رأيتُ قوماً لا يسلمونه لشيءٍ أبدا، فروا رأيكم.. وإياكم وإضجاع[3] الرأي!

استمع سادة قريش لسيد ثقيف وعكاظ.. حتى فرغ من حديثه؛ فسُقِطَ في أيديهم، ورأوا أنَّ لا مفر لهم -أمام إصرار محمد على دخول مكة مُعتمراً- من التخلِّي عن مبدأ: منع المسلمين نهائياً من دخول مكة، سكتوا ملياً.. حتى تضجَّر عروة.. وأعاد مقولته على أسماعهم: (إياكم وإضجاع الرأي!!)؛ فأجابوه:

- لا تتكلَّم بهذا أمام الناس.. يا أبا يعفور! لكن.. نَردُّه عامنا هذا، ويرجع إلينا قابل!!

---

[1] : هي: كنيته -أي: عروة بن مسعود- التي يكنى بها، واليعفور: هو ولد البقرة الوحشية.

[2] : هو الماء الذي يُوضَّأ به.

[3] : أي: الوهن في الرأي.

- ما أراكم.. إلا ستُصيبكم قارعةٌ! وإني مُنصرفٌ –من الغد- مع مَن معي مِن ثقيف.. إلى الطائف!!؟

*****

وإنْ كانوا أقل عدداً؛ إلا أنَّ.. انسحاب سيد ثقيف برجاله من معسكر بلدح أحدث شقاً في الصف، وأدى إلى اضطراب موقف قريش، وهزَّ ثقة زعمائها في قوتهم، ورغم ذلك.. استرسلوا في غيهم.. واشتطُّوا في تعنُّتهم، وأظهروا لجنودهم وحلفائهم الآخرين.. أنَّهم مُصِرُّون على منع محمدٍ من دخول حرم مكة؛ وكأنَّها حرمهم هم.. لا حرم الله ونبيه إبراهيم.. عليه السلام!

خاف العقلاء من قادة قريش أنْ يتخلّى عنهم الحليف الأكبر –ألا وهم الأحابيش- كما تخلَّى عنهم سيد ثقيف؛ ففكَّروا أنْ يدفعوا الحُلَيس بن زبّان –سيد الأحابيش- نفسه ليكون الوسيط الجديد بينهم وبين محمد، اجتمعوا به.. والتمسوا منه الوساطة، وشَددُّوا على أنَّهم يخشون أنْ يكون محمدٌ جاء غادراً، وأنَّهم يخافون أنْ يدخل الحرم بأصحابه.. فينتهكوا الحرمات ويُفسِدوا في الأرض، وقد فعلها مِن قبلُ.. حين أهان آلهتهم وسَفَّه عقولهم وعقول آبائهم، استجاب سيد الأحابيش.. وانبرى للقاء محمدٍ؛ لعلّه ينصحه.. ويُرشده إلى ما فيه صلة الرحم وتعظيم الحرمات.. ويَردُّه عن الإفساد في الأرض.

توَّجه الحُلَيس إلى الحديبية؛ فلمّا علم النبي ﷺ بإقباله عليهم.. قال لأصحابه:

- إنَّ هذا من قومٍ يتألَّهون؛ ابعثوا الهَدْي في وجهه.. حتى يراها!

وافى الحُلَيس الحديبية.. واقترب مِن مضارب المسلمين؛ فرأى الهَدْي يسيل عليه من عُرض الوادي في قلائده[1] وقد أكل أوباره من طول الحبس عن الكعبة، ثم سمع أصوات أصحاب محمدٍ.. يجأرون بالتلبية، ثم استقبلوه.. فرآهم قد شعثوا من طول المكث على إحرامهم؛ فقال مُستنكِراً أنْ يُصَدَّ مثل هؤلاء عن الحرم:

- ما ينبغي لهؤلاء أنْ يُصدُّوا عن البيت، أبى الله إلا أنْ يحجَّ نخَم وجُذام ونَهد وحِميْر[2]؛ ويُمنع.. ابن عبد المطلب؟!!

استقبله النبي ﷺ وأكرم نزله؛ فجلس مُستحِيّاً مما رأى.. وتمتم هامساً:

- هلكت قريش.. ورب الكعبة! إنَّ القوم[3] أَتوا عمَّارا!!؟

سمعه النبي -ﷺ- فأقرَّه مؤكِّداً:

- أجل.. يا أخا بني كِنانة!!

استحى الرجل أنْ يُكلِّم النبي ﷺ فيما بعثته به قريش، وقام مِن مقامه.. مُحرَجاً، ورجع إلى سادة قريش ليصارحهم.. بلا مواربة:

---

[1] : ما يُعلق في أعناق الإبل علامة على أنَّها هَدْي.

[2] : قبائل عربية.. بعيدة عن مكة.

[3] : يقصد المسلمين.

- إنّي قد رأيتُ ما لا يَحلُّ صَدُّه؛ رأيتُ الهَدْي في قلائده قد أكل أوباره.. معكوفاً عن محله، والرجال قد تَفِلوا[1] وقَمِلوا[2].. أنْ يطوفوا بهذا البيت!!

وَجَم القوم.. مندهشين مِن تَبدُّل رأي سيد الأحباش، واغتاظ منه عكرمة؛ فأجابه هازئاً به:

- إنَّما أنت أعرابي.. لا علم لك!!

انتفض الحُلَيس غاضباً.. وصاح بصرامة:

- أما –والله- ما على هذا حالفناكم.. ولا عاقدناكم!! أ يُصدُّ عن بيت الله من جاء مُعظِّماً لحرمته؟!! والذي نفس الحُلَيس بيده.. لتُخلُّن بين محمدٍ وما جاء له؛ أو لأنفرنَّ بالأحابيش نَفرة رجلٍ واحد!!

نهض إليه سهيل.. مُلاطِفاً ومُسكِّناً؛ فأخذ بذراعه.. يربت عليه ويقول:

- مَهْ.. يا حُلَيس!! كف عنا.. حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به!!

هدأت حدة الحُلَيس شيئاً يسيراً، وجلس يترقَّب رأي حكماء قريش؛ فيما خرج عكرمة مغاضباً.. ولحق به مكرز بن حفص مُوحياً إليهم أنَّه سيهدِّئه.

*****

---

[1] : أي: تغيرت رائحتهم.

[2] : قَمِلَ رأسه: أي صار ذا قَمْل.

انتبذ مكرز وعكرمة.. ومكثا يتناجيان؛ همس عكرمة مُتعجِّباً مُتحسِّراً:

- تباً!! جمعنا الجنود حتى ضَجَّ بهم الوادي.. وتحدَّثت بعددهم العرب، وأخرجنا له مئتين فارس من الصناديد يقودهم خالد.. ليمنعوه وأصحابه مِن تجاوز عُسفان؛ فخدعهم.. ونفذ إلى الحديبية؟! أ ومثل خالد بن الوليد.. يُخدَع؟؟!
- وحَسِبنا أنَّ بُرُوض[1] الماء حيث حَلُّوا سيُهلِكهم أو يُلجئهم إلينا.. فنحكم فيهم بما نشاء!؟ ولا أدري: كيف يأتيهم الماء في ذاك المكان؟!
- إنَّه.. ساحرٌ!! ألا ترى –يا مكرز- أنَّه يسحر كل رجلٍ منا ذهب ليُكلِّمه؛ حتى سيد ثقيف.. وسيد الأحابيش؟!
- لكنَّه لم يسحرني.. يا أبا عثمان!!
- أخشى أنْ يملَّ الجنود طول المكث ها هنا؛ فينفضون من حولنا!!
- إذاً.. تنكسر شوكتنا أمام محمد، وتكن فضيحةً نُعيَّر بها بين العرب.. أبد الدهر!!
- فما العمل.. يا أخا بني عامر؟؟! (تساءل عكرمة.. مُتحيِّراً)
- اِسمع مني.. يا أبا عثمان! إني قد حزرتُ القوم[2]؛ فقدَّرتُ أنَّ أعدادهم لا تزيد عن الأربعمائة وألف رجل، وليس معهم من السلاح إلا القليل!

أنصت إليه عكرمة مُنتبِهاً؛ فيما استرسل.. بخفوت:

- فلو باغتناهم ليلاً، وأصبنا منهم.. على حين غِرَّة؛

---

[1] : بروض الماء : قِلة الماء.

[2] : يقصد: مُخيَّم المسلمين في الحديبية.

نكن بهذا قد أنشبنا الحرب، وما هي إلا ساعةٌ مِن ليل.. وبعدها يصبح محمدٌ مُكبَّلاً بالقيود.. تحت أقدامنا؛ فما قولك؟؟

- إنَّها مغامرةٌ.. أخشى أنْ تفشل؛ وساعتئذ.. يُقاتِلنا محمدٌ بحجة أننا نحن مَن بدأ!!؟
- وذاك عين ما نحب، أنْ ينشب قتالٌ؛ فلا يدخل محمدٌ مكة.. أبدا، وساعتها.. تتحدَّث العرب أنَّه هو الذي بَغَى.. وانتهك البيت الحرام!!
- إنَّك شيطانٌ.. يا مكرز! وإذ قد عزمنا؛ فاكتم الأمر.. واختر معك رجالاً مِن شجعان قريش، أوقدوا لنا نار حربٍ.. نُحرز بها ثارات.. بدر والخندق!!
- لَعَمْرُك.. سأُشعلها.. حتى تأكل الحديبية بمَن فيها!

*****

كان أبو بصير مُقيماً بجسده وسلاحه في بلدح، بيد أنَّ قلبه عالقٌ في الحديبية؛ عالقٌ بالنبي ﷺ وأصحابه: (كيف يسعهم المقام في هذا الموطأ الظنون[1]: لا ماء ولا طعام.. ولا حبيب.. ولا مغيث؟!)، (قد جاءوا محرمين بالعمرة مِن أرباض يثرب بعيدة الشُّقَّة –لا شك في صدق نواياهم- يسوقون الهَدْي؛ وها هم أولاء محبوسون عن أداء عمرتهم.. ونحر هديهم.. والتحلُّل من إحرامهم؛ فيا تُرَى كيف حالهم –الحين- بعد مرور هذه الأيام الطويلة؟؟!).

---

[1] : يُقال: بئر ظنون.. أي يُشك في وجود ماء بها.

ما انفك يتساءل في سريرته بإحباطٍ وتضجُّرٍ: (مرت أيامٌ وأيام.. وقريش لم تزل تتخبَّط في غَيِّها وعنادها؟ إلى متى يظلُّ الحال على تلك الحال؟؟!).

ثم نسمت على خاطره ريحُ تفاؤلٍ -رغم ما هو فيه من غَمٍّ- وأُلقي في رُوعه: (هو رسول الله.. ولن يُضيِّع اللهُ رسولَه! وعسى أنْ يكتب ربي لي الخير؛ وأقدر على اللحاق بالنبي وأصحابه، وأهاجر معهم إلى يثرب!! وأخي.. أبو جندل؛ لن أنساه.. سأجد الوسيلة التي أُهرِّبها بها من محبسه.. وسآخذه معي إلى يثرب!!).

انتبه -من شروده في أفكاره المتلاطمة وخواطره الحالمة- على مكرز بن حفص العامري يجوس خلال الخيام.. وينزوي -على غير عادته- بالرجل أو الرجلين من فرسان قريش.. يُسرُّهم بالحديث ثم ينصرف إلى غيرهم، ارتاب فيه.. فشرع يترصَّده من بعيد؛ فرآه يطوف على رجالٍ مِن فُتّاك قريش.. هو يعرف عدداً -غير قليلٍ- منهم: (ماذا تَحُوك.. يا أخا بني عامر؟!! إني أعرفك.. يا مكرز: شيطانٌ فَاتكٌ.. لا تتورَّع عن الغدر؛ فبأي حديثٍ تناجي هؤلاء.. الحين؟!!).

عزم على أنْ يقترب مِن أولئك الرجال ويختلط بهم.. ليتعرَّف على تدبير مكرز الخفي، دلف إلى صديقٍ له منهم.. وقعد يحتسي معه الخمر، جعل يستدرجه في الكلام حتى علم أنَّ مكرز يُخطط لمداهمة مُخيَّم المسلمين في الحديبية ليلاً، انقبض قلبه.. وتَملَّكه الخوف على النبي وأصحابه، واحتار عقله: (كيف يمنع رسول الله؟؟!)، ظلَّ يُفكِّر.. حتى تخبَّطت أفكاره وما اهتدى لرأي: (هل يغتال مكرز؟ ستبطش به قريش.. وسيخرج سبعون رجلٍ مثل مكرز!!؟).

ثـم ارتـأى أنَّ الأمثـل أنْ ينضـم لفريـق مكـرز، ويكمـن معهـم حيـث يكمنـون، فـإذا صـادف منهم خطـراً على رسـول الله وأصحابه؛ يتصـرَّف.. ويمنـع رسـول الله، كلَّـم صـديقه.. وصـارحه برغبتـه في الانضـمام إلى سـرية مكـرز، هـرع بـه إلى مكـرز، تطلَّـع إليـه.. فـرآه شـاباً قويـاً، وعـرف أنَّـه أبـو بصـير الثقفي.. حليـف بني زهـرة، وعَلِـم أنَّـه فـارسٌ محـاربٌ ذو بـأس؛ ففـرح بـه.. وضَمَّه إلى عصـبته، ثـم أَسَـرَّهما: أنْ أُكتمـا الأمـر.. حتى يكتمـل عـددنا، ثـم أُعلِمكما.. متى نُغير على العدو.

*****

اسـتوثق مكـرز مِـن رجالـه الـذين يربـو عـددهم عـن الخمسـين، قسَّـمهم أفواجـاً.. وعـرَّف كل فـوجٍ منهم بجهـة المخيَّم التي سـيقتحمها؛ أرادهـا إغـارةً حاسـمة.. يقصم فيها أصحابَ محمدٍ.. بلا رحمة.

في غَلَس[1] الليل.. تلثم الرجال، واستلوا خناجرهم الغادرة، انسلوا متسلِّلين إلى الحديبية، أحاطوا بمضارب المسلمين.. وتفرَّقوا حواليها؛ كل زمرةٍ تعرف على أي الجهات ستهجم، وشيطان مكرز يوسوس له: (ما هي سِوَى لحظاتٍ.. وتذبح خناجري وسيوفي رقابَ محمدٍ وأصحابه؛ لحظات.. وأُشعل ظلمةَ الليل ناراً مُوقَدة تحرق قلوب الصابئين، ثم يعج سكونه.. بصرخاتهم المستغيثة!).

أحس أبو بصير بخطأ رأيه: (ما هذا الذي فعلتُ؟! كيف سأمنع هؤلاء مِن غزو مُخيَّم الرسول.. وقد تفرَّقوا؛ كل جماعةٍ.. في جهة؟؟! لبئس ما فعلتُ!!).

---

[1] : الغلس: هو ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

فيما ينسل -وكتفه بكتف مكرز الذي يرفل في تَجْفَافه[1]- شرع يُفكِّر كيف يُنبِّه المسلمين الغافلين إلى ما أحاط بهم مِن غدر: (هل أُشعِل ناراً؟ أو أصرخ.. فينتبهوا؟؟ أم.. هل أغدر بمكرز.. كما يريد أنْ يغدر بالمعتمرين.. وأقتله؟؟!).

لم يكد يستقر على رأي.. حتى أحس برماح المسلمين وسهامهم مُصوَّبةً عليهم مِن كل حدبٍ، ثم نظر.. فإذا بظلمة الليل قد أحالتها مشاعل حرس المسلمين -التي أحاطت بهم- إلى سياجٍ خانقٍ مِن الضياء، ثم سمع صوتاً جهورياً يُدوِّي.. حتى ارتجفت منه قلوبهم.. وشُلَّت منه حركتهم[2]:

- اثبت مكانك.. يا عدو الله.. وإلا أصبتُك!!

على ضوء مشاعل المُحاصِرين.. أبصر مكرزَ ترتعد فرائسه رعباً، رآه كأنَّه تجنَّدل مِن الخوف.. فما استطاع أنْ يتحرَّك، لم يتوَّقع أحدٌ مِن أولئك الغادرين أنْ يفطن لهم المسلمون؛ فوقعوا جميعاً في أيدي حراس المخيَّم، قيَّدوهم وساقوهم أمامهم، ثم تحفَّظوا عليهم في خباءٍ آمن: (أُسِر مقاتلو مكرز المُغيرون.. وفشل الهجوم الغادر!).

*****

لحظاتٌ صاخبةٌ انقضت.. كوميض البرق؛ وبعدها.. ألفى أبو بصير نفسه مُقيَّد الأطراف، وإلى جواره.. مكرز وعددٌ مِن محاربيه الفُتَّاك.. مقيَّدين مثله

[1] : ما يلبسه المحارب كالدرع.

[2] : كان النبي قد أمر بإنشاء ثلاث كتائب لحراسة مُخيَّم المسلمين وصدِّ أي عدوان طائش قد تقوم به قريش، وقادة هذه الكتائب الثلاث هم: عبّاد بن بشر، أوس بن خولي، محمد بن مسلمة، كلهم من الأنصار.

، محجـورون في جـوف خبـاءٍ مُظلِـم.. يُحـيط بهـم الحـرس المسـلم، تسـمَّع حديث الحراس إلى بعضهم؛ فعلم أنَّ بقية رجال مكرز قد وقعوا في الأسر.. وحُبِسـوا في أخبيـةٍ مجـاورة؛ هلَّـل قلبـه تَيَمُّنـاً، وسُـقِطَ في أيـدي مكـرز وجماعته، طافت عيناه المغرورقتان بدموع الفرح على أقرانه المحبوسين إلى جـواره؛ فمـا اسـتطاعتا أنْ تبصـر أمـارات الخيبـة والهلـع التي على الوجـوه؛ فما زال الصبح لم ينبلج.. ولمَّا تنكشف ظلمة الليل بعدُ.

سـمع أحـدهم يهمس مُضـطرِباً: "ماذا سـيفعلون بنا؟!!"، وسـمع مكرز يجيبـه مَخْزِيـاً: "الضـرب بالسـيف.. غير مُصْـفَح[1]!!"؛ فتمـتم أبـو بصـير في خـاطره: (نعـم! هـذا أهـون مـا تسـتحقه –أيهـا الغـادر- أنـت وأمثالـك!!)، هاجـت أفئـدة رفقـاء الغدر هلعاً وانزعاجاً، تعالى لغطهم.. حتى اضطرب السكون مِن حولهم.

لكن.. سـرعان ما غشـيهم صـوتٌ نديٌ.. ينـادي: "الله أكبر.. الله أكبر، الله أكبر.. الله أكبر، أشـهد أنَّ لا إلـه إلا الله!"، غطى النـداءُ على لغطهم.. وأحس أبـو بصـير كأنَّ ذاك النـداء ينتشـله بعيـداً عـن مكـرز وجماعتـه، شـعر كأنَّمـا انقطعـت صِـلَته بهـم؛ بـل انقطـع عـن مَـن في الأرض أجمعـين، رفـع بصـره.. وخـال نفسـه يُحلِّق في السـماء مع ذلك النـداء المهيب الـذي يسـمعه لأول مرةٍ في حياته، حدَّثته نفسه: (لا جرم.. هذا هو آذان الصلاة!!؟).

عَلِقَ يُردِّد –مع المؤذن- في قلبـه: (أشـهد أنَّ لا إلـه إلا الله، أشـهد أنَّ محمدا رسـول الله.. أشـهد أنَّ محمدا رسـول الله!)، ثم اسـترسـل مُغمغماً بشـفاهٍ مُرتجِفةٍ..

---

[1] : أي: الضرب بحد السيف لا بجنبه؛ كناية عن القتل.

وعَبراتٍ صامتة: (حي على الصلاة.. حي على الصلاة، حي على الفلاح.. حي على الفلاح!)، ثم جلجل صوت المؤذن صادحاً: "الصلاة خير مِن النوم.. الصلاة خير مِن النوم!"؛ فجاشت -في نفسه- مشاعرٌ مختلطة مِن الغبطة والحنين إلى الاصطفاف مع إخوانه المسلمين وراء رسول الله اصطفافهم للصلاة، ثم صدح المؤذن خاتماً ندائه: "الله أكبر.. الله أكبر، لا إله إلا الله!"، كرَّر أبو بصير بصوتٍ غير مسموع: (لا إله إلا الله!!)؛ تلك هي الكلمة التي يود أنْ يصدح.. عالياً بها صوته.. حتى تسمعها منه قريش وثقيف؛ بل.. مكة والطائف، بل.. الكون بأسره!

تساءل أحدهم مستريباً: "ما هذا؟؟!"، لم يملك أبو بصير أنْ أجابه بانتشاء:

- إنَّها الصلاة! صلاة.. الغداة!!

ما فطن أحدهم إلى نشوته؛ بل.. تَلَهَّفوا جميعاً لمشاهدة صلاة محمدٍ وأصحابه، بيد أنَّ جدار الخباء وغَلَسة الليل.. حجزا عنهم ذلك المشهد الباهر، دفعهم الفضول؛ فأرهفوا السمع، سمعوا حركاتٍ دؤوبةً تَدِبُّ في المُخيَّم: ماءٌ يُسكَب.. ترانيمٌ تُتلا.. همهمةُ نُسَّاكٍ مُتعبِدين، تملَّكتهم رهبةٌ وانبهار؛ شرع مكرز يزوم.. ويزوم ليدرأهما ويطردهما -عن قلبه- قبل أنْ يسحره محمد.. ويُسْيطِر على لبه، لكن.. هيهات!

مضت دقائقٌ يسيرة.. ثم صدح المؤذن مرةً أخرى، ثم سمعوا محمداً يتلُو قرآن ربه، ثم أصحابه يزأرون خَلْفه بخشوعٍ: "آميـــــن!!"، وجلت القلوب.. وسكنت نفوسهم –رغماً عنهم- لترتيل محمدٍ وصلاته، وغمغم أبو بصير مع

المسلمين: (آميـــن!!)، ما أشدّ ما يغبطهم ويحسدهم على اصطفافهم خَلْف النبي ﷺ وصلاتهم معه، إنَّ نفسه تتحرَّق شوقاً لأنْ ينهض.. ويصرخ: (إنّي أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأنَّ محمداً رسول الله! إنّي مسلمٌ؛ ذروني أقم معكم.. وأُصلي مع رسول الله!!)، بيد أنَّه ادكر صاحبه أبا جندل.. شريكه في إسلامه، ادكر تعاهدهما على النصرة لله.. وعلى الهجرة معاً إلى رسول الله؛ فضبط شوقه.. وملك نفسه.. وخافتها مُعزياً: (الصبر! لن أَفِرَّ إلى الله.. ولن ألوذ برسول الله.. دون أخي أبي جندل!!).

بينما المسلمون في صلاتهم خاشعون.. والمأسورون في غَمِّهم يتخبَّطون؛ جالت في خَلَده خاطرةٌ: (ماذا لو أمر النبي ﷺ بقتل هؤلاء؟!! سأُقتَل معهم!!؟)، (تالله.. لا أعبأ للموت؛ لكن.. يشقُّ عليَّ أنْ يقتلني أصحابُ رسول الله وهم يظنون أني كافرٌ!؟؟)، (كلا.. كلا!! أنا مسلمٌ -يا إخواني- وإني أشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله!!).

أنشأ يُحدِّث نفسه: (فلأجهر بها.. إذاً!! ويعلم الجميع -المسلمون والمشركون- أنَّ أبا بصير مسلمٌ!!)، (مَه.. يا أبا بصير! تَرَيَّث.. يا رجل! ماذا لو ظنَّ الناس أنَّك تقولها خوفاً مِن السيف؟؟!)، (لا.. والله! يعلم الله أني مسلمٌ حقاً؛ ولا ريب.. سيُنبِّئ اللهُ رسولَه بحقيقة ما أُخفي في صدري!!)، (إذاً.. تمهَّل حتى تَلقَى رسولَ الله.. وتعترف بين يديه بإسلامك!!).

شق شعاعُ النور ظلمات الليل، رُفِعت أغطية الأخبية.. وألفى أبو بصير نفسه جاثياً -هو وصناديد مكرز- بين يدي رسول الله.. وحراس

المسلمين يحيطون بهم من كل جانب، تلذذَّت عيناه برؤية رسول الله؛ بعد أنْ طربت أُذنه لسماع صلاته.. منذ برهة، انشرح صدره.. وهمَّ أنْ ينهض فيقول: (إنّي مسلمٌ.. يا رسول الله؛ ضمني إلى أصحابك!!)، على أنَّ جلبةً وصخباً شديدين قطعا عليه، التفت القوم ينظرون وراءهم؛ فشاهدوا زمرةً أخرى من الأُسارى يسوقهم حرس النبي ليقذفوهم تحت أقدامه: (مَن هؤلاء؟؟!)، (إنَّهم زمرةٌ -قرابة العشرين رجلاً مِن أصحاب مكرز- كان قد أخَّرهم ردءاً[1] له؛ فإنْ فشل المهاجمون.. ووقعوا في أيدي أصحاب محمد؛ فليُباغت أولئك المتأخرون أصحابَ محمد.. ويستنقذونه ومقاتليه مِن أيديهم!)، (لكن.. ها هم أولاء قد خاب كَيْدهم، ومحقهم الله وأخزاهم.. ووقعوا -هم أيضاً- أُسراء في أيدي المسلمين!): كان أبو بصير يُحدِّث نفسه وهو يتطلَّع إلى وجه مكرز.. باشمئزازٍ وتشفٍّ.

ثم سمع حَرَسَ رسول الله يصيحون.. في حنقٍ وتغيظٍ:

- الغادرون.. قتلوا رجلاً منا!!؟

نهض رسول الله إلى أصحابه ليطمئن على القتيل، وخلَّف الأسرى الغادرين.. وقد أحاطت بهم سيوف الحرس اللامعة.. ونظراتهم الشزراء، سمع أبو بصير بعض الحُرَّاس يتساءلون في سخط:

- أ هذا رَدُّ قريش على بعث عثمان[2] إليهم.. بالصلح؟؟!

---

[1] : الناصر أو المعين.. وهم الذين يقفون حتى إذا ترك المقاتلون القتال قاتلوا.

[2] : هو ذو النورين: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أحد أعيان بني أمية المرموقين قبل أنْ يدخل في الاسلام.

تلاقت عيناه بعيني مكرز اللاتين كانتا تتساءلان في اندهاشٍ: (وما بعث عثمان؟!!).

*****

قبل أمس.. وحينما كان مكرز يتهيَّأ لتنفيذ خطته الماكرة؛ كان النبي يُرسِل عثمان بن عفان الأموي.. إلى قريش كمبعوثٍ ثانٍ (بدلاً مِن خراش بن أُمية الخزاعي الذي رفضوا وساطته.. وعاد يقول للنبي مُعتذِراً: "يا رسول الله! ابعث رجلاً أمنع مني!")، وذلك لأنَّ عثمان أمنع في قريش مِن خراش؛ فهو قرشي شريف؛ عصبته هم بنو أمية.. أسياد قريش وزعماؤها.

امتثل عثمان لأمر النبي ﷺ ونزل إلى مكة.. غير عابئ بالمخاطر التي قد يواجهها.. وأقلها تعرُّض سفهاء قريش له بالشر والسوء!! واستأذن رهطٌ من المهاجرين النبي ﷺ في النزول معه إلى مكة تعضيداً له.. واشتياقاً لرؤية البلد الحرام.. وطنهم الأم ومرتع صباهم، استجاب لهم النبي ﷺ؛ فنزل عشرةُ رجالٍ[1] مع عثمان منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو (أخو أبي جندل.. مِن أبيه).

وبينما عثمان وأصحابه على مشارف مكة.. إذ رأتهم جماعةٌ من جنود قريش؛ فالتفوا حولهم شاهرين السيوف.. وهمُّوا بهم.. وكادوا أنْ يُقاتلوهم؛

---

[1] : هؤلاء العشرة هم: كرز بن جابر الفهري – عبد الله بن سهيل – عياش بن أبي ربيعة – هشام بن العاص بن وائل – حاطب بن أبي بلتعة – أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس – عبد الله بن حذافة – أبو الروم بن عمير – عمير بن وهب الجمحي – عبد الله بن أبي أمية بن وهب.

لولا أنْ أسرع أبان[2] بن سعيد بن العاص الأموي وحال بينهم.. واستنقذ ابن عمه والذين معه، وصاح في أهل مكة قائلاً:

- يا معشر قريش! إنَّ عثمان في جواري[2]؛ فكفوا عنه!!

ثم ركب فرسه.. وأردف عثمانَ خَلْفه وانطلق به يجوب أنحاء مكة؛ ليعلم الناس أنَّه قد أجاره، كفَّ الناس عن عثمان وأصحابه.. وخَلُّوا سبيلهم على مضض، ثم التقى عثمان بزعماء قريش.. وأبلغهم أنَّ النبي ﷺ وأصحابه لم يأتوا لحربٍ؛ بل جاءوا معتمرين مسالمين.. وأنَّهم سينصرفون عن مكة فور الانتهاء من المناسك ونحر الهدي، وأبلغهم أيضاً أنَّ النبي ﷺ يُخيِّرهم بين الدخول في الإسلام، أو المسالمة.. وهدنةٍ بينهم على أنْ يُخلُّوا بينه وبين العرب ليدعوهم إلى الإسلام.. والتزام الحياد التام بينه وبين أعدائه.

غير أنَّ قادة قريش ركبوا كِبْرهم.. واستمادوا في غَيِّهم.. ورفضوا عرض النبي ﷺ الذي جاءهم به عثمان.. وقالوا بحَمِيَّةٍ جاهليةٍ:

- لا كان هذا أبداً! ولا دخلها علينا عنوة!!

على أنَّ أبا سفيان بن حرب الأموي –زعيم قريش الأول.. والقائد الأعلى لجيش قريش وحلفائها- أحب أنْ يُجبر خاطر ابن عمه.. فقال له:

---

[1] : هو أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي.. وهو سيد من سادات قريش وبني عبد شمس المعدودين.

[2] : أي: في حمايتي أنا وعبد شمس، وقانون الجوار له قداسة عند العرب.. مَن يخرق العمل به يُعرض نفسه وقبيلته للعداوة الشديدة مع القبيلة المجيرة.

- يا ابن عفان!! إنْ شئتَ.. امكث معنا ثلاثة أيام.. طُفْ بالكعبة وزُرْ –أنت وأصحابك- مَن شئتم مِن بيوت أهليكم!!

فأجابه عثمان ﷺ:

- أما الطواف؛ فما كنتُ لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ، وأما أنْ نزور قومنا.. فلا بأس!!

وانتهز عثمان –وأصحابه- تلك الفرصة السانحة؛ فسعوا لزيارة بعض المستضعفين مِن المسلمين الذين لم يتمكَّنوا مِن الهجرة إلى المدينة؛ ليُبشِّروهم باقتراب الفرج.. حتى لا يستخفي الإيمانُ بمكة بعد الآن.

ومِمَن عَرّج عليهم عثمان.. آل بيت الهالك (عقبة بن أبي معيط الأموي).. ليلقى أمه (أروى بنت كريز).. وأخته لأمه (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط).

وحاول عبد الله[1] بن سهيل أنْ يلتقي بأخيه أبي جندل؛ بيد أنَّ أباه أبى ذلك.. وأساء استقبال ابنه -الذي لم يره منذ سنوات- ومنعه مِن لقاء أخيه المُعذَّب في محبسه، على أنَّ أم أبي جندل -التي شقَّ عليها التنكيلُ بابنها- أشفقت أنْ يجتمع عليه إيذاءُ أبيه له وحرمانُه مِن لقاء أخيه الغائب؛ فتحيَّنت فرصة انشغال سهيل وجنوده عن محبس أبي جندل.. واستقدمت ابن زوجها (عبد الله).. ليلتقي بأخيه سراً.

---

[1] : كنيته: أبو سهيل. أسلم في مكة قديمًا، وهاجر إلى الحبشة.. ثم رجع إلى مكة، فأخذه أبوه: سهيل بن عمرو، فأوثقه عنده ودفعه إلى ترك دينه، فأظهر الرجوع عن الإسلام، وعندما جمعت قريش جموعها للقتال في بدر، خرج عبد الله مع أبيه إلى بدر، فلما التقى الجمعان، تحوَّل إلى المسلمين وقاتل معهم.

دلف عبد الله إلى المحبس المظلم الضيّق، ألفى أخاه ذاهلاً.. غير آبهٍ بمَن يلج إليه، ألفاه رازِحاً في قيوده.. مُضْنىً في عذاباته؛ فتذكَّر -قبل أربع سنوات- حينما حبسه أبوه في ذات المكان ليُزحزحه عن إيمانه؛ تذكَّر التعذيب الشديد الذي لم يتحمَّله.. حتى أنَّه تظاهر بالرجوع عن الإسلام لينجو منه، أشفق على أخيه البائس.. وتألَّم لحاله، اقترب منه.. وبصوتٍ خافتٍ ناداه، التفت أبو جندل إلى الصوت المحبوب.. وما صَدَّق أنَّه حقيقةٌ؛ بل مِن سكرة العذاب.. ظنَّها أوهاماً!

تحسَّس عبد الله الأصفاد الثقيلة، انكرب لحال أخيه.. وما ملك أنْ انفلتت دموعه الشفيقة مِن عينه.. كأنَّها تنحدر إلى الأغلال تريد تحطيمها، دقَّق أبو جندل النظر؛ فعرف أخاه.. وهتف مُتباغِتاً.. ملهوفاً:

- أخي.. عبد الله!!

- أجل.. يا أبا جندل!

همس بها.. وهو ينكبُّ على أخيه يعانقه ويُقبِّل رأسه، امتزجت عَبرات الألم والحزن.. بدموع اللهفة والفرح، تشابكت أيديهما في حرارة واشتياق، همس أبو جندل في تَلهُّفٍ.. لكن بصوتٍ أوهنه الوَجَع:

- مرحباً.. أبا سهيل! كيف جئتَ إلى هنا؟؟!

- بعث النبي ﷺ عثمان بن عفان الأموي.. للتفاوض مع قريش، وجئتُ معه!!

- كيف حال رسول الله؟؟ هل هو بخير؟؟ وكيف حال أصحابه؟؟

- اِطمئن.. يا أخي! إنَّهم في أصلح حال! إنَّما يَسُوءني حالك.. أنت!!

- لا تجزع.. أبا سهيل! إنْ أنا إلا رجلٌ يُؤذى في سبيل الله!!؟

- يحزنني أنَّ أبي.. يُنكِّل بولده.. ليرُدَّه عن الدين الحق!

- بؤساً.. للمشركين الأنجاس!! (هتف حانقاً)

- مَهٍ.. أبا جندل! إنّه أبونا.. وقد أمرنا الله بالإحسان إلى الوالدين وإنْ كانا مشركين؛ فقال: {وإنْ جاهداك على أنْ تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون} (آية ١٥ سورة لقمان).

- إنَّه يفتنني عن ديني.. يا أبا سهيل!؟؟ (هتف مُتفجِّعاً)

- اِصبر.. أخي الحبيب!! عسى أنْ يجعل الله لك مخرجاً!

قالها.. والنشيج يخنق كلماته، ثم تمالك نفسه.. وخافته مُتفائلاً:

- أبشر.. يا أبا جندل! قد اقترب الفرج، ولن يستخفى الإيمان في مكة.. بعد اليوم!!

- كيف هذا.. يا أخي؟!! بشِّرني!!

- وأيم الله.. ما أدخلني إلى مكة.. ورسول الله محجوزٌ عن دخولها.. إلا لأزُفَّ تلك البشرى للمؤمنين المستضعفين!!

- وما ذاك.. يا أخي؟!! (هتف مُتلهِّفاً)

.. فاستأنف عبد الله هامساً بانشراح صدر:

- أصبحنا –ذات يومٍ- فاطَّلع علينا النبي ﷺ وهو مُتطلِّق الوجه.. تلتمع عيناه بشراً وسروراً، فصلى بنا الفجر.. ثم بشَّرنا أنَّه رأى – فيما يرى النائم- أنَّه دخل مكة هو وأصحابه آمنين.. مُحلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين، وأنَّه دخل البيت وأخذ مفتاحه.. وطاف هو وأصحابه مع الطائفين؛ فهلَّلنا.. وانشرحت صدورنا، وقد أيقنّا أنَّ رُؤيا الرسول حقٌ.. لا مراء فيها؛ وعَلِمنا أنَّنا –لا ريب- داخلون مكة.. وطائفون بالبيت؛ وها نحن أولاء على مشارفها!

زفر أبو جندل زفرةً شديدة.. كأنَّما يطرد بها اليأس والقنوط عن صدره، أُغرورقت عيناه بدموع الفرحة والاستبشار، ثم بكى.. وبكى حتى شَهِق وانتحب، وظنَّ أخوه أنَّ روحه.. قد تزهق لشدة فرحه بما خبَّره به؛ فما ملك دَمْعَ عينيه.. هو الآخر.

مكثا يبكيان ساعةً، ثم انتبه أبو جندل مِن نشوته، انتفض.. محاولاً أنْ يتملَّص من أغلاله.. وهتف بحماسٍ وشغف:

- ساعدني.. يا أبا سهيل! افْكُكْ معي هذه الأصفاد، وذَرْني.. أهرب معك إلى رسول الله!!

- عُذْراً.. يا أخي! أدخلتني أمك إليك خُفْيَة؛ وقد وعدتُها.. ألا أفعل!!

نكَّس أبو جندل رأسه.. وأذعن إلى تنصُّل أخيه؛ ثم همس.. بحسن رجاء:

- إذاً!! أَصبرُ.. إنْ شاء الله.. عسى أنْ يجعل لي مخرجاً، وإنَّ الذي أنزل رسولَه الحديبية.. لقادرٌ أنْ يُنزله مكة!!

- أصبتَ –والله- يا أبا جندل! وإنَّا لا نتمارى في نصر اللهِ رسولَه!

هنالك.. دُفِع البابُ –باب المحبس- دَفْعاً عنيفاً؛ فانفتح مُحدِّثاً صريراً مُزعِجاً، ثم اقتحم أبوهما المكان.. يتبعه نفرٌ من عبيده الأجلاف يحملون مشاعلاً تَشِبُّ نيرانها المتوهِّجة حَمِيَّةً وجهلاً، حدج الأب ولديه المستكينين بعيونٍ ناقمةٍ، أمر عبيده بشَدِّ وثاق أبي جندل، وجذب عبد الله مِن رأسه جذبةً شديدة.. ونبذه إلى بعض فتيانه ليقذفوا به بعيداً.. وهو يصيح مُوبِّخاً:

- أُخرج.. أيها الكلب الآبِق! اِرجع.. لابن عبد المطلب الذي فَضَّلتَه على أبيك وقومك.. وآثرتَ دينه على دين آبائك!!

ونزع السوطَ.. وجعل يضرب به أبا جندل ضرباً مُوجِعاً، وأبو جندل يكتم أنينه.. في ثباتٍ وأنفة، تألَّم عبد الله لألم أخيه؛ فانبرى يتدافع مع فتيان أبيه.. حتى خَلَصَ إليه يريد انتزاع السوط من يده.. والمنافحة عن أخيه، ازدجره أبوه.. صارخاً:

- اِنصرف عنا.. أيها الصابئ الأَشِر! فواللات والعزى.. لوما جوار بني أمية للفحتُك بالسيف، ولكبَّلتُك معه.. ولأُذيقنَّكما أشدَّ العذاب!!

طُرِد عبد الله بن سهيل مِن دار أبيه.. مُهاناً منبوذاً، ومِن محبس أخيه.. دونما يقدر أنْ يُغيثه أو ينصره، هَدَج مُتحسِّراً.. يتخبَّط في طرقات مكة لا يلوي على شيءٍ؛ يكاد ينفطر قلبه رأفةً بأخيه مِن عذاب الدنيا.. يخشى عليه أنْ يَزِلَّ ولا يثبت على إيمانه، وإشفاقاً على أبيه مِن عذاب الآخرة.. خوفاً عليه أنْ يثبت على جهله وكفره.

*****

فيما سهيل بن عمرو مُتشبِّثاً بالسوط.. يشتدُّ في جلد ولده -أبي جندل- كأنَّما يُنفِّس عن غيظه لامتناع ولده -عبد الله- عليه؛ إذ جاءه أحد جنود بلدح مهرولاً.. ليهتف:

- أدركنا.. يا أبا يزيد!!

هرع إلى خبائه -في بلدح- ليجد واحداً مِن فرسان مكرز ينتظره.. وآثار اللهاث والجزع لمَّا تفارقه، سأله.. باحتدام:

- ماذا وراءك.. أيها الفارس؟!!
- اِنجد -أبا يزيد.. أعزك الله- سبعين رجلاً مِن قومك.. على رأسهم: مكرز بن حفص!!
- أخبرني: ماذا أصابهم.. لا أم لك!؟؟ (صاح مُنفعِلاً)
- قبض عليهم أصحابُ محمد.. وهم يطوِّفون البارحة بالحديبية!!
- ولِمَ يطوَّفون بهم؟! أحسن حديثك -أيها الرجل- وأكمله؛ وإلا.. فلا حاجة لي بكلامك!!
- اِغفر لي.. يا سيد بني عامر! فإني مكروبٌ.. رأيتُ الموت بعيني؛ ولستُ أدري: كيف نجوتُ!؟ سأخبرك بالأمر كله!!
- إني.. أسمع! (هتف بتغيُّظٍ مكبوت)
- جمع مكرز رجالاً مِن فوارس قريش.. وحرَّضهم على مهاجمة الحديبية ليلاً.. ليُصيبوا مِن أصحاب محمد غِرَّة.. ويفتكوا بهم؛ لكن.. خاب تدبيره.. ووقعوا جميعاً في أيدي أصحاب محمد، غير أني اِنفلتُّ

هارباً قبل أنْ يصلوا إليَّ، ثم جئتُك.. عسى أنْ تدرك أصحابك قبل أنْ يقتلهم محمدٌ وأصحابه!!

- هل يسعى مكرز للإغارة على محمدٍ.. دون مشاورتي واستئذاني؟!! تباً له.. ولسوء تدبيره!!

*****

هرع سهيل إلى مِضْرَب أبي سفيان –القائد الأعلى للجيش- واختلى به ليسأله إنْ كان يعلم بما فعله مكرز، نفى أبو سفيان أنَّ له عِلْماً بهذا الفعل وأنكره.. ونعت فاعله بالحماقة؛ بيد أنَّ عكرمة (ابن أبي جهل) –الذي حضر تناجيهما- أقرَّ باتفاقه مع مكرز على الإغارة على الحديبية والفتك بمحمدٍ وأصحابه، اِحتدَّ عليه سهيل.. وصاح مُبكِّتاً:

- بئس ما بَيَّتَما!! أين عقلك.. يا ابن أبي الحكم؟! كيف توافق ذاك المُتهوِّر (يعني مكرز) على هواه؟؟!

أخذ أبو سيفان بكتفي سهيل.. وحاول أنْ يُسكِّن غضبه.. هامساً برَوِيَّة:

- اهدأ.. أبا يزيد! ينبغي أنْ نعالج تلك المصيبة بهدوء دون أنْ يعلم بها الحُلَيس (سيد الأحابيش)؛ فلإنْ علم أنَّا فعلنا.. قد يُدْبِر عنّا بجنوده!

غير أنَّ سهيلُ نَحَّى يديه.. وصاح مكظوماً:

- مِنَّا.. سبعون أسيراً في يد محمدٍ؛ أ تدريان.. ماذا يعني هذا؟!!

طأطأ أبو سفيان رأسه.. وجأر مُتخوِّفاً:

- قد يقتلهم.. جزاء ما منعناه دخول مكة!!؟

---

[1] : مضرب: الخيمة العظيمة.

هتف عكرمة بحَمِيَّةٍ جاهلية:

- واللات والعزى.. لإنْ فعل؛ لأُشعِلنَّ الحديبية عليه ناراً، ولأقتلنَّ ابن عفان والذين معه!!

اِحتدَّ أبو سيفان عليه.. صائحاً:

- ويحك.. يا عكرمة! أ تخفِر[1] جِوار[2] بني أمية؟!!

نكَّس عكرمة رأسه خجلاً.. وسكت ثلاثتهم عن الكلام، ثم.. بعد برهةٍ مِن الوجوم والتفكُّر.. همس سهيل بن عمرو بصرامةٍ:

- هذا الأمر لا يُحَلُّ إلا.. بالسياسة واللين!!

- كيف؟؟!

- سأذهب بنفسي.. إلى محمدٍ؛ عسى أنْ.. أساومه عليهم!!؟

جاوبه عكرمة.. مُنذِراً:

- اِحذر -أبا يزيد- أنْ يظنَّ محمدٌ بنا الضعف.. أو الاستسلام!؟

أَسكته أبو سفيان.. مُخافِتاً بحكمةٍ ورَوِيّة:

- مَهْ.. أبا عثمان! إنّي أخشى أنْ تنفض هذه الحشود مِن حولنا.. ولا نجد –غداً- مَن يقاتل معنا محمداً؛ فقلوب الناس وعقولهم عالقةٌ –الحين- بأرزاقهم في الموسم، لقد فَوَّتنا عليهم سوق عكاظ؛ ولا يحبون أنْ يضيع منهم سوق مَجَنَّة[3]!!

---

[1] : تنقض. [2] : عهد أمان.

[3] : كانت أسواقهم في موسم الحج في الجاهلية ثلاثة: الأول: سوق عكاظ.. وكان موعده من بداية ذي القعدة ولمدة عشرين يوماً.. ومكانه في شمال الطائف، والثاني: سوق مَجَنَّة.. ينتقلون إليه من عكاظ ليقضوا به العشر الأواخر من ذي القعدة.. مكانه مر الظهران (الجموم حالياً) شمال مكة، =

آنئذ.. أنهى سهيل بن عمرو الجدال.. هاتفاً في صرامةٍ:

- إنّي ذاهبٌ.. الآن!!

*****

في الحديبية.. حيث مكث المسلمون –مذ خرجوا مِن المدينة- قرابة العشرين يوماً يتشوَّقون إلى دخول مكة ورؤية الكعبة والطواف بها، وقد آذاهم طول المكث دون التحلُّل من الإحرام.. ودون نحر الهَدْي؛ حتى أنَّ النبي ﷺ رأى في أَعْيُن بعضهم رغبةً في كسر طوق الحصار الذي فرضته عليهم قريش، بل.. هَمَّ نفرٌ منهم أنْ يُصارحوه برغبتهم في مجابهة قريش.. واِقتحام مكة –ولو بحد السيف- لتأدية العمرة واِتمام المناسك.. ونحر الهَدْي؛ بيد أنَّ عِلْمهم بأنَّه ﷺ يحب دخول مكة بغير شجارٍ.. ولا قتال، وأنَّه حريصٌ على صون دماء الفريقين أنْ تراق في الحرم؛ عِلْمهم بذلك منعهم مِن مصارحته بما يجيش في صدورهم، فتَرَيَّثوا حتى يرى رأيه.

بيد أنَّ الموقف ينبغي أنْ يتغيَّر بعدما أسفرت قريش عن وجهها الغادر وأرسلت عشراتٍ مِن فوارسها الصناديد –ليلاً- لمهاجمة مضارب المسلمين في الحديبية؛ فالأمر –إذاً- لم يتوقَّف عند كِبر قريش أو صلفها الذي يعالجه النبي ﷺ بالصبر والحكمة واللين؛ بل تَعدَّى.. إلى الحصار والغدر: (لا جرم أنَّ إرسال أولئك الذين وقعوا أَسارَى في أيدينا دليلٌ على رفضهم الصلح الذي جاءهم به عثمان؛ ولماذا حبسوه عندهم.. إذاً؟؟!)،

---

=والثالث: ذي المجاز.. ينصرفون إليه من المجنة ليقضوا به الثمانية الأولى من ذي الحجة.. مكانه شمال شرقي مكة.. قريباً من جبل عرفات، ثم ينصرفون منه إلى حجهم والوقوف بعرفة.

... (آه.. عثمان!! لِمَا لم يرجع حتى الآن؟؟! ماذا فعلوا به؟!! الوَجَلُ.. أنَّ يكونوا غدروا به، وقتلوه.. وقتلوا أصحابنا العشرة الذين معه!!؟)، (ويح.. الغادرين! قتلوا عثمان.. والذين معه!!).

انقلب مُخيَّم المسلمين.. وتَقلَّبت الأفئدة في الصدور على نيران القلق والغيظ، وتهامس الناقمون على قريش: (ما العمل؟؟ قتلوا رسلنا المسالمين، وأرسلوا مَن يُطوِّف بنا غيلة!!)، (ليس رَدّاً على هذا الغدر.. إلا قَتْل أولئك الأَسْرى الغادرين.. الذين بين أيدينا، ثم المناجزة والقتال!!).

حالما تصبَّر أهل الحكمة والروِّية منهم.. قائلين: (يا معشر المسلمين! اِصبروا حتى يرى رسول الله ﷺ رأيه!).

*****

في منازل بني مازن بن النجار (قوم أم عمارة الأنصارية) -وكانوا قد نزلوا جميعاً في ناحية واحدة من الحديبية-؛ وفيما أم عمارة[1] تباشر أعمالها المعتادة للقيام

[1] : هي نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية، صحابية من بني مازن بن النجار.. من الخزرج، وبنو النجار هم أخوال عبد المطلب –جد النبي-، وأم عمارة من أوائل أهل يثرب دخولاً في الإسلام، فقد كانت إحدى امرأتين بايعتا النبي محمد في بيعة العقبة الثانية، ولما هاجر النبي إلى يثرب.. كانت أم عمارة من المخلصات في نشر الدين، وشاركت في غزوة أحد مع زوجها غزيّة بن عمرو وابنها، لتسقى الجرحى وتطبّبهم، لكنها بعد أنْ دارت الدائرة على المسلمين قاتلت هي وزوجها وابناها دفاعًا عن النبي، وأبلت بلاءً حسنًا وجُرحت ثلاثة عشر جُرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف؛ فدعا لهم النبي محمد أنْ يكونوا رفقائه في الجنة، وكانت قد خرجت مع زوجها وقومها في هذه العمرة، وكان مع النبي في هذه العمرة –عمرة الحديبية- أربع نساء: زوجه أم سلمة –أم المؤمنين.. ﷺ- وأم عمارة.. وأم منيع.. وأم عامر.. رضى الله عنهن جميعاً.

بحاجة قومها؛ رأت النبي ﷺ يَؤُمُّ مضاربهم؛ فظنَّت أنَّه يريد حاجة، هرعت إليه.. وهمست بتوقيرٍ وتبجيل:

- مرحباً.. يا رسول الله! هل أنادي لك.. غزيّة[1]؟؟؟

غير أنَّ النبي ﷺ جلس في ظل شجرة.. بجوار رحالهم.. وقال:

- نزل روح القدس، وأُمرتُ بالبيعة!

فذهبت تدعو زوجها.. وقومها، وسرعان ما نادى منادي رسول الله:

- أيها الناس! لا نبرح حتى نناجز القوم؛ البيعة.. البيعة!

فانطلق الناس يهرعون إلى الشجرة حيث جلس رسول الله ﷺ ليبايعوه، تساءلوا: (علامَ نبايع؟ على ألا نَفِرّ.. أم على الموت؟؟!)، فأقبل سنان[2] بن أبي سنان بن محصن الأسدي –وكان أول الذين بايعوا-.. فقال:

- يا رسول الله.. أُبايعك على ما في نفسك!
- وما في نفسي؟؟
- أضرب بسيفك بين يديك حتى يُظهرك الله.. أو أُقتل!!

فأقبل الناس –في إقدامٍ وحماس- يبايعون رسولَ الله على بيعة سنان بن أبي سنان، وتسابق الألف وأربعمائة رجل.. ملهوفين على البيعة وعلى مصافحة النبي ﷺ، وتزاحموا –بحَمِيَّةٍ واندفاع- حتى وطئوا متاع أم عمارة وقومها.

---

[1] : هو: غزيَّة بن عمرو –زوج أم عمارة - وهو صحابي جليل من الأنصار من بني مازن بن النجار من قبيلة الخزرج، شهد بيعة العقبة وشهد أحداً .

[2] : صحابي جليل، هاجر إلى يثرب، وشارك في غزوات بدر وأحد والخندق، عمه هو: عكاشة بن محصن الأسدي الذي بشَّره النبي بأنَّه مِمَن يدخلون الجنة بغير حساب.

نظرت أم عمارة؛ فأبصرت زوجها وقومها والمسلمين أجمعين.. قد تَوَشَّحوا السيوف وتلبَّسوا السلاح –وهو معهم يومئذٍ قليلٌ.. لأنَّهم جاءوا عمَّاراً مسالمين- ؛ فقامت إلى عمودٍ كانوا يستظلون به.. فأخذته في يدها وشدَّت في خاصرتها سكيناً، وقالت في نفسها: (إنْ دنا مني أحدٌ؛ رجوتُ أنْ أقتله!)

*****

فيما يبايع النبي ﷺ أصحابه تحت الشجرة.. وعمر بن الخطاب ﷺ آخذٌ بيده، والقوم مستنفرون.. مُتَوَشِّحون بالسيوف؛ إذ أقبل سهيل بن عمرو.. يصحبه حويطب بن عبد العزى وزمرةٌ مِن رجاله، ساقهم حرس النبي.. حتى مثُلوا بين يديه ﷺ، صادفوا أصحابَ محمدٍ يبايعونه على الموت، وعاينوا التحفُّز والغضب في عيونهم.. والعزيمة في سواعدهم وأيديهم القابضة على السلاح؛ فتطيَّروا.. وتَملَّكت الرهبة مِن قلوبهم، أشاح سهيل بوجهه؛ فأبصر مكرز وأصحابه أذلاء.. مُقرَّنين في الأصفاد.. محاصرين بسيوفٍ تتطلَّع إلى حصد رقابهم.

رغم فعلتهم الغادرة.. استقبلهم النبي ﷺ بسعة صدر، وسمع منهم؛ فاعتذروا.. وتَحدَّث سهيل فألان الكلام، وكرَّر الاعتذار عمّا بَدَرَ مِن مكرز وأعوانه أكثر من مرة، بل.. وصدح بها صراحةً: (يا محمد! إنَّ ما كان مِن قتال مَن قاتلك لم يكن من رأي ذوي رأينا.. ولا ذوي الأحلام منا؛ بل كنا له كارهين حين بلغنا، ولم نعلم به، وكان من سفهائنا!)، واعتذر –أيضاً- عن تأخير عثمان ورفقائه، وأكَّد للنبي وأصحابه.. أنَّهم –في مكة- ضيوفٌ مكرمون.. ولم يمسسهم أحدٌ بسوء، والتمس مِن النبي فِكَاك الأُسَراء.. وسأله بالرحم

التي بينه وبينهم أنْ يعفو عنهم.. ويخلِّي سبيلهم، ولمَّح إلى أنَّه سيجد نظير معروفه؛ على أنَّ النبي طالبه –قبل أي شيءٍ- بإرسال عثمان وأصحابه العشرة، بادر سهيل بالتلبية.. ليُبرهن على حسن النَوَايا، وبعث نفراً مِمَن معه إلى سادة قريش ليُسرعوا بإرسال عثمان وجميع الذين معه، فأجابه النبي ﷺ بذات الإجابة التي طالما ردَّدها على مسامع الرسل الذين اختلفوا بينه وبين قريش:

- لا تدعوني قريش –اليوم- إلى خطةٍ يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها!

بقي سهيل في مُخيَّم المسلمين.. ينتظر عودة عثمان ورفقائه.. على وجلٍ وترقُّب؛ لا يدري: ما سيفعل محمدٌ به.. أو بالأَسارَى؟!! غير أنَّه يطمع في الخير.. لِما يعلمه من كرم محمدٍ وحسن خلقه، نظر عن شِماله؛ فالتقت عينه بعيني مكرز، فحدجه بنظرةٍ شزراءٍ حانقة.. ثم أشاح عنه، ولم ينتبه إلى عيون أبي بصير التي تتفرَّسه تَوْقاً إلى سبر أغوار رأسه لمعرفة ما يدبِّره.. مرتاباً في أنْ يكون سيد بني عامر.. قد جنح للسلم حقاً.

لم تمض سويعات حتى قَدِم عثمان وأصحابه عائدين.. سالمين مُطمئنين، علم أنَّ رسول الله ﷺ بايع أصحابه تحت الشجرة؛ فهرع إليه وبايعه.. كما بايع الصحابة، ثم خَلَى بالنبي ساعة.. حَدَّثه فيها بما جرى بينه وبين قريش في مكة، ثم دنا رسول الله مِن سهيل.. والأسرى، رمقهم بنظراتٍ فاحصة.. ثم خاطب الأسرى سائلاً بصرامة:

- هل لكم عليَّ عهدٌ؟ هل لكم عليَّ ذمة؟؟

نكَّسوا رؤوسهم.. خانعين، ثم أقرُّوا.. قائلين بقلوبٍ واجفة.. وشفاهٍ مرتعشة:

- لا!!

ساعتئذ التفت ﷺ إلى أصحابه.. وقال:

- دعوهم.. يكن لهم بدءُ الفجور!

فأطلقوا سراحهم.. اِنصياعاً لأمر النبي ﷺ، انبهر سهيل بجِلم محمدٍ وسماحته، وبامتثال أصحابه التام لأمره.. على ما بهم من ضِيق واستنفار، نهض.. ليلحق بالأسرى الطلقاء.. واعداً النبي بأنْ يرجع إليه.. بعد مُشاورة سادة قريش.

*****

قبل انطلاق الأُسراء.. كاد أبو بصير أنْ يجأر بالشهادتين ليعلم الحاضرون –مسلمون ومشركون- أنَّه أسلم وجهه لله واتبع دين محمد، غير أنَّه بدَّل رأيه – في اللحظة الأخيرة- مخافة الغدر؛ نعم.. خاف غدرَ سهيل ومكرز برسول الله وأصحابه، فهو ما زال لا يثق بزعماء قريش.. ويخشى مكرهم برسول الله؛ لذا تراجع عن المجاهرة بإيمانه.. بعد أنْ أوشك أنْ يصدح بإسلامه أمامهم.. ويمدَّ يده للنبي يبايعه كما بايع أصحاب الشجرة، وحبَّذ أنْ يبقى مع حزب المشركين.. ليثبِّط كَيْدهم لرسول الله وأصحابه.

بيد أنَّه حمد الله –في سريرته- أنْ نجَّاه مِن القتل على أيدي إخوانه المسلمين وهم يجهلون إسلامه، وأنْ وهبه فرصةً.. لإنقاذ صاحبه أبي جندل من أيدي المشركين قبل أنْ يفتنوه عن دينه.

ألـزم نفسـه مرافقـة مكـرز بـن حفـص لظَنِّـه بـه أنَّـه سـيكون أول الغـادرين، سـار إلى جانبـه.. كتفـاً بكتـف؛ فسـمع سـيد بني عـامر –سهيل بن عمرو- يُبكِّتـه ويوبِّخـه على فعلتـه المتهـوِّرة التي أقـدم عليهـا دون مشـاورته.. ويخافتـه قـائلاً: (لومـا يـدٌ لـك عنـدي.. يـوم بـدر[1]؛ لتركتُك لمحمدٍ.. يقتلك!)، وسـمعه يُقسِـم له بآلهته إنْ عاد لمثلها.. ليلفحنَّه بالسـيف.. وليقطعنَّ رحمه؛ هـذا.. ومكـرز مطـأطئ رأسـه في خضـوعٍ وخـزي، تـنفَّس أبـو بصـير الصـعداء.. وأيقن أنْ الفرج قريبٌ.. وأنْ قريش على وشك التنازل عن كبرها وصلفها، ثم شـرع يتفكَّـر كيـف ينسـحب هـو وصـاحبه (أبـو جنـدل) من مكـة مهـاجرَيْن إلى رسـول الله.

*****

استقبل زعماءُ قريش مكرز وفرسانه بتجهُّمٍ وامتعاض.. خلا عكرمة بن أبي الجهل الذي ربت على كتفه.. وواساه.

ثـم انعقـد مجلـس الحـرب -في فسـطاط القيـادة ببلـدح- ليطَّلعـوا على نتـائج سِفارة سهيل بن عمرو.. الذي قام خطيباً:

[1] : وذلـك أنَّ سـهيل وقـع أسـيراً في أيـدي المسـلمين يـوم بـدر؛ فحضـر مكـرز إلى المدينـة بعـد المعركـة ليفتدي سهيل بنفسه.. وقال: اجعلوا رجليَّ في القيّد مكان رجليه حتى يبعث إليكم بالفداء.

- يا معشر قريش! لقد أطلق محمدٌ سبعين فارساً من فوارسنا بعد أنْ وقعوا جميعهم أسارى في أيدي أصحابه، عفا عنهم بدون شرطٍ ولا قيد.. وهو قادرٌ على أنْ يفجعنا فيهم.

زفر عكرمة زفرة تأفُّفٍ وضيق.. مُظهِراً عدم الرضا عن حديث شيخ بني عامر؛ فأعرض عنه سهيل.. واسترسل:

- يا معشر قريش! قد ذهبت السكرة.. وجاءت الفكرة! لقد رأيتُ أصحابه.. يبايعونه على القتال حتى الموت!؟ فَلِمَ المكابرة.. يا قوم؟؟! قد بعث إلينا رسولاً تلو الآخر.. ليؤكِّد أنَّه ما جاء إلا مُعتمِراً مُعظِّماً لبيت الله.. غير راغبٍ في قتال؛ فلِمَ نكابر.. ونضطره لقتال؟؟! أرى أنَّ محمداً أنصفنا.. وما أنصفناه!!

انبرى صفوان بن أمية.. مستنكِراً:

- أحسب أنَّ الرأي عندك –يا سيد بني عامر- أنْ نُذعن لمحمدٍ.. ونتركه يدخل مكة ويطوف بالكعبة أمام أعيننا؟!

ثم استرسل مُستقبِحاً الفكرة.. وهو يفرق نظراته بين الحاضرين:

- واللات.. لإنْ فعلنا؛ نكن هُزْأَة العرب.. أبد الدهر!

أجابه سهيل بأنفة حكيمة:

- ومتى كانت قريش تمنع مكة أحداً مِن العرب.. جاء حاجّاً مُعظِّماً لبيت الله.. يا أبا وهب؟؟!

صاح مكرز بن حفص.. بامتعاضٍ:

- وتتحدَّث العرب أنَّه دخل علينا عنوة.. بعد ما كان بيننا من حربٍ سِجال؟!!

رمقه سهيل باشمئزاز.. وخاطبه مُنذِراً: "اُسكت.. أنت!!"، ثم استطرد قائلاً:

- قد عرض محمدٌ أنْ نماده مُدَّةً؛ على ما بيننا مِن دَخَن، وتالله.. إنَّا أحوج منه إلى هذه الهُدْنَة؛ فقد شغلتنا الحرب حتى كسدت الأسواق.. وضاعت الأموال.. وهلك الناس!!

جأر عكرمة بن أبي جهل.. مُستهجِناً مُستعظِماً:

- ماذا تقول.. يا أبا يزيد؟؟ نحن نهادن محمداً.. وندع ثاراتنا؟؟!

أجاب سهيل في صرامة:

- قد نصحتُ لكم؛ فروا رأيكم!!

ثم قعد، فقام الحُلَيس –سيد الأحابيش- وخطب قائلاً:

"يا معشر بني كعب بن لؤي.. وعامر بن لؤي! إنَّ القوم قد أتوا عماراً؛ فلقد رأيتُ الهَدْي يسيل من عُرض الوادي في قلائده، وسمعتهم يُلبُّون.. وقد شعثوا من طول المكث على إحرامهم؛ لا ينبغي أنْ يُصَدَّ هؤلاء عن الحرم!؟"، ثم زأر.. صائحاً بحزمٍ وصرامة:

- وإنِّي أقولها لكم.. ثانياً: ما على هذا حالفناكم!! لا يُصدُّ عن بيت الله من جاء مُعظِّماً لحرمته؟!! والذي نفس الحُلَيس بيده.. لتُخلُّن بين محمدٍ وما جاء له؛ أو لأنفرنَّ بالأحابيش نَفرة رجلٍ واحد!!

زجره صفوان بن أمية قائلاً:

- مَهْ.. يا حُلَيس.. حتى نرى رأينا!!

استاء الحُلَيس، واختلف القوم.. ومضوا يتجادلون.. ويتَّهم بعضهم بعضاً حتى ارتفعت أصواتهم.. وتصاخبوا دون أنْ يستقر لهم رأي!

ثم هَبَّ أبو سفيان بن حرب –زعيم مكة- قائماً.. وقضم الجدال صائحاً في حسم: "قُضِي.. الأمر!!"، ثم اِلتفت إلى سهيل بن عمرو قائلاً:

- يا أبا يزيد.. إئت محمداً فصالحه؛ وليكن في صلحك ألا يدخل علينا في عامه هذا؛ بل ينصرف.. ويرجع قابل، فوالله.. لا يتحدَّث العرب أنَّه دخل علينا عنوة!!

تَذَمَّر عكرمة وصفوان ومكرز؛ بينما هتف سهيل مُستحسِناً: "نعم الرأي.. يا سيد قريش!"، ووافقه حويطب والحُلَيس.. وباقي الحضور، ثم أضاف:

- ينبغي أنْ يكون معي.. شهودٌ!!؟
- اِختر.. مَن تشاء!

انتخب رجلين من قومه (بني عامر بن لؤي) هما: حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص.. الذي احتجَّ وامتنع في البداية، ثم سَلَّمَ لإصرار سيد بني عامر، وامتثل لقرار سيد مكة الذي قضى بانضمامه لوفد التفاوض، بيد أنَّه انفلت مِن المجلس.. شاعراً بالإحباط.. حانقاً.

*****

ارتطم تعنُّت قريش وعنادها بحلم محمدٍ وسماحته؛ فاستحال كثيباً مهيلا، ولم تغن عنهم حميَّتهم الجاهلية شيئاً.

فارق مكرز فسطاط القيادة عابساً.. مُكفهِرّ الوجه، ثم أومأ إلى فتيانه أنْ يُهيِّئوا دابته للرحيل.

رآه أبو بصير الذي كان –على مبعدةٍ- يراقب الفسطاط.. في تَرقُّبٍ، تعبث بعقله الحيرةُ والظنون، أَقْبَل نحوه.. حتى دنا منه، تأمَّل وجهه؛ فأبصر تجهُّماً وانقباضاً.. استبشر بهما وتفاءل، على أنَّه أخفى استبشاره خَلْف ابتسامةٍ ساذجة.. وناداه:

- بِمَ قضيتم.. يا فارس بني عامر؟؟!
- لو كنتَ حاضراً.. ذاك المجلس؛ بِمَ كنتَ تقضي.. يا حليف بني زهرة؟؟ (حاول أنْ يواري رَزِيئته.. على أنَّ نبرته المتشائمة فضحته).

خادعه أبو بصير.. هاتفاً بحماسٍ مُفتعَل:

- نعاود الكَرَّة.. على الحديبية!
- لَعَمْرُي.. أنت خيرٌ مِن سادات قريش!!
- أ وقضيتم بخلاف هذا؟!! (اصطنع الاندهاش)

أعرض عن إجابته.. وانشغل بتفحُّص سَرْج جواده الذي قرَّبه إليه أحد غلمانه، توجَّس أبو بصير.. وانتابه القلق؛ فتَبِعه متسائلاً:

- أراك مُرتَحِلاً.. يا فارس بني عامر!؟
- أجل.. يا عتبة!!
- إلى أين؟؟! (تساءل بشيءٍ من الوَجَل)
- هلكت قريش.. ورب الكعبة!
- قد أقلقتني.. يا مكرز! خذني معك.. إنْ كنتَ ذاهباً لقتال محمد!
- بل.. ذاهبٌ لمصالحته!! (هتف بمرارةٍ ساخرة)
- كيف؟؟!

أجابه بنبرة تهكُّمٍ يائسة:

- قضى سادة قريش.. بعقد الصلح مع محمدٍ، وانتدبوا سهيلاً –شيخ بني عامر بن لؤي- ليتفاوض معه؛ فاختارني.. لأشهد معه!!؟

قذف بكلماته تلك -بنبرةٍ مخزية وصوتٍ متشائم- فيما يثب على صهوة جواده، ثم انصرف.. مُخلِّفاً أبي بصير مبهوتاً.. تتقاذفه الحيرة والفرحة: (أخيراً!؟ تُصالح قريشُ رسولَ الله.. بعد سنين طويلة من العناد والحرب!!)، (مَرْحى!! هل رضخ سادة قريش بهذا اليُسر؟؟!)، (أي يُسر؟!! لقد أكلتهم الحرب.. ولحقهم عنتٌ شديد؛ هم أحوج للصلح من رسول الله!!)، (الحمد لله! ينبغي أنْ أُبشر.. أبا جندل!!).

*****

- قد علمتُ أنَّ اللهَ ناصرُ رسوله!! (هتف أبو جندل مستبشراً.. والفرحة تتلألأ في عينيه.. اللتين آذاهما التعذيبُ والسهاد)

أجابه أبو بصير بنبرة سرورٍ.. لكن بصوتٍ خفيض:

- صدقتَ.. والله! وكأني أرى بعيني هذه رسول الله يطوف بالبيت ظافراً منتصراً، وكأني أراه –الآن- يهدم الأصنام!!
- آه.. آه.. يا أبا بصير!! كنتُ أخشى أنْ أموت قبل أنْ أرى هذا المشهد!!
- أشعر كأنّه حلمٌ.. لا حقيقة! ورب الكعبة.. لا أُصدِّق أنَّ قريش خضعت للصلح مع رسول الله!؟ ومَن سفيرها لذاك الصلح؟!! إنَّه سهيل بن عمرو.. شيخ بني عامر!
- قد صدقت الرؤيا التي رآها النبي.. وحدَّثني عنها أخي أبو سهيل!

جأر أبو بصير مُغتبِطاً: "الحمد لله!"، ثم استطرد بشيءٍ من التحسُّر:

- لـولا أمـوالٌ لي عنـد حليفـي (أزهـر بـن عبـد عـوف الزهـري).. وعـدني بسـدادها بعـد الموسـم؛ لأعلنـتُ إسـلامي الآن.. ولَلَحِقـتُ برسـول الله وأصحابه.. ودخلتُ معهم مكة معتمراً!

ثم أضاف بنبرةٍ مُشبَّعةٍ بحسن الرجاء:

- لكن.. أتريَّث حتى أسترد أموالي منه؛ فإنَّا سنحتاج إلى هذا المال.. بعد أنْ نهاجر إلى يثرب!!
- أما أنا! فـو الـذي نفسـي بيـده.. لا أُطيـق صـبراً، ولا يسـعني التريُّـث والانتظار؛ لابد أنْ ألحق برسـول الله ﷺ وأصحابه، وأدخل معهم الحرم مسلماً!!

اِنشَده أبو بصير، وتساءل.. مشيراً إلى الأغلال المُصفَّد فيها صاحبه:

- كيف.. وقد حبسك أبوك –في هذا السجن- وغلَّك.. بتلك القيود!
- هيا يا أبا بصير.. هيا يا أخي! ساعدني.. حطِّم هذه الأغلال، حرِّرني مِن هذا السجن.. عَلَّني ألحق برسول الله!

جعل أبو بصير يعالج الأصفاد الحديدية.. محاولاً حلَّها؛ حاول مرةً واثنتين.. وثلاث؛ فما استطاع تحرير صاحبه، بيد أنَّهما لم ييأسا.

*****

نادى حرسُ الحديبية: "هذا سهيل بن عمرو.. قد عاد.. يا رسول الله!".

استبشر النبي ﷺ وبشَّر أصحابه بالفرج قائلاً:

- قد سهَّل الله لكم من أمركم، قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل!

رغم مبايعة أصحابه على القتال.. لم يُخفِ النبي الكريم رغبته في الصلح والمهادنة.. راجياً حقن الدماء ومباشرة المسلمين حقهم في دخول مكة والطواف بالبيت بغير قتال؛ فقال لأصحابه:

- القوم ماتّون[1] إليكم بأرحامكم.. وسائلوكم الصلح؛ فابعثوا الهدي وأظهروا التلبية.. لعلَّ الله يُلِين قلوبهم!

امتثل الصحابة.. وفعلوا ما أمرهم به نبيهم، وارتفعت أصواتهم بالتلبية تشقُّ عنان السماء.. حتى ارتجَّت منها نواحي المُخيَّم.

أما سهيل بن عمرو.. والذين معه.. فقد حبَّذوا أنْ يقتنصوا من محمدٍ وأصحابه أكبر مكاسب ممكنة؛ فطفق سهيل يناقش النبي ﷺ ويجادله ويخاصمه.. ويرفع صوته صاخباً حتى تأذَّى الصحابة من تجاوزه حدود الأدب واللياقة مع الرسول؛ فقام عبَّاد بن بشر.. وسلمة بن سلمة بن حريش (صاحبيان من الأنصار) -مقنَّعين بالحديد والسلاح- بين يدي النبي لينهرا سهيل عن رفع صوته عند رسول الله.

جوهر الخلاف بين المتفاوضين يكمُن في إصرار قريش على عدم دخول المسلمين مكة.. ورجوعهم إلى المدينة دونما إتمام عمرتهم؛ بينما يتشبَّث أصحاب رسول الله ﷺ بحقهم في أداء عمرتهم والطواف بالبيت.. وذبحهم الهَدْي في حرم مكة!!

---

[1] : أي: منتسبون إليكم.

ظنَّ سهيل في نفسه أنَّه مفاوضٌ بارع ذو حنكة.. حينما وافقه النبي ﷺ على تمسُّكه برجوع المسلمين عن مكة هذا العام؛ الأمر الذي أثلج صدر مكرز بن حفص.. وأعاد إليه شيئاً من كرامته التي أُهدِرت بالأمس.

بل.. وزاده ثقةً في قدراته أنْ ضاعف النبي ﷺ مدة الهدنة إلى عشر سنوات؛ الأمر الذي سُرَّ به حويطب بن عبد العزى حرصاً على أمواله وتجارته التي كسدت بسبب الحرب مع محمد.

تملَّك الغرورُ من سهيل وتخيَّل أنَّه فاق محمداً دهاءً.. وحنكةً في التفاوض، بيد أنَّه لم يدرك أنَّ النبي ﷺ أفضل منه حنكة.. وأبعد منه رؤية؛ إذ أنَّه ﷺ بموافقتهم على هواهم في هذه وتلك.. قد انتزع منهم ومن قريش إقراراً صريحاً بحق المسلمين في دخول حرم مكة والعمرة والطواف بالبيت –وإنْ تأجَّل ذلك للعام القادم- بعد أنْ كانت قريش تُعِدُّ هذا الأمر ضرباً من ضروب المستحيل.

وأيضاً.. انتزع ﷺ منهم اعترافاً مُوَثَّقاً بالمسلمين ودولتهم الناشئة في المدينة ككيان مستقلٍ يَصِحُّ –بل.. يتحتَّم- التفاوض معهم ومصالحتهم.. بعد أنْ كانت قريش تعتبرهم صابئين مُتمرِّدين.. لا مَحيد عن محاربتهم والتخلُّص منهم.

غير أنَّ أصحاب النبي محمد ﷺ –الذين حضروا جلسات التفاوض- لم يعوا –هم أيضاً- ما يرمي إليه النبي ببعد نظره وسعة أفقه؛ فانكربوا.. وعارض جمهورهم ذاك الاتفاق، على أنَّ النبي ﷺ سكَّنهم.. وأمرهم بالامتثال؛

فخفضوا أصواتهم.. وقعدوا مُنصاعين لأمر النبي.. على تَغيُّظٍ من سهيل وجماعته.

لم يرتدع سهيل بما عاينه من ردّة فعل أصحاب محمد الساخطة؛ بل.. طالب بالمزيد من الإجحاف؛ طالب بأنْ يلتزم النبي ﷺ بردِّ كل مَن جاءه من أبناء قريش بغير إذن أهله.. حتى وإنْ كان مسلماً، ولا تلتزم قريش بردِّ مَن جاءها مِن أتباع محمد.

هاج الصحابة عليه.. ورفضوا مطالبه بحَمِيَّةٍ وانفعال، وصاح بعضهم:

- تالله.. لا نعطي الدنيَّة في ديننا، بيننا وبينكم السيف!!

لكنَّ النبي ﷺ أشار إليهم بالتزام الهدوء والسكينة.. وأمرهم بقبول ما يقبله؛ استجابوا كارهين مغمومين.. وصدورهم تغلي حنقاً على سهيل وأصحابه.

فرغ سهيل من إملاء شروطه، وأحب النبي ﷺ أنْ يضيف شرطاً آخر؛ ألا وهو: (مَن أحب -مِن العرب- أنْ يدخل في عقد محمدٍ وعهده.. دخل فيه، ومَن أراد أنْ يدخل في عقد قريش وعهدهم.. دخل فيه!)، فوافق سهيل وصاحباه على هذا الشرط.. ظانِّين أنْ أحداً –من العرب- لن يدخل في عهد النبي، ثم هتف سهيل: "نكتب كتاباً بذلك.. يا محمد.. ونُشهِد عليه الأشهاد!!"، فأقرَّه النبي ﷺ، ثم دعا أوس[1] بن خولي ليكتب الكتاب، رفض سهيل.. قائلاً:

- لا يكتب إلا أحد رجلين: ابن عمك علي.. أو عثمان بن عفان!

فدعا النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب.. ليكتب الوثيقة.

*****

[1] : صاحبي من الأنصار.. كان يُحسن الكتابة.

فيما يتهيَّأ الناس لكتابة الوثيقة، وبينما عليّ بن أبي طالب يُجهِّز صحائفه ويبري قلمه؛ إذ تباغت الناس برجلٍ -أشعث أغبر.. مُمزَّق الثياب.. يحجل على رجله.. ويرسف في قيدٍ من حديد- يطلع عليهم.. ويرمي نفسه بين أظهر المسلمين، دقَّقوا النظر في وجهه، وعاينوا آثار التعذيب على جسده، عَرفه عبد الله بن سهيل.. ونهض إليه صائحاً:

- أخي.. أبو جندل! لقد جاء مسلماً!!

أخذ يحتضنه ويُقبِّله.. ويغسل قيوده بدموع الفرح والشفقة، وهرع إليه المسلمون.. يرحبون به ويُصافحونه.. فرحين بإسلامه.. مسرورين بقدومه، امتلأ قلب أبي جندل بشراً وارتياحاً، وغدا يتنسَّم عبير الإيمان وهواء الحرية: (الحمد لله! نجوتُ من القوم الظالمين، ها أنا ذا فررتُ بديني.. إلى صفوف رسول الله وأصحابه!).

جاء بعضهم يسعى إلى رسول الله ﷺ يُبشِّره بقدوم أبي جندل مسلماً، انتبه سهيل بن عمرو، وتفاجئ بهروب ابنه الصابئ من محبسه.. ولجوئه إلى محمد، طفر -من مجلسه- غاضباً.. وهرول ليراه بعينه، أبصره بين المسلمين؛ حطَّموا قيده.. وشرعوا يسقونه ويُطعمونه.. مُرحِّبين مُستبشِرين، حدجه بنظراتٍ مَغْيوظة.. فيما ترتسم على ثغر أبي جندل بسمةُ ارتياحٍ وهناءة، استشاط.. ونفرت الحَمِيَّة الجاهلية في عروقه؛ فأسرع إلى ولده الصابئ ينتزعه من بين المسلمين.. وهرع وراءه صاحباه.

أخذ بتلابيبه، ومضى يَجُرُّه إلى حيث يجلس النبي.. يدفعه معه صاحباه، وأبو جندل يقاومهم ويتشبَّث بالمسلمين ويستغيث بهم؛ فالتقط سهيل

غصن شجرةٍ ذا شوك.. وطفق يضرب به وجهه، تكدَّر المسلمون واستاءوا من بطش ذاك الشيخ الجِلْف بولده، وهَمَّوا أنْ يبطشوا به نجدةً لأخيهم المسلم الجديد؛ لولا مقام ابنه -عبد الله بن سهيل- منهم.. ولولا مجلس سهيل مع رسول الله، سعوا خَلْفه ناقمين.. حتى دنا بأبي جندل على مرأى ومسمع من رسول الله ﷺ وصاح بانفعالٍ:

- يا محمد! هذا أول ما أُقاضيك عليه؛ أنْ تردَّ هذا[1] إليَّ! والله.. لا أُكاتبك على شيءٍ حتى تردَّه إليَّ!!
- لم نقضِ الكتابَ.. بعدُ!؟
- كلا! لقد لجت[2] القضية بيني وبينك.. قبل أنْ يأتيك!
- صدقتَ!

سكت رسول الله؛ بينما صرخ أبو جندل مستغيثاً:

- يا معشر المسلمين! أ أُردُّ إلى المشركين.. فيفتنوني في ديني؟!!

أشفق الصحابة على أخيهم اللهفان.. ورقَّت لحاله قلوبهم، وذرفت عليه الدمعَ عيونُهم، وسعى بعضهم لاستنقاذه مِن بين يديي هذا الأب الجافي؛ لكنَّ سهيل تَعَلَّق به.. وتمسَّك بالاتفاق، وصاح مستجيراً:

- قد لجت القضية بيني وبينك.. يا محمد!!
- فأَجِزه لي!! (هتف رسول الله مُشفِقاً على الشاب المسلم)
- ما أنا مُجيز ذلك لك!! (صاح سهيل بأنفةٍ وعناد)
- بلى.. فافعل!!؟ (ألحَّ عليه مستعطفاً)
- ما أنا بفاعل!! (صاح بحميَّةٍ وصلف)

---

[1] : يعني: ابنه.. أبو جندل.

[2] : أي: تم الاتفاق بيننا.

وجعل يُشدِّد قبضته على عنق ولده.. آمراً صاحبيه أنْ يشدَّا وثاقه، استصرخ أبو جندل المسلمين.. صائحاً:

- يا معشر المسلمين! أُردُّ إليهم يفتنوني عن ديني؟! ألا ترون ما لقيتُ؟!!

أجابه رسول الله بنبرةٍ رؤوفة شفيقة:

- يا أبا جندل! اصبر واحتسب؛ فإنَّ الله جاعلٌ لك ولَمَن معك من المستضعفين.. فرجاً ومخرجا!!

ثم أضاف:

- إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً؛ وإنَّا لا نغدر!!

اِغتمَّ المسلون وسُقِط في أيديهم، واكترب أبو جندل.. وأحس أنَّ الأرض –على رحابتها- قد ضاقت به؛ فما بقي له فيها موطأ قدم، ضاقت نفسه.. وانهدَّ قاعداً على الأرض يندب حظه، وعلى مبعدةٍ منه قعد أخوه –عبد الله- مُتَكدِّراً لحال أخيه، وإلى جواره.. المسلمون قابعون في أسى واستياءٍ.. كأنَّما لسان حالهم يقول: (قد رُزِأنا بهذا الشيخ الغليظ، ألا يرقّ قلبه القاسي لولده؟؟!)، (يا لهفتاه عليك.. يا أبا جندل! هل نتركه.. يرجع معه؛ يفتنه عن دينه؟؟!)، (وأيم الله.. الفتنة أشدُّ من القتل!!؟ ولقَتْلُ ذاك الأب الظالم أهون من فتنة ولده عن دينه! لولا مقامه بين يدي رسول الله؛ لقتلناه!)، (نعم! ينبغي أنْ نحفظ عهد رسول الله، وألا نخالف عن أمره!!)، (ويُفتن أبو جندل عن دينه؟!! إنَّ هذا لعظيم!!)، (أبو جندل لم يهاجر إلينا.. بعدُ؛ ليس علينا نصره!)، (ها هو ذا قد جاء مهاجراً، وذاكم الشيخ الجلف يعترضه ويمنعه منا!!)، (ليقتله.. أبو جندل.. إذاً!!).

تحيَّن عمر بن الخطاب فرصة، ومشى إلى جنب أبي جندل، وغدا يُدني منه قائم السيف –راجياً أنْ يلتقطه-.. ويُسِرُّه: "اِصبر.. أبا جندل! إنَّما هم مشركون، وإنَّ الرجل يقتل أباه في الله؛ والله.. لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله، فرجلٌ.. برجلٍ!".

تنبَّه أبو جندل لِما يرمي إليه عمر؛ بيد أنَّه أحجم عن أخذ السيف، وامتنع عن قتل أبيه.. وحدَّث نفسه: (أجل! الرجل يقتل أباه حينما يأتي محارباً دين الله، لكن في هذا المقام.. قد جاء سهيل ليُصالح رسول الله؛ فكيف أقتله؟!! قد أمرني النبي أنْ أصبر؛ فلأصبرنَّ حتى يجعل الله لي مخرجاً، ولأصبرنَّ على سهيل.. عسى أنْ يشرح الله صدره للإسلام!!).

*****

نظر حويطب بن عبد العزى حواليهم؛ فأبصر المسلمين.. ونبيهم.. محزونين متألِّمين لحال أبي جندل، اندهش لرأفتهم به.. وقسوة أبيه عليه، ورقَّ قلبه لحالهم، أَسَرَّ في أذن مكرز مُتعجِّباً:

- ما رأيتُ قوماً قطّ أشدّ حباً لِمَن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد.. ومن بعضهم لبعض!

أقرَّه مكرز هامساً:

- صدقتَ!!

فأردف حويطب بنبرة تحضيضٍ.. يشوبها العطف:

- هل لك في معروفٍ.. نفعله؟!
- وما ذاك؟؟
- نجير ذاك الفتى لمحمدٍ.. من أبيه!!

لم ينتظر حويطب إجابة مكرز، ولم يشاور سهيلاً، وإنَّما رمق أبا جندل بإشفاقٍ، ثم التفت إلى رسول الله صائحاً:

- يا محمد! قد أجرناه لك، لا نُعذِّبه أبدا!

بَسَمَ رسول الله ﷺ بسمة رضا، وقام حويطب يتبعه مكرز إلى أبي جندل.. يُسكِّنان جزعه ويُطمئنانه؛ فيما يحدجهما سهيل شازراً، على أنَّه كفَّ عن أبي جندل.

*****

ريثما يتهيَّأ الناس لكتابة الوثيقة.. نهض النبي -في بعض شأنه- إلى خباء زوجه (أم سلمة ﵂)، فقام عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق.. وقال:

- يا أبا بكر! أ ليس برسول الله؟؟!
- بلى!!؟
- أ وليسوا بالمشركين؟؟!
- بلى!!؟
- فعلام نعطي الدنيّة.. في ديننا؟؟!
- يا عمر!! الزم غرزه[1]؛ فإنّي أشهد أنَّه رسول الله!
- وأنا أشهد أنَّه رسول الله!!

قالها عمر حاسماً.. وخَلَّف صاحبه، وهرع إلى خباء النبي، استأذن في الدخول؛ فأذن له، ولج عمر قائلاً:

- يا رسول الله! أ ولستَ برسول الله؟؟!

---

[1] : أي: الزم أمره.

- بلى!!؟
- أ ولسنا بالمسلمين؟؟!
- بلى!!؟
- فعلام نعطي الدنيّة في دِيننا؟؟!
- أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره؛ ولن يُضيّعني!!

أطرق عمر برهة.. ثم تساءل بنبرةٍ اعتذار.. مشوبةٍ بالحيرة:

- يا رسول الله! ألم تكن حدَّثتنا أنَّك ستدخل المسجد الحرام.. وتأخذ مفتاح الكعبة؟؟!
- أ قلتُ لكم.. في سفركم هذا؟؟
- لا!!؟
- أما إنَّكم ستدخلونه، وآخذ مفتاح الكعبة، وأحلق رأسي.. ورؤوسكم ببطن مكة!

سكت النبي ﷺ هنيهة، ثم أقبل بوجهه على صاحبه مؤنّباً:

- أ نسيتم يوم أُحد إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحد.. وأنا أدعوكم في أُخراكم؟ أ نسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم.. وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر؟!!
- صدق الله ورسوله.. يا نبي الله! أنت أعلم بالله وأمره!!

هتف بها عمر مستسلماً لعزم النبي ﷺ، ثم انصرف مُوقِناً أنَّ الله لا يُضيّع رسوله.

*****

رجع النبي إلى المجلس.. ليجِد الدواة والصحيفة.. والقوم في انتظاره كي يكتبوا الكتاب، فدعا الأشهاد.. وهم: (حويطب بن عبد العزى.. ومكرز بن حفص) هذان عن قريش، وعن المسلمين: (أبو بكر الصديق.. عمر بن خطاب.. عثمان بن عفان.. عبد الرحمن بن عوف.. سعد بن أبي وقاص.. أبو عبيدة بن الجراح.. ومحمد بن مسلمة الأنصاري)، هؤلاء بالإضافة إلى: كاتب الوثيقة (علي بن أبي طالب)، وسيدا الأنصار: (أسيد بن حضير.. سيد الأوس، وسعد بن عبادة.. سيد الخزرج)، فضلاً على أنَّهم أرسلوا إلى قبيلتي (بني بكر بن كنانة.. وخزاعة).. ليشهدوا الصلح؛ وذلك لأنَّهما من أَجْوار الحرم، فحضر وفدٌ من كلٍ منهما.

قعد عليٌّ بن أبي طالب بين يدي رسول الله وسهيل، والأشهاد ملتفون حولهم؛ فقال رسول الله مخاطباً عليّاً:

- أُكتب: باسم الله الرحمن الرحيم....

قاطعه سهيل مُعترِضاً:

- لا أعرف: الرحمن!؟ أُكتب كما كنا نكتب: باسمك اللهم!!

ضاق المسلمون من تعنُّته.. وناهضوه صائحين:

- هو الرحمن! ولا نكتب إلا الرحمن!!

فهتف سهيل بِاغْتِرار:

- إذاً.. لا أُقاضيه على شيءٍ!!

تدارك النبي ﷺ وحسم الخلاف برحابة صدر.. قائلاً:

- أُكتب: باسمك اللهم!

ثم استرسل:

- هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن.....

قاطعه سهيل صائحاً بجرأةٍ وجفاء:

- والله.. لـو كنـا نعلـم أنَّـك رسـول الله؛ مـا صـددناك عـن البيـت.. ولا قاتلناك، لكن.. أُكتب اسمك واسم أبيك!!

أجابه رسـول الله:

- والله.. إنّي رسـول الله.. ولـو كذبتموني!!

ثم التفت إلى عليّ.. وقال بتؤدةٍ ورشاد:

- امح: رسـول الله!

ضجَّ الصحابة ضجةً شـديدة.. وهـاجوا على سـهيل، وقـام سـعد بن عبـادة.. وأسـيد بن حضير إلى عليّ.. فأمسكا يده.. وهتفا:

- لا تمحها! لا تكتب إلا: محمد رسـول الله؛ وإلا.. فالسـيف بيننا!

وهتف عليٌّ.. محاوراً رسـول الله:

- والله.. لا أمحوك.. أبدا!!

وصاح آخرون.. حتى ارتفعت أصواتهم الهادرة:

- علام نعطي هذه الدنيّة في ديننا؟؟!

جعـل رسـول الله ﷺ يُخفِّضـهم.. ويـومئ بيـده إلـيهم أنْ: اسـكتوا؛ فخفَّضـوا أصواتهم.. مُطيعين لأمر النبي، ثم التفت إلى عليّ.. وقال:

- أرنيه[1]!!

ويَـده تهتز تبرُّمـاً وأسـفاً.. أشـار عليٌّ ﷺ إلى الكلمـة؛ فمحاهـا النبي ﷺ بيـده، فيما يميل حويطب على أُذن مكرز مُخافتاً بتعجُّبٍ:

- ما رأيتُ قوماً أحوط لدينهم.. من هؤلاء القوم!!؟

---

[1] : يعني: كلمة رسـول الله؛ فالنبي كان أمياً لا يقرأ.

استأنف رسول الله ﷺ.. قائلاً لعليّ:

- **أُكتب: هذا ما قاضي عليه محمد بن عبد الله.. سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين.. يأمن فيها الناس ويكفُّ بعضهم عن بعض، وعلى أنَّه مَن أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، ومَن جاء قريشاً مِمَن مع محمدٍ لم يردُّوه عليه.**

اشتدَّ ذلك على المسلمين.. وزمجروا.. وصاحوا معترضين:

- سبحان الله! كيف نردُّ للمشركين مَن جاءنا مسلماً؟؟!

وتساءل عمر بن الخطاب مُتحسِّراً مُتألِّماً:

- يا رسول الله! أ تكتب هذا؟؟ أ ترضى بهذا؟؟!

تبسَّم النبي ﷺ وهتف بنبرة الحكيم.. الواثق من نصر ربه:

- مَن جاءنا منهم.. فرددناه إليهم؛ سيجعل الله له فرجاً ومخرجا، ومَن أعرض عنا وذهب إليهم؛ فلسنا منه في شيءٍ.. وليس منا، بل.. هو أولى بهم!

ثم التفت إلى عليّ بن أبي طالب.. مستأنفاً:

- **أُكتب: وإنَّ بيننا عيبة مكفوفة[1]، وإنَّه لا إسلال[2] ولا إغلال[3] ، وأنَّ محمداً يرجع عن مكة عامه هذا بأصحابه؛ ويدخلها قابل[33] في أصحابه.. فيقيم ثلاثاً، لا يدخلها بسلاح.. إلا سلاح المسافر: السيوف في القُرَب،**

---

[1] : صدور منطوية على ما فيها؛ لا نبدي عداوة.

[2] : السرقة خفية.

[3] : الخيانة.

[33] : أي: العام القادم.

**وأنَّه مَن أحب أنْ يدخل في عقد محمدٍ وعهده.. دخل، ومَن أحب أنْ يدخل في عقد قريش وعهدها.. فعل.**

فرغ الكاتب مِن كتابته، وقبل أنْ تُطوى الصحيفة.. مدَّ سهيل يده هاتفاً:

- يكون هذا الكتاب عندي!

أجابه النبي ﷺ حازماً:

- بل.. عندي!!

رفض سهيل بإصرار، وأنشأ يتجادل وصاحباه.. مع أصحاب النبي؛ حتى حسم النبي ﷺ الجدال آمراً محمد بن مسلمة بكتابة نسخة أخرى.. وأعطاها سهيلاً.

وقبل أنْ ينفضَّ المجلس.. تواثب وفد خزاعة؛ فأعلنوا أنَّهم داخلون في عهد محمدٍ وعقده، سُرَّ النبي وأصحابه بدخول الخزاعين[1] في حلفهم؛ بينما تباغت القرشيون بهذا الموقف الغير مُتوقَّع من جيرانهم الخزاعيين، انشده سهيل.. واكفهر وجهه، وكذلك حويطب.. الذي همس –ناقماً- في أُذن صاحبه:

- بادأنا أخوالك[2] بالعداوة.. وقد كانوا يستترون منا؛ دخلوا في عهد محمدٍ وعقده!!؟

---

[1] : كان بينهم وبين عبد المطلب بن هاشم.. جد النبي حلفاً قديم، فكانوا بموجب هذا الحلف ينصحون إلى النبي.. سواء المشركون منهم أو البعض الذي أسلم لله، علماً بأنَّهم لم يكونوا أعداءً لقريش، وإنما كانت عداوتهم مع بني بكر بن كنانة.

[2] : كانت خزاعة أخوال سهيل بن عمرو.

- ما هم إلا كغيرهم؛ هؤلاء أقاربنا ولحمنا[1].. قد دخلوا مع محمد، قومٌ اختاروا لأنفسهم أمراً؛ فماذا نصنع بهم؟؟

خافت بها سهيل مستسلماً للأمر الواقع؛ حالما قام زعيم وفد بني بكر هاتفاً بصوتٍ جهوري: "ونحن في عهد قريش.. وعقدها!"، أَسْمَع الجميعَ؛ فأعرض عنه المسلمون، بينما انفرجت أسارير القريشيين.. وأثلجت صدورهم.. كلماتُه التي لأمت كبرياءهم بعدما جرحها الخزاعيون، على أنَّ سهيلاً رمقه باستخفافٍ خفي.. كأنَّما يقول في نفسه: (ما فعلها حباً في قريش؛ بل نِكايَةً بخزاعة.. لما بينهم من عداوة).

ساعتئذ.. أَسَرَّ حويطب في أذن سهيل مُستأنِفاً:

- نصنع بهم: أنْ ننصر عليهم حلفاءنا.. بني بكر!!
- إيَّاك أنْ تسمع هذا منك بنو بكر.. فإنَّهم أهل شؤم؛ فيقعوا بخزاعة.. فيغضب محمد لحلفائه؛ فينقض العهد بيننا وبينه!
- حظوت –والله- أخوالك بكل وجه!
- ترى أخوالي أعزَّ عليَّ من بني بكر؟؟ ولكن–والله- لا تفعل قريش شيئاً إلا فعلتُه؛ فإذا أعانت بني بكر على خزاعة.. فإنَّما أنا رجلٌ من قريش، وبنو بكر أقرب إليَّ في قدم النسب، وإنْ كان لهؤلاء الخؤولة.

*****

[1] : يقصد المسلمين المهاجرين من قريش.. وكان منهم ابنه عبد الله بن سهيل، وأخواه: حاطب بن عمرو.. وسليط بن عمرو.

انعقد صلح الحديبية، وغادر وفد قريش إلى مكة، داهم الوَجْمُ[1] مُخيَّم المسلمين، ذهل القوم ولفَّهم سكونٌ.. كأنّه الموت، وانتابتهم كآبةٌ.. تخنق الأنفاس: (أ لن ندخل مكة؟! ألن نطوف بالبيت؟! ألن نشرب من زمزم؟!! أ لن ننحر الهدي.. في بطن مكة؟!)، شعورٌ عميقٌ بالمرارة والقهر يَعصِر قلوبهم: (قد رأى النبي –في منامه- أننا داخلون المسجد الحرام.. وأنَّه آخذٌ مفتاح الكعبة، إنَّ رؤيا النبي حقٌ؛ فكيف نرجع دون أنْ ندخله؟!!).

سمعوا منادي رسول الله.. يُنادي: "قوموا.. فانحروا.. ثم احلقوا!"؛ فما قَدِرَ أحدُهم أنْ يقوم من مقامه، وما قويت ساقٌ على حمل صاحبها، أُعيد النداء: "قوموا.. فانحروا.. ثم احلقوا!"، لأول مرة.. يسمعون نداء الرسول.. ولا يسارعون إلى التلبية: (عذراً.. يا نبي الله؛ فقد تَخدَّلت أطرافنا، وأذهلتنا الحسرة عن طاعة أمرك!!)، نادى الثالثة؛ فما تَحرَّكوا، رأوا الغضب في وجهه؛ فانصدعت قلوبهم: (ضاع منا حلمنا، وأسخطنا رسولَ الله!!)، أظلمت الحديبية على أهلها: جمد الدمع في العيون، لا ترى في الوجوه خلا الحسرة والأسى، ولا تسمع حِسّاً خلا نشيجٍ مكتوم.. أو توجُّعٍ مكظوم، راود بعضهم بصيصٌ –من أمل- خافت: (لعلَّ الله يُنزِّل على نبيه قرآناً يأمره.. بنقض هذا الصلح المجحِف، ويأمرنا بدخول مكة وإتمام العمرة!!؟).

اغتمَّ النبي لتخاذُلهم عن طاعته.. وأعرض عنهم، ثم ولج -مُمتعِضاً- إلى خباء زوجته (أم سلمة ﷺ).. فاضطجع، هرعت إليه.. وأبصرت الغضب في عينيه؛ تساءلت بوجلٍ وإشفاق:

- ما لك.. يا رسول الله؟؟

---

[1] : الوجم: هو السكوت والعجز عن الكلام من شدة الغيظ أو الهم أو الخوف.

- عجباً.. يا أم سلمة! ألا ترين الناس؟؟ آمرهم بالأمر.. فلا يفعلونه؛ قلتُ لهم: انحروا واحلقوا وحلوا.. مراراً، فلم يجبني أحدٌ من الناس إلى ذلك؛ وهم يسمعون كلامي.. وينظرون في وجهي!!؟
- يا نبي الله.. أ تحب ذلك!! أُخرج.. ثم لا تُكلِّم أحداً منهم حتى تنحر بدنتك، وتدعو حالقك.. فيحلقك؛ فإنَّهم سيقتدون بك!

استحسن النبي ﷺ رأي زوجته، نهض من فوره.. واضطبع[1] بثوبه، ثم خرج.. وأخذ الحربة يزجر بها هديه، ثم هوى بالحربة إلى البدنة.. فنحرها رافعاً صوته: "بسم الله.. والله أكبر!".

شاهدوه يفعل ذلك مُعرِضاً عنهم: (ها هو ذا النبي ينحر هديه، إنَّه يتحلَّل من إحرامه، الأمر جِدٌّ.. إذاً؟!! لماذا هو معرضٌ عنا؟؟ أ تُراه غاضباً منا؟؟! لا ينبغي أنْ نُغضِب الرسولَ! هَلُمُّوا.. نقتدي به؛ فننحر.. ونحلق.. ونتحلَّل مثله، إنَّا لله.. وإنَّا إليه راجعون!!)، نَشِطوا من مقعدهم.. وتواثبوا إلى الهَدْي ينحرونها.

تزاحموا على نحر الهَدْي والتحلُّل من الإحرام.. كأنَّما يتعاتبون على تأخيرهم تلبية أمر النبي، وبينما هم على تلك الحال؛ إذ شرد جملٌ من بُدْن الهَدْي.. نافراً إلى مكة.

*****

[1] : أخذ ثوبه فجعل وسطه تحت إبطه الأيمن.. وألقى طرفيه على كتفه الأيسر من جهتي صدره.

ساق سهيلُ بن عمرو.. ولدَه (أبا جندل) أمامه، وأقبل على بلدح بوجهٍ طَلْق، ثم قام في الناس -مُتفاخِراً بنجاحه في عقد الصلح-، وأنشأ يخطب فيهم مُبشِّراً بانصراف محمدٍ.. قافلاً إلى يثرب؛ على أنْ يرجع -معتمراً- العام القادم، ثم تلا عليهم وثيقة الصلح، تنفَّسوا الصعداء؛ لقد أراحهم ذاك الصلح من حربٍ كؤود شغلتهم عن أموالهم وتجارتهم.

شرع الناس يَفُضُّون معسكر بلدح رويداً.. منتقلون إلى مكة، وبعضهم ذاهبٌ -مباشرةً- إلى سوق مَجَنَّة.. عسى أنْ يتداركوا ما فاتهم في سوق عكاظ؛ خلا كتيبة من الفرسان اِستَبقوها.. ريثما يتأكَّد ارتحالُ محمدٍ وأصحابه.

علم أبو بصير بإخفاق أبي جندل في اللحاق برسول الله، وبإصرار أبيه (سهيل) على استرداده وفقاً لشروط الصلح؛ فحزن لمصيبة صاحبه، وما واسى حزنه نزول أبي جندل في جوار حويطب الذي أصرَّ على الوفاء بعهده لمحمد؛ فمنعه من أبيه، بيد أنَّه.. حبسه في فسطاطٍ داخل فِناء داره.

بلغه -أيضاً- أنْ سهيلاً زمجر مستاءً: "ما فك هذا الأسير الصابئ -يعني: أبا جندل- سِوَى ذاك اللئيم المخادع -يقصده هو: أبا بصير-!!"، وتوعَّده -حالفاً بآلهته- لإنْ رآه ليضربنَّ وجهه بصفحة السيف وليجلدنَّ ظهره؛ وهي إهانةٌ لا يقبلها أبو بصير لنفسه أبداً، على أنَّه يعرف أنَّ سيد بني عامر لن يحنث في يمينه؛ فآثر السلامة.. وتَنَحَّى عنه.. مُتَستِراً بازدحام أهل الموسم، ومضى يباشر التجارة مع حليفه -الزهري- في سوق مَجَنَّة.. مُتبصِّراً في تداعيات

ذلك الصلح على حاله وحال أبي جندل وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين في مكة، مُتفكِّراً: كيف يسعى في الهجرة إلى مدينة رسول الله؟!

*****

اِنْكَفأ عكرمة بن أبي جهل إلى بيته في مكة.. ناقماً مُبتئساً، وفيما كان يغتسل من غبار المعركة التي فشل في تأجيج نيرانها.. ومن خزي الصلح الذي لم يرضَ به؛ جاءه أحد فتيانه يسعى.. هاتفاً:

- بُشْراك.. يا سيدي! قد عاد مَهْري[1] أبي الحكم النجيب!!

تهلَّل وجه عكرمة.. وتساءل مُستوثِقاً:

- أ حقاً ما تقول.. يا غلام؟؟!
- تعال!! انظر بعينك.. يا سيدي؛ إنَّه باركٌ.. أمام الدار!
- مرحى.. مرحى! لَعَمري.. إنَّه لجملٌ نجيبٌ وفي!!

هرع إلى حيث برك البعير، عاينه.. وتحسَّس حلقة أبيه الفضية في أنفه؛ فثارت شجونه.. واستبشر بعودة الجمل العزيز، قبَّل رأسه.. وربت على عنقه.. واحتضنه فَرِحاً مُغتبِطاً، وما مَلَكَ الدمعَ أنْ يتحدَّر من عينه.. وغدا يناجي الجملَ.. هامساً:

---

[1] : مهري.. نسبةً إلى المهرة؛ وهم ينتسبون إلى مهرة بن حيدان.. من قضاعة.. يسكنون أقصى جنوب الجزيرة العربية.. شرقي حضرموت، اشتهرت بلادهم بإنجاب أجود أنواع الجمال وأنجبها، وهذا الجمل كان لأبي الحكم (أبي جهل) بن هشام –والد عكرمة- كان معه في معركة بدر التي قتله فيها المسلمون وغنموا منه ذلك الجمل، وكان جملاً معروفاً عند أهل مكة.. في أنفه بُرَة من فضة: أي.. حلقة تجعل في أنف البعير ليساس بها.. وكانت في العادة تُصنع من الخشب أو الشعر.

"إنَّك عظيم الوفاء.. أيها المُهْري، خمس سنوات مضت على غيابك عن هذه الدار.. مذ قتلوا أبا الحكم في بدر.. وسلبوك مني؛ كيف رجعتَ بعد كل هذه السنين؟!! تلك.. المسافة الطويلة؟!! لا جرم.. أنَّ محمداً اصطحبك معه إلى الحديبية! أوتأتي من الحديبية إلى هنا.. وحدك؟!! اشتقتَ إلينا؟؟! ورب الكعبة.. إنَّا -كذلك- اشتقنا إليك.. وإلى أبي الحكم!!".

فيما يَبُثُّ الجملَ شجونه.. إذ أقبل عمرو[1] بن غنمة السَّلمي يطلب البعيرَ الذي شرد من الهَدْي، تَمسَّك عكرمة بجمل أبيه.. ورفض أنْ يردَّه إلى أعدائه؛ فانصرف السَّلمي عنه إلى سهيل بن عمرو -صاحب الصلح- يشتكي إليه، نهض سيد بني عامر -يصطحب نفراً من قومه- إلى عكرمة، طالبوه بردِّ البعير إلى أصحاب محمد: "يا أبا عثمان! إنَّ الجمل -الآن- لأصحاب محمدٍ؛ قد آلت ملكيته لهم بعد أنْ غنموه في بدر، ينبغي ردُّه إليهم.. وفاءً للصلح!"، أصرَّ عكرمة على الرفض.. وركبه شيطان الغرور والكِبر، ووافقه صفوان بن أمية.. وبعض رجال قريش.. قائلين لشيخ بني عامر: "اِعطهم جملاً آخر.. عِوَضاً عنه!"، أبى مبعوث رسول الله أنْ يرجع بغير البعير الذي جاء في طلبه، حاول سهيل وحويطب.. أنْ يَحُلَّا الموقف بالسياسة واللين؛ فساوما السَّلمي.. حتى عرضا عليه مائة ناقة عِوَضاً عن هذا الجمل، فأجاب: "لا أُجيبكما.. حتى أسأل النبي!"، ثم ركض عائداً إلى الحديبية.

مضت سويعات قبل أنْ يرجع مبعوث النبي إليهم.. ليقول: "يقول لكم رسول الله: لولا أنَّا سمّيناه في الهدي؛ لفعلنا!".

---

[1] : هو: عمرو بن غنمة بن عدي بن نابي بن عمرو.. من بني سلمة.. أنصار رسول الله، وهو مسلمٌ.. ومِمَن شهدوا بدر.

لم يجد سهيل بن عمرو مناصاً من الوفاء بشروط الصلح، وجابه امتناع عكرمة وأصحابه.. زاجراً بحزمٍ: "قد وفى محمدٌ بالعهد حين طالبتُه بولدي (أبي جندل).. وردَّه إليَّ؛ فهل أمتنع أنْ أردَّ إليه بعيراً؟!! كلا.. وأيم الله! لا تتحدَّث العرب أنَّا غدرنا!".

سَيَّب عكرمةُ الجملَ مُكرَهاً، وسحبه مبعوثُ محمد من خِطامه.. كأنَّما انسحبت معه نفسُ عكرمة من بين جنبيه، انفلت البعير.. وعكرمة يرقبه شاخص البصر.. موجوع القلب أسفاً على أبيه وبعير أبيه.

*****

أُعيد البعير الشارد، ونُحِر الهَدْي في الحديبية.. حاشا عشرين بدنة بعث بها النبي ﷺ مع رجلٍ من (قبيلة أسلم)؛ فدخل بها مكة.. وذبحها عند المروة.. وقسَّم لحومها هناك بين مَن حضر مِن أهل مكة.

ثم دخل النبي ﷺ قبةً له من أدمٍ[1] أحمر، ودعا خراش بن أمية الخزاعي.. فحلق[2] رأسه، رآه الناس؛ فطفقوا يحلقون مثله.. وهم لا يزالون مغمومين مضطربين.. حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من شدة الغَمِّ والحزن، على أنَّ بعضهم وسوست له نفسه: (لعل الله يراجع نبيه.. ونطوف بالبيت!!)؛ فقصّروا شعورهم بدلاً من أنْ يحلِّقوها، أبصرهم النبي ﷺ فدعا.. قائلاً: "يرحم الله المحلّقين!"، قالوا: "يا رسول الله.. والمقصّرين؟؟"، قال: "يرحم الله المحلّقين!"، قالوا: "يا رسول الله.. والمقصّرين؟؟"،

---

[1] : جلد.

[2] : كانت حرفة خراش: الحجامة.

قال: "يرحم الله المحلّقين؟؟"، قالوا: "يا رسول الله.. والمقصّرين؟؟"، فقال: "والمقصّرين!"؛ فتساءلوا.. وَجِلين: "يا رسول الله! فلِمَ ظاهرتَ الترحُّم للمحلّقين.. دون المقصّرين؟؟!"، أجاب: "لأنَّهم.. لم يشكّوا!!".

ثم أمر النبي ﷺ بالارتحال إلى المدينة؛ فارتحلوا.

*****

أوشك الموسم (موسم الحج) على نهايته؛ وها هي ذي أسواقه تنفضّ، ربحت تجارة الأزهر بن عبد عوف الزهري.. حليف أبي بصير، وفيما هما جالسان.. يتحاسبان في بعض تجارتهما؛ إذ أقبل مَن يدعوهما إلى صحن الكعبة حيث يجتمع الناس إلى عمارة بن عقبة بن أبي معيط.. وأخيه الوليد، سأل أبو بصير.. مندهشاً:

- وما الذي يريدانه باجتماع الناس حولهما.. الحين؟؟!

رمقه حليفه.. مستنكراً عدم اِطِّلاعه على النبأ؛ ثم أجابه مُوضِّحاً:

- ألا تعلم أنَّهما رحلا إلى يثرب يطلبان أختهما[1] التي فرَّت إلى محمد؟! وقد رجعا.. من غيرها!؟؟

---

[1]: هي: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وهي أخت عثمان بن عفان من الأم، أسلمت قديماً..

وكانت تُخفي إسلامها عن أهلها، وهي يومئذ فتاةٌ شابة لم يتجاوز عمرها ستة عشر عاماً، وكانت تخرج إلى بادية لأهلها.. فتقيم فيها الثلاث والأربع ليالٍ.. ثم ترجع إلى بيتها؛ فلا ينكر أهلها عليها ذلك، فلمَّا علمت بمُكْث النبي في الحديبية.. أحبت أنْ تلجأ إليه وتُعلِن إسلامها، وحينما بلغها تَصالُح سهيل مع النبي.. وأنَّه مرتحلٌ وأصحابه إلى يثرب؛ أزمعت على اللحاق بهم في الحديبية.. والذهاب معهم إلى يثرب، فخرجت من مكة كأنَّها تريد البادية –كعادتها- حتى رجع عنها مَن كان يتبعها من عبيد أهلها، ثم توجَّهت –ماشيةً- إلى الحديبية، لكنَّها وصلتها بعد ارتحال النبي وأصحابه عنها، على أنَّها لم تيأس، =

انشدَّه أبو بصير.. وتساءل في دخيلته.. مستبشراً: (ألم يزعم سهيل بن عمرو أنَّه تصالح مع رسول الله على أنْ يردَّ مَن جاءه من قريش دون إذن وليه؟!! فكيف رجع هذان بدون أختهما؟! وهي مَن؟! بنت عقبة بن أبي معيط.. سيد من سادات بني أمية؟!!)، أخفى غبطته وتفاؤله عن جليسيه.. وهبَّ معهما إلى صحن الكعبة.

على باب الكعبة.. قام عمارة بن عقبة –في الناس- خطيباً:

- يا أهل مكة! يا معشر قريش! قد رُزِئنا بما رُزِئ به كل بيتٍ في مكة؛ صبأت أختنا أم كلثوم بنت عقبة.. وهاجرت إلى يثرب حيث محمدٍ وأخيها عثمان بن عفان، فخرجتُ أنا وأخي الوليد نرجو استردادها كما اشترط لنا سيد بني عامر (سهيل بن عمرو)؛ وقلنا: يا محمد.. أوف لنا بما عاهدتنا عليه! فأبى وامتنع.. وزعم أنَّ ربه أنزل عليه قرآناً يأمره

---

= وعزمت على عدم الرجوع إلى دار الكفر؛ فعرَّجت على رهطٍ من خزاعة –لعلمها بأنَّهم في عهد النبي فقالت لهم: "إنّي امرأةٌ من قريش.. مسلمةٌ، وإنّي أريد اللحاق برسول الله.. ولا علم لي بالطريق!"، فقال رجلٌ منهم: "أنا صاحبكِ.. حتى أوردكِ المدينة!"، ثم جاءها ببعيرٍ فركبته حتى قدم بها إلى المدينة.. وكان خير صاحب، فلما بلغت المدينة.. ذهبت إلى بيت أم المؤمنين (أم سلمة) وعرّفتها بنفسها.. لائذةً بها، ثم علم بها النبي؛ فقالت له فيما قالت: "يا رسول الله.. أنا امرأةٌ وحال النساء إلى الضعف، وإنّي فررتُ إليك بديني؛ فامنعني.. ولا تردَّني إليهم يفتنوني ويعذِّبوني؛ ولا صبر لي على العذاب!"، فاهتم النبي لحالها.. وأشفق عليها أنْ يردَّها إلى المشركين، لكن.. كيف يوفقك بين حفظها والوفاء بعهد الصلح، ظَلَّ يدخل ويخرج حائراً: هل يردّها إلى الكفار ليفتنوها.. ولا صبر لها على ايذائهم.. أم يحبسها عنهم؟! حتى جاءه أخواها يطالبان باستردادها وفاءً بشرط الصلح، فأنزل الله –تعالى- على نبيه قرآناً فيه نجاة المرأة الشابة وحفظها؛ فقد نزلت آيات سورة الممتحنة: {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإنْ علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار} (آية ١٠).. إلى آخر الآيات، فأبى النبي ﷺ أنْ يردَّها معهما، وبقيت في المدينة.. وتزوَّجها زيد بن حارثة.

بحبس النساء المهاجرات إليه، وأنَّ شرط الصلح يَخُصُّ الرجال دون النساء، وبقيت أم كلثوم عنده في بيت زوجه (أم سلمة بنت أبي أمية المخزومية)، وقد خطبها زيدٌ[1].. ولده.

صاح فيه سهيل بن عمرو.. مستهجناً:

- وكيف ترضى بهذه الدنيَّة لأهلكِ.. يا عمارة؟!!

أسكته عمارة هاتفاً.. بنبرةٍ عاتبةٍ زاجرةٍ:

- أنت.. مَن تسبَّبتَ في هذا.. يا شيخ بني عامر! أنت الذي صالحت محمداً على ردِّ الرجال.. ولم تذكر ردَّ النساء!!

*****

بات أبو بصير ليلته ساهداً.. يُطالع نجوم السماء مُتفكِّراً: (ها هي ذي فتاةٌ مُرفَّهةٌ.. لا قوة لها ولا جلد.. قد هاجرت إلى رسول الله، غير مكترثةٍ بغضب قومها ولا بطشهم، غير عابئةٍ بمشاق السفر.. أو مخاطر الطريق، وقد جعل الله بها للنساء المؤمنات مخرجا!!)، (فما خطبك.. يا أبا بصير؟؟! أيها.. الفارس الهمام؟؟ أ تسبقك امرأةٌ ضعيفة.. أيها الرجل؟؟!).

عقد عزمه.. وغدا –مع طلوع الشمس- إلى حليفه، أبصره مُتجهِّم الوجه.. صارم القسمات؛ فهتف بنبرةٍ ودودة:

- عمت صباحاً.. أبا بصير! ما لي أراك عابساً؟؟!
- أريدك في أمرٍ خطير.. يا أزهر!!
- لبيك.. يا أخي! لكن.. اِجلس أولاً!!

---

[1] : هو: زيد بن حارثة.. مولى رسول الله؛ وكان ابن النبي بالتبني.. إلى أنْ حَرَّم الإسلام التبني.

جلس.. ولم يُمهله أنْ سأل.. بنبرةٍ جادة:

- كم مالي الذي عندك؟؟
- كثير!
- ألن تفي بوعدك.. وتُعطنيه؟؟!
- بلى.. أُعطيك ما تشاء!!
- إنّي أهبه كله لك؛ لكن.. بشرطٍ!!
- وما شرطك؟؟! (تساءل.. بنبرةٍ مذبذبةٍ بين الحيرة والفرحة)
- أنْ أُهاجر إلى يثرب.. فلا تُرسِل في طلبي!!
- أ صبأتَ.. يا عتبة؟!!
- بل اِهتديتُ! وشرح الله صدري.. للإسلام!!
- تباً لك.. أيها الغادر! (جأر مُستقبِحاً مُستعظِماً)
- وما يضرك أنْ أُهاجر –أنا- إلى ربي، وتربح أنت المال كله؟!!
- لكن.. تعلم أنَّ شيخ بني عامر قد صالح محمداً على ردِّ مَن هاجر إليه دون إذن وليه!
- لذا أقول لك: خذ مالي كله؛ فأنت حليفي.. وبمثابة وليِّ القرشي، خذ مالي الذي عندك كله.. وخَلِّ بيني وبين الرحيل إلى يثرب!!
- سآخذ المال.. كله؟؟ (سأل مُستوثِقاً)
- أجل! خذه كله.. شرط ألا تُرسِل في طلبي!!
- ليس بكافٍ! مالك الذي عندي.. لا يعادل سُخْط سادة قريش عليَّ إذا علموا بموافقتي على هجرتك!؟ (هتف مساوماً مُستغِلاً)
- فماذا تريد.. إذاً.. أيها الجَشِع؟؟!

- أعطني مالك كله الذي في مكة.. ودارك التي في أجياد[1]!
- إنَّك.. لطمَّاعٌ!! لك.. ما تريد.. حاشا حصاني وسيفي؛ سأرحل بهما!
- ربح البيع! اِذهب بأمان.. أيها الحليف الذي انقلب عدواً!!

*****

انبعث أبو بصير يشقُّ طريقه إلى يثرب.. تدفعه اللهفة التي خالطت حُشَاشَة قلبه الشغوف، يكاد يطير.. غير صابرٍ على مسافة الطريق.

على مرمى بصره.. لاحت له يثرب ونخيلها، غَذَّ السير حتى بلغ قريباً من مسجد النبي ﷺ، سأل عن عبد الله بن سهيل.. وذهب إلى داره، رحَّب به عبد الله أيما ترحيب.. وفرح بقدومه –مسلماً- فرحاً جَمّاً، سأله عن حال أخيه أبي جندل، تنهَّد مُتأسِّفاً.. وهو يقول:

- حجبه حويطب بن عبد العزى عن تعذيب أبيه؛ لكنَّه حبسه في فسطاطٍ بفِناء داره!
- قد ألحَّ النبي ﷺ على أبي أنْ يجيره له؛ فتأبَّى عليه.. وقال: لا أُقاضيك على شيءٍ إلا أنْ تردَّه إليَّ، فردَّ النبي ﷺ أبا جندل إلى أبيه مضطراً.. لأنَّه كان شديد الرغبة في إتمام الصلح، وقال مُواسياً لأبي جندل: اِصبر واحتسب؛ فإنَّ الله جاعلٌ لك ولَمَن معك من المستضعفين.. فرجاً ومخرجا!

هتف أبو بصير.. مُتحسِّراً مُتفجِّعاً:

- أُفٍّ.. من هذا الصلح! قد تأذّى به المسلمون.. كثيراً!!

---

[1] : حي من أحياء مكة.

فجأر عبد الله.. ناهِراً:

- مَهْ.. أبا بصير.. واتهم رأيك!!

ثم أردف مُبيّناً:

- لقد رأيتُنا يومها.. وقد همَّ بعضٌ منّا أنْ يردَّوا أمر رسول الله لولا أنْ ثبَّتنا اللهُ.. فكظمنا غيظنا، ثمَّ إنّا ارتحلنا.. وبينما نحن في طريقنا إلى المدينة؛ إذ نفدت أزوادنا لطول مُكْثنا في الحديبية، شقَّ ذلك – أيضاً- علينا، وازداد اغتمامنا.. ومضينا نشكي إلى النبي.. سوء حالنا والجوع الذي أصابنا؛ فدعا ﷺ بالأنطاع[1].. فبُسِطت، ثم نادى مناديه: مَن كان عنده بقيةٍ من زاد.. فلينثره على الأنطاع، فمَن يأتي بالكف من الدقيق.. ومَن يأتي بالكف من السويق.. ومَن يأتي ببضع تمرات.. ومَن لا يأتي سوى بتمرة؛ وهذا كله قليل، فلما اجتمعت الأزواد.. مشى إليها رسول الله.. ثم دعا فيها بالبركة، ثم قال: قَرِّبوا أوعيتكم؛ فيأتي الرجل.. فيأخذ ما شاء من الزاد ويزيده عليه.. حتى شبعنا، ثم مُطِرنا.. ونحن صائفون؛ فشربنا.. حتى ارتوينا، واستبشرنا خيراً!

- أشهد أنَّه رسول الله، وأنَّه مباركٌ.. حيثما حَلَّ!!

- بل أعظم من ذلك! لقد أنزل الله -تعالى- على نبيه قرآناً يؤكِّد أنَّ رؤيا النبي حقٌ.. وأنَّها ستَقَع إنْ شاء الله؛ فقال: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقِّ لتدخلنّ المسجد الحرام إنْ شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون﴾، إنَّها سورة الفتح، ولقد

---

[1] : مفردها: نطع.. وهو بساط من الجلد يُفرش على الأرض.

سمى هذا الصلح فيها.. فتحاً مبيناً؛ فقال في أولها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. إنَّا فتحنا لك فتحاً مبينا﴾ (سورة الفتح)، فتيمَّنا بها.. وقلنا مُغتبِطين بها: أ فتحٌ هو -يا رسول الله- وليس صلحاً؟؟ قال: نعم!

- سبحان الله!! الله ورسوله.. أعلم!
- نعم.. الله ورسوله أعلم؛ لذا أقول لك: اتهم الرأي، فإنَّ الأمر لم ينقطع عند هذا الحد، بل.. لمَّا انتهينا عن معارضة النبي، وشرح الله صدورنا لقبول ما قَبِله رسوله؛ أنزل الله –في نفس السورة- في أصحاب الشجرة قرآناً يُثني عليهم.. ويقول: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يُبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ (سورة الفتح)؛ فبشَّرنا برضاه.. ووعدنا بفتحٍ قريبٍ!
- ليتني كنتُ معكم؛ فأفوز.. مثلكم!!
- اِحمد اللهَ! ها أنت ذا.. هاجرتَ إلى الله ورسوله، وإنْ شاء الله.. تتدارك ما فاتك.. وتجاهد مع الرسول؛ فإنَّا بهذا الصلح قد تَفرَّغنا لأعداء النبي من يهود خيبر.. ومشركي العرب من غير قريش؛ فلا تحزن.. يا أبا بصير، ما زال طريق الجهاد طويل!

*****

اشتاق أبو بصير إلى لقاء رسول الله ﷺ، وتَلهَّف على الاصطفاف خَلْفه في الصلاة.. في مسجده.. مع أصحابه، تَوجَّه به عبد الله إلى مسجد النبي؛ كانت

أول مرة ينظر فيها إلى المسجد الذي طالما تشوَّق إلى صاحبه.. وتَمنَّى الصلاة فيه: بناءٌ متواضع –لكنّه.. عند الله وفي قلوب المؤمنين.. عظيمٌ- لا يزيد طوله عن سبعين ذراعاً.. وعرضه عن الستين، جُعِل أساسه من الحجارة.. وجداره من اللَبِن، أما أعمدته.. فمِن جذوع النخل، قد ثُبِتت في أرضيته لتحمل سقفه الذي صُنِع من جريد النخل.. ولم يزد ارتفاعه عن خمسة أذرع، سقفه الذي لم يُغطِ سِوَى أروقته الثلاثة الأولى من جهة المصلى.. والصفة التي في الجهة الأخرى؛ وتُرِك باقيه رحبة.

اندهش أبو بصير لتواضع البناء؛ وقد كان يتخيَّله أعظم بناءً من الكعبة التي في مكة، أدرك عبد الله ما يجول في خَلَدِ صاحبه؛ ربت على كتفه بلُطْفٍ.. هامساً بمودةٍ:

- أبا بصير.. لا يسؤك تواضعُ البناء! فإنَّ الأنصار قد جمعوا مالاً.. فأتوا به النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله! اِبْنِ بهذا المالِ المسجدَ وزيّنه؛ إلى متى نصلي تحت هذا الجريد؟ فقال: "ما بي رغبةٌ عن أخي موسى، عريشٌ.. كعريش موسى."!
- لا عليك.. يا أبا سهيل! إنَّما جئتُ أسعى للصلاة مع رسول الله.. وتعلُّم القرآن.. والجهاد في سبيل الله!

*****

في مكة.. وبعد أنْ أَتَمَّ شيخ بني عامر (سهيل بن عمرو) مهامه، وفرغ من الموسم بنجاحٍ.. مُضيفاً إلى مناقبه -عند أهل مكة- منقبة جديدة.. ألا وهي إنفاذ صلح الحديبية مع محمدٍ.. وإجباره –وأصحابه- على الرجوع عن مكة هذا العام،

بعد أنْ أنجز تلك المهام الجسام.. جاء يسعى إلى الأزهر بن عبد عوف الزهري.. يسأل عن حليفه –أبي بصير- ليَبِرَّ يمينه.. فيضربه ويجلده.

ارتبك أزهر.. وأسود وجهه خجلاً من شيخ بني عامر، ثم تنصَّل.. بانكسارٍ:

- عذراً.. يا سيد بني عامر! لقد رحل.. الرجل!!
- رحل؟!! إلى أين رحل.. ولم يكد الموسم أنْ انتهى؟؟!
- رحل.. إلى.. يثرب!! (خافت بها.. وقلبه يَرجُف)
- أيها الأحمق! كيف تتركه.. يرحل إلى يثرب؟؟! ماذا يريد –ذاك الأرعن- من محمدٍ وأصحابه؟!!

غمغم بصوتٍ يتهدَّج مِن الهلع والاضطراب:

- لقد صبأ أبو بصير.. يا أبا يزيد!

برق الغضب في عين الشيخ العامري، اِهتاج.. وانهال على الرجل –حانقاً- يلطمه ويركله.. حتى كاد يفتك به، والرجل يئن مُتألِّماً.. وما ينبس بكلامٍ.. سِوَى كلمة اِعْتِذارٍ أو تنصُّلٍ.

بعد لَأْيٍ.. هدأت نقمةُ سيد بني عامر رويداً.. حتى سكن، ثم أجلسه أزهر.. وقصَّ عليه ما كان بينه وبين أبي بصير، سبَّه الشيخُ.. وزجره صائحاً:

- أخزاك الله.. مِن خبيثٍ طمَّاع! تبيع شرفك لحليفٍ نكرة.. لأجل دراهم معدودة؟!!
- أصبتَ.. يا أبا يزيد! هو نكرةٌ في قريش، لكنَّها.. ليست دراهم معدودة؛ بل.. مالٌ كثير، وأنا أَوْلَى به!!
- أولى لك! ثَكِلتك أُمك.. أيها الحريص! يجب أنْ نبعث.. نستردّه!

- قد أعطيتُه كلمتي.. وأخذتُ المال!
- لا وزن لكلمتك عندي، وأما المال.. فسأمنحك مثل ما تركه لك.. على أنْ تكتب كتاباً إلى محمدٍ تطلب فيه –بعهد الصلح- اِسترداد ذاك الصابئ.
- أفعل.. ما تحب.. يا أبا يزيد! لكن تعرف أنَّه حليفٌ؛ فقد يَحتجُّ علينا بأنَّه من ثقيف.. وليس من قريش!!؟
- سأطلب من قومه –ثقيف- أنْ يكتبوا كتاباً مثله إلى محمدٍ، وسأبعث بالكتابين إلى يثرب مع رجلٍ من قومي.. أَثِق به!!
- كما تشاء.. يا أبا يزيد! كما تشاء!!
- والذي نفسي بيده.. لأستردّ هذا السفيه الصابئ، ولأُنكِّل به.. حتى يكون عبرةً وعظةً.. لأمثاله!

*****

لبث أبو بصير أياماً.. في المسجد؛ يُغذّي روحه.. فيُصلي خَلْف النبي ويتعلَّم منه –ومن صحابته- القرآن وتعاليم الإسلام، يأكل ويشرب.. ويبيت ليله مع أهل الصفة[1] -في المسجد النبوي.. مؤقتاً- إلى أنْ يُوسِّع الله عليه في رزقه وينتقل

---

[1] : الصفة: أو الظلة.. هي مكان في مؤخرة المسجد النبوي، في الركن الشمالي الشرقي منه -غربي ما يعرف اليوم: دكة الأغوات-، أمر به -ﷺ- فظُلل بجريد النخل، وأُطلق عليه اسم "الصفة" أو "الظلة". وقد أُعدت الصفة لنزول الغرباء العزاب من المهاجرين والوافدين الذين لا مأوى لهم ولا أهل فكان يقل عددهم حيناً.. ويكثر أحياناً، وكان النبي –ﷺ- كثيراً ما يجالسهم، ويأنس بهم، ويناديهم إلى طعامه، ويشركهم في شرابه؛ فكانوا معدودين في عياله.

عنهم، كان أشدُّ ما تتوق إليه نفسُه.. أنْ يخرج للجهاد مع النبي في غزواته.. أو في سريةٍ مع أصحابه، غير أنَّه لم يلبث أياماً معدودات.. حتى بغته قدوم رجلين من مكة –هما: خُنيس بن جابر العامري.. ومولاه كوثر– إلى رسول الله، جاءا.. ومعهما كتابٌ - من الأزهر بن عبد عوف الزهري القرشي، والأخنس بن شريق الثقفي- قُرِأ على النبي ﷺ فإذا فيه: (قد عرفتَ ما شارطناك عليه مِن رَدِّ مَن قدم عليك من أصحابنا؛ فابعث إلينا بصاحبنا.. أبي بصير!).

صُدِم أبو بصير.. وبهتته المفاجأة؛ لم يتوقَّع –أبداً- أنْ يغدر به حليفه.. أو صديقه القديم، أذهلته المفاجأة عن أنْ ينبس ببنت شَفَة، وقف بين يدي النبي.. صامتاً مصدوماً، فقال له النبي ﷺ:

- يا أبا بصير! إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإنَّ الله جاعلٌ لك ولِمَن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً؛ فانطلق إلى قومك!!
- يا رسول الله! أ تردّني إلى المشركين.. فيفتنوني في ديني؟!!
- يا أبا بصير! اِنطلق؛ فإنَّ الله –تعالى- سيجعل لك فرجاً ومخرجاً!

لم يجد أبو بصير مَحِيصاً عن الارتداد.. امتثالاً وطاعةً لأمر النبي ووفاءً لذمته؛ فتَخَلَّى عن جواده وسيفه لعبد الله بن سهيل، ثم خرج مع رسول بني عامر.. مُوَدِّعاً إخوانه من المسلمين بقلبٍ واجفٍ.. ونفسٍ مقهورةٍ، شيَّعته عيونهم الدامعة.. وقلوبهم المُتصدِّعة، همست شِفاهٌ في أُذنه: "يا أبا بصير! الرجل.. يكون بألف رجل!"؛ كأنَّما.. تُغريه بصاحبيه.

**********

# -الفصل الثالث-

اِنفلت أبو بصير.. مُفارِقاً مسجد النبي، وركض –نازِحاً عن المدينة- إلى الصحراء.. ووَحْشَتها وضَيَاعها، لا يدري: ما الملاذ.. ولا إلى أين المفر؟!!

نَخَس[1] الحصان.. وأرخى عنانه.. غير آبهٍ إلى أين يذهب؛ فذهب يعدو به.. لا يلوي على شيءٍ، واصل الجواد الرَكْض –يَطوِي الأرضَ.. أياماً- وفارسه مَبهوتٌ شاردٌ.. حتى بلغا ساحل البحر[2]!

انتبه من شروده؛ فأبصر البحر أمامه.. تتلاطم أمواجه.. ويضرب بعضها بعضاً؛ تماماً.. مثلما تتخبَّط الأفكار المُتشاجرة في رأسه: (البحر؟!! كيف وصلتُ إلى هنا؟؟! بين يثرب والبحر.. مسيرةُ أيامٍ؛ كيف قطعتُها.. وأنا غافلٌ؟؟! كيف قضيتُ هذه الأيام ولياليها؟!! كيف لم أنتبه حين أظلمت الدنيا ليلاً.. ثم أضاءت نهاراً؟!!)؛ تَوهَّم أنَّه سكران، وما هو بسكران.. ولكنَّ الفاجعة شديدة؛ لقد فارق الأحبة: محمداً.. وصحبه.

حَكَّ رأسه.. عسى أنْ يتذكَّر كيف قطع المسافة من يثرب إلى سيف البحر، أو في أي المسارات.. سار، تلك مسافة طويلة.. مسيرة ثلاثة أيام أو تزيد.

ما انفك يقدح ذهنه علَّه يتذكَّر ما ذهل عنه: كيف مَرّت به هذه الأيام ولياليها؟! كيف قضاها؟!! لكن.. خيالات باهتة مُشوَّشة.. هي التي تذكَّرها؛ كان الحصان يَكِلُّ أحياناً.. فيتوقَّف ليستريح تحت ظل شجرة، ويأكل من ورقها.. أو من الحشائش أسفل منها، وينزل هو عن صهوته.. ليستريح

---

[1] : نخس الدابة: طَعَن مؤخَّرها أو جنبَها بعودٍ أو نحوه لتنشط.

[2] : البحر الأحمر في غرب الجزيرة العربية.

ويُصلي، ذَكَر أنَّه توقَّف –مرتين.. أو ثلاثة- عند بئرٍ أو بركة ماء.. فسقى جواده، وشرب هو ماءً آسن[1].. كئيبً طعمه.

لكن.. ألم يلحظ انسدال أستار الليل.. أو انقشاعها؟!! لن يهتم بذلك؛ فقد أمست حياته ليلاً مُظلماً.. مذ فَقَدَ جوار حبيبه محمد ﷺ.
ألم يأكل؟؟ ألم يشرب؟؟ ألم.. ينم؟؟! ربما رقد قليلاً حينما ترجَّل عن الحصان ليُريحه، أو.. ربما غفا وهو راكبٌ على ظهره!!؟ ثبر أغوار رأسه، بعثر محتوياتها.. عسى أنْ يتذكَّر؛ فما ذكر شيئاً ذا بال.. بل تَخبَّط في حيرته.

تُرَى.. هل هذا حلمٌ مرعب؟! وسيصحو منه -بعد حين- ليجد نفسه ما زال بين أحبابه في مدينة رسول الله.. ومسجده: (لا أحسبه.. حلماً!!).

باغته احساسٌ رهيبٌ بالإرهاق، سقط –مُنهك القوى- من فوق حصانه.. كما سقطت أيام الرحلة ولياليها من ذاكرته، ظَنَّ أنَّه أغشي عليه؛ لكنَّه مُنتبه.. يعي ما يجري حوله، لم يُغشَ عليه؛ فقط.. هو ذاهل العقل عمَّا أصابه بعد مفارقة مدينة النبي، فقط.. هو ضائعٌ في غياهب الفضاء.

أحس بآلام مُنكَرة في عينه.. وفي رأسه.. وسائر أعضاء جسده، دهمه إحساسٌ بئيسٌ بالجوع والعطش؛ شعر بالجوع.. ينشب مخالبه في أحشائه، وشعر بالعطشِ.. يخنقه.. يسلب روحه.. كأنَّها تتسرب من تحت أظفاره.

---

[1] : مَاءٌ مُتَغَيِّرٌ طَعْمُهُ وَلَوْنُهُ وَرِيحُهُ.

قفز إلى رَحْل الحصان.. يُفتِّش فيه عن زاد.. عن ماءٍ أو طعام، لم يعثر على شيءٍ!! كيف؟!! كيف ذهل عن التزوُّد في رحلته تلك؟؟! ألم يتوقَّف في الطريق –أثناء هروبه- ليحمل شيئاً من ماءٍ أو طعام؟!! كيف سَها عن هذا؟؟ كيف غفل عن أسباب حياته؟؟: (أي.. حياة؟!! وهل ثمة حياة.. بعد أنْ فَقدتُ رفقة النبي وأصحابه؟!!).

ساوره شعورٌ جارفٌ بأنَّه يحلم؛ تَنهَّد بمرارة.. وسحب الجواد من سَيْر لجامه.. سالكاً به البحر.. حتى لثمت مياهه الدافئة قدميه، اقتحم غير مكترثٍ لنفور الحصان.. ولا عابئٍ بالأمواج التي تكسَّرت بين ساقيه.. غير مبالٍ بالبَلَل الذي نَدَّى ثيابه.

انحنى إلى الماء، اغترف غرفةً.. صفع بها وجهه؛ كأنَّما يستوثق أنَّه لا يحلم.. كأنَّه يريد أنْ يتأكَّد أنَّ هذا التِيه واقعٌ.. لا خيال.

نعم.. ليست أحلاماً كاذبةً.. بل حقيقةً واقعة، واقعٌ.. أبشع من كابوس.. وأسوء من كل الأوهام، اغترف غرفةً ثانيةً.. وقرَّبها إلى فِيه يريد أنْ يشرب؛ فما لمست شفتيه.. حتى مَجَّها قبل أنْ تصِل حَلْقه، إنّه ملحٌ أُجاج.. لا يروي عطشاً.. ولا يشفي صدراً.

امتثل لحمحمة حصانه النافر من الماء.. وانكفأ عائداً به إلى رمال الشاطئ المبتلة، مَسَح على عنقه.. وقبَّل مَعرَفته، ثم عقله في حجر.. وتَمَدَّد إلى جواره متأمِّلاً، تَطَلَّع إلى البحر الواسع.. على مرمى بصره؛ راعه اتساعه.. فتمتم: (سبحان الواسع العليم.. الذي خلق هذا البحر وأبدعه!)، بيد أنَّ لهيب الظمأ نازعه في جَدْوَى سعة البحر؛ فهو –على غزارة ماءه- لم يروِ عطشه،

تلفَّت حواليه.. فرأى صحراءً شاسعةً -ذات كُثْبانٍ صفراء- تعانق ذاك البحر.. في سكون؛ لكن رغم اتساعها.. لا يَحظَى فيها بمأوى ولا ملجأ؛ كأنَّ الدنيا تَنقِم عليه.. وتُقْصِيه خارج دائرة الحياة.

رجع بصره إلى البحر.. كَرَّةً أخرى، شاهد قرص الشمس المُتوهِّج.. يهوي غارقاً في أحشائه الأُجاج: (تُرى.. أ تكون نهايتي.. السقوط في هذا البحر.. كمثل ذاك القرص؟!!)، طفق يَصُكّ وجهه.. كالذي يوقظ نائماً: (بما تهذي.. أيها الأبله! أَفِقْ.. إنَّك بين يدي الله.. ترتع في ملكوته الواسع!)، (هذه الصحراء وهذا البحر.. خلقهما بيده، وعظمتهما دليل عظمته، وتلك الشمس آيةٌ من آياته؛ تغرب كل يوم في هذه الجهة كما تغرب الحين.. وتشرق في الأخرى؛ خلقها العليم الخبير.. لتجري بحسبان.. لنعلم عدد السنين والحساب، ولنصلي له كلما شرَّقت.. أو غرَّبت!).

انتبه.. مخاطباً نفسه –باستنكارٍ- يُذكِّرها بما نسيت: (آه.. الصلاة.. أيها الغافل!؟ شغلك الشيطانُ.. حتى أوشكت الشمسُ أنْ تغيب.. وما صليتَ العصر!!؟)، هَبَّ قائماً.. يتلفَّت حوله باحثاً عن ماءٍ للوضوء، رمق البحرَ.. وغمغم مُتفكِّهاً: "وإنْ كان ماؤك لا يروي؛ لكنَّه.. يُتوضَّأ منه!"، توضَّأ.. ثم نكص إلى حصانه.. وقام يُصلي.. على مقربةٍ منه، فيما يستقبل القبلة -وقبل أنْ يُكبِّر تكبيرة الإحرام- تَفكَّر مُتعجِّباً.. بتحسُّرٍ: (يا لها مِن مفارقة! أَفِرُّ بديني من مكة.. ثم أُيَمِّم وجهي إليها لأصلي إلى ربي!؟؟).

أنشأ يصلي؛ سَجَد لربه.. وأطال السجود، عفَّر وجهه في التراب.. علَّ الله يَطَّلِع عليه في موضع الذل.. فيرحمه ويُعينه ويُؤَوِّيه، مضى يُناجي ربه مُستجيراً مُتذلِّلاً.. حتى أَمَّنت على دعائه حباتُ الرمال البِكْر التي تَنَدَّت

بدموعه، الصلاة.. راحةٌ وسكينةٌ للمؤمن، الصلاة.. صلةٌ ومناجاةٌ بين العبد المكروب والرب الرحيم، الصلاة.. نبوءةٌ توحي إليك: أنَّ الرب معك.. مُطَّلِعٌ عليك.. وفرجه قريبٌ منك، سلَّم من صلاته.. وتضرَّع هامساً بارتياح: "الحمد لله.. على نعمة: الصلاة!".

نهض متفائلاً.. كأنَّما نَشِط من عِقال، ما فَتِئ يجوب الشاطئ -جيئةً وذهاباً- يُفتِّش عن ماءٍ يروي ظمأه.. أو طُعْمَةٍ تَسِدُّ جوعه؛ فما اهتدى لشيءٍ، لم يقطع الأمل.. راح يبحث في الأرض.. وينبش في الثَّرى؛ فما عثر على بُلْغَةٍ تُمسِك رمقه سوى حصواتٍ ملساء جعلها في فمه.. وشرع يَمِصّها، وحجرٍ أكبر.. ربطه على بطنه.. راجياً أنْ يُسكِّن جوعه.

تبدَّل النهار ليلاً.. وتكالب عليه العطش والجوع.. وظلمة الليل ووَحشَته، بكى.. وبكى.. كأنّما لم يبكِ مِن قبلُ؛ البكاء.. وإنْ لم يَحُلْ أزمةً أو يُفرِّج كُربةً.. لكنَّه يريح القلبَ، لا ملجأ.. ولا ملاذ حاشا الصلاة والابتهال إلى الله، تحامل على نفسه.. وقام فصلى المغرب.. ثم صلى العَتمَة، ثم مسح عَبراته التي بَلَّلت لحيته.. وغسلت قلبه، قعد يَتفكَّر: (لماذا أصابني هذا الذي أصابني؟!! لماذا لم تفلح هجرتي؟!! رغم أنّي ضحيتُ لأجلها بما أملك؟!! هل لأنّي تَلكَّأتُ.. ولم أسارع؟!! لكني.. تداركتُ.. وهجرتُ أرضي ومالي.. وهاجرتُ إلى الله ورسوله!)، (تُرى.. ألم يقبل الله مني؟!! هل غضب عليّ لأنّي أَبَيتُ الارتداد إلى قريش؟؟! أم لأني قتلتُ مبعوثها؟!!)، (قد أطعتُ النبي.. وخرجتُ مع ذلك المبعوث الأشر؛ لكن.. هل كنتُ أرجع إلى مكة.. واستسلم لملأ قريش.. يُذلُّوني ويُعذِّبوني.. ويفتنوني في ديني.. بعد أنْ أكلوا مالي؟!!)، (أم.. عساه لم يقبل هجرتي.. لأنّي تخلَّيتُ عن أخي "أبي جندل"؟!!)،

(تالله.. لم أَبْغِ التَخَلِّي عنه؛ بل.. استحييتُ من الله، وخشيتُ أنْ تضيع الفرصة التي واتتني!)، (أُشهدك –يا الله- أنني باقٍ على عهد أبي جندل، ولإنْ أَعنتَني لأنجدنَّه.. وأسانده حتى يهاجر إلى رسولك!).

تَطَلَّع بقلبه وناظريه إلى السماء.. وأنشأ يناجي ربه: (يا ربي! فررتُ لأعصم نفسي أنْ أُفتن عن ديني! يا ربي.. لا ملجأ إلا إليك! اللهم.. إني عبدك؛ فررتُ إليك، ولا مأوى لي؛ فاللهم.. آويني!)، هبَّت نسماتٌ لطيفة.. داعبت أنفه وجسده، انشرح لها صدره؛ فراح يُسبِّح ربه.. كما علمه نبيه، خشع في أذكاره وتسابيحه.. فأحسَّ كأنَّما النسمات تُسبِّح بتسبيحه، ثم طفق يُتمتم: (فررتُ إليك –يا ربي- فآويني، فررتُ إليك –يا ربي- فآويني!)؛ ما زال.. يُردِّدها، وما فتر لسانه عنها.. حتى غلبه النُّعَاس.. وغاب في سبات.

*****

في دُهْمَةِ السَّحَر.. انتبه؛ صمتٌ مخيف يُغطي الفضاء.. كأنَّما انقلب الكون الفسيح إلى قبرٍ أَخْرَس.. إلا مِن حَسيسٍ[1] ذي رهبة، استرق السمع.. ليُميِّز ذاك الصوت الناتئ في وُجُوم تلك الفَلاة المُدلَهِمَّة؛ إنَّه لَجَب[2] البحر؛ إنَّ لأمواجه همهمةً.. كأنَّما تُسبِّح خالقها.

تلفَّت حوله.. فألفى الليلَ ثقيلاً على السماء.. وتَبَدَّت له نجومُها عاجزةً عن رفع ظلمته، تأمَّل حاله في هذا العراء؛ فإذا الرمال الرطبة فِرَاشه.. وقُبَّة السماء الحالكة غطاؤه، الجوع ضجيعه.. وبئس الضجيع، أنشأ يتفكَّر:

[1] : صوت خفيّ تسمعه يتحرّك قريبًا منك ولا تراه.
[2] : صوت تلاطم الأمواج واضطرابها.

(في مكة.. كان لي بيتٌ ومتاع.. وفِراشٌ وغطاء.. وأموالٌ وأصحاب؛ لكن.. ما غناءهم عني حين كنتُ في شركٍ وضلال؟! وما غناءهم عني حين كنتُ غافلاً عن رب العالمين؟!)، (الحين.. عرفتُ الحق.. وتشرَّبت نفسي بنوره؛ فلا أُبالي –بعد أنْ اهتديتُ- إنْ كان الجوع ضجيعي.. ولا على أي فراشٍ بات منامي!!).

راح يتنسَّم نسمات السَّحَر الرطبة، ونُفِث في رُوعه: أنَّ حياته قبل أنْ يهتدي للإسلام كانت كمثل تلك الظلمة الحالكة.. التي لا جرم أنَّ انبلاج الفجر سيُبدِّدها، غير أنَّه تحيَّر في شأنه: (الحمد لله.. أنا ثابتٌ على ديني، وما هاجرتُ.. وما فررتُ إلا حرصاً عليه ألا أفتن عنه!)، (لكن.. هل فراري -الذي فررتُ- خطأٌ.. أم صواب؟! هل يُرضي الله ورسوله؟!! هل قتلي مبعوث قريش.. يُرضي الله ورسوله؟!!)، (قد احترتُ.. يا ربي!! اللهم نجني من حيرتي.. وأرشدني في ضلالي!!).

رنا إلى قُبَّة السماء؛ فلمح خيطاً رفيعاً من بصيصٍ أبيض يشقُّ سوادها الحالك؛ تفاءل به.. وهمس: "الصبحُ.. يتنفَّس، وفرج الله قريبٌ!".
صلى الفجر.. ومكث يذكر ربه ويَتلُو ما يحفظه من كلامه.. كما علمه أصحاب النبي، غمرته سكينةٌ.. حجبته عمّا أحاطه من وَحشة؛ فتبدَّدت رهبته وهدأ جزعه.. ونسي جوعه وعطشه.

ثم ما لبث أنْ اخترق وَهجُ الشمس حجابه.. وألهبت حرارتُها رأسه.. وذَكَّرته جوعه وعطشه؛ فنهض.. مُغمغِماً: "عليّ أنْ أبحث عن مأوى وماءٍ وطعام وإلا.. هلكتُ!"، انكفأ يُفتِّش –مرة أخرى- في سَرْج الحصان.. عسى أنْ يصادف زقَّ[1] ماءٍ.. أو شيئاً من طعام؛ فما عثر على شيءٍ.

[1] : الزِّقُّ: وِعاءٌ مِنْ جِلْدٍ يُمْلأُ بِالْماءِ أَوِ اللَّبَنِ أَوِ الْخَمْرِ وَنَحْوِهَا.

خطر له أنْ يذبح الحصان.. ويأكل من لحمه ويشرب من دمه، بيد أنَّه استقبح الفكرة، ثم سحبه.. ومشى –راكِباً العَشْواء[1]- يبحث لهما عن غذاءٍ.

راودته نفسه أنْ يرجع أَدْراجه إلى طريقٍ مأهولة.. فيجد ماءً ويُصيب طعاماً، غير أنَّه قَدَّر أنَّ نبأ هروبه –وقتله الفتى العامري- لن يخفى.. وستعلم به العرب، وقد يَأْسِره أحدُهم ويُسلِّمه إلى ملأ قريش.. يعبثون به؛ فآثر أنْ يستتر.. مُبتعِداً عن طريق الناس، انبعث يطوف الشاطئ –مُذبذَباً.. يَمْنةً ويَسْرة- علَّه يعثر على بقايا طعامٍ سقط -أو تَخلَّف- من قافلةٍ غَرَّبت.. فمَرَّت قريباً من هنا، أو ربما يُصادف شجيراتٍ يأكل من خَبَطها[11] أو يُطعمه حصانه.

بلغ منه الجهد مبلغه.. وخنقته الشمس وقَيْظها؛ وما عثر على ضالته، تأفَّف.. وهتف في نفسه: "ما هذا بمقام! عليَّ أنْ أرجع إلى وادي يليل[2].. أو أرحل إلى العيص[3] أو ذي المروة[33]؛ ربما أجد مأوى!"، فيما يُحدِّث نفسه -مُولّياً للبحر ظهره-.. ارتفع بصره؛ فتراءت له -من بعيد- أَيْكةٌ باسقةٌ، جذب زمام حصانه.. وهرول إليها، بلغها.. بعد عثراتٍ في كثبان الرمال، نظر إليها..

---

[1] : ركِب العَشْواءَ: سار على غير هُدًى أو بصيرة.

[11] : الخَبَط: ما سقط من ورق الشجر بالخبْط والنَّفْض.

[2] : هو وادي الصفراء، وادي كثير النخل والزرع والخير في طريق الحاج، سلكه النبي غير مرة، ويليل.. اسم قرية قرب وادي الصفراء من أعمال المدينة، وفيها عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أغزر ما يكون من العيون، ووادي يليل يصب في البحر الأحمر.

[3] : منطقة قرب ساحل البحر الأحمر من أعمال المدينة المنورة.

[33] : موضع مندثر.. كان به عين ماء، ويقع شمال المدينة بحوالي ١٨٠ كم، كانت محطة على طريق قوافل الشام.

فألفاها يابسة الأوراق، خبط أغصانها بصفحة السيف.. فتناثرت أوراقها اليابسة الخشنة، أخذ يجمع الورق ويُطعِمه حصانه، ثم قرَّب بعضه إلى أنفه.. وإلى فمه، شرع يَلُوكها.. فما استساغها.

هرع إلى ماء البحر.. وجعل يُبلِّلها.. عسى أنْ تروقه؛ فما نفعه، نكص إلى الحصان.. وظلَّ يُطعِمه ورق الشجرة حتى طعم، ثم جرَّه قافلاً به إلى ماء البحر ربما يشرب منه، أَكْرَهَ نفسه على الشُرْب؛ فألهب الماء المالح جوفه.. وما زاده إلا عطشاً.

*****

استعرت الشمس.. وأججت الفضاء حوله، ورَمِضت[1] الأرضُ تحته، اعتراه شعورٌ خانقٌ بالخيبة والإحباط؛ رغب عنه.. ورغب في درئه، تَخَفَّف من حمله؛ فوضع سيفه عن كاهِله.. وخلع ثيابه عن جسده.. والسَّرْج عن حصانه، ثم جذبه –مُداعِباً إياه.. بتحفيز- مُقتحِماً به الأمواج عساها تُخفِّف عنهما صَهد الشمس ويأس النفس؛ فاستقبلتهما بأحضان مُنعِشة.. بعثت في كليهما رغبةً جديدةً في الحياة.

عانق الحصانَ وجبذه داخل البحر.. وغدا ينضحه ويُعمِّم جسده بمياهه، ويُشجِّعه على خوض عبابه.. والتوغُّل بين أمواجه، استجاب الجواد الفَطِن، وتلاشت رهبته من الماء.. فشرع يمخر عباب البحر.. سابحاً مع صاحبه بكلتا يديه.. ورجليه.

---

[1] : رمضت الأرض: اشتد وقع الشمس عليها.

صاح أبو بصير مُغتبِطاً باللعب مع الجواد.. والأمواج، ثم تطلَّع إلى الأفق؛ فأبصر –على مبعدةٍ منه.. في عرض البحر- طيوراً تطوف مُحلِّقةً، ثم تَنقضُّ على صفحة البحر.. هازئةً بأمواجه.. غامسةً رأسها في مياهه.. ليخرج –بعد لحظاتٍ- وبين منقاريه سمكةٌ كبيرة –أو.. صغيرة- تهتز.. تَملُّصاً وفزعاً؛ لا تُفلتها.. ولا تُمهلها.. بل سرعان ما تبتلعها، حدَّثته نفسه أنْ يصنع مثل تلك الطيور.. ليَسِدَّ جوعه.

خَلَّى الحصان.. ومضى يسبح –بهمةٍ وافرة- إلى عمق البحر.. ضارباً مياهه -تارةً بذراعيه.. وتارةً برجليه- وناطحاً أمواجه برأسه، ما انفك يغوص ويطفو.. مُتحمِّساً لبلوغ هدفه؛ لكن أوهنه العطشُ.. وحَسَر بصرُه بمكابدة الجوع والأمواج المالحة، التمس العونَ من الريح.. أنْ تدفعه وتُعضِّد قوته؛ بيد أنَّها خذلته، وما فتئ الهَجِيرُ يخنقه.. والارهاق يُبطِّؤه، أحس أنَّ البحر يعانده.. ويطرده بعيداً عن بُغْيَتِه؛ ففترت همته.. وكَلَّت ذراعه.

توقَّف هنيهة: (اليأس.. راحة! لن أقدر أنْ أُدرك ما تدركه تلك الطيور!؟)، انصرف عن مُراده: (يا ربي! أعلم أنَّك أنت الذي تطعمني وتسقيني، وأعلم أنَّك قادرٌ أنْ تبدِّل هذا البحر الأجاج إلى عذبٍ فرات، أعلم أنَّك قادرٌ أنْ تُنزِّل عليَّ الغَيْث من هذه السماء.. أو تُنزِّل عليَّ منها.. مَنّاً وسَلْوَى!!).

يَمَّم وجهه شطر حصانه.. فأبصره قد باعدته عنه الأمواج؛ خشي أنْ يفقده.. فوثب يشقُّ الموج.. مُرتَدّاً إليه، لَحِقه.. بجهدٍ ومشقةٍ.. وجسدٍ يرتجف إعياءً، حبَّذ أنْ يرجعا إلى حيث ترك متاعه، رمى ببصره إلى

الشاطئ.. فرأى أنَّهما ابتعدا –عن المتاع- مسافةً غير قصيرة، فضَّل أنْ يخرج إلى البر.. ويسعى إلى متاعه مَشْياً لا سباحة، خرج من الماء.. ونظر؛ فوقع بصره –عَفْو الخاطر[1]- على كومة رملٍ.. كهيئة إنسانٍ جسيمٍ مُمدَّدٍ وسط الرمال، سعى إليه على حذر.. لينظر: مَن هذا؟!!

*****

طفق يدور حوله بارتياب.. يتساءل مُتحَيِّراً: (ليس كثيب رمل.. وليس إنساناً! فما هذا الشيء؟!)، تُجيبه خواطره مُخمِّنة: (ربما.. دابةٌ ميتةٌ لفظها البحر! لعلَّها دابة البحر التي تُدعى: العَنْبَر!!؟)، (كلا!! ليست هي؛ الذين تحدَّثوا عنها.. قالوا أنَّها ضخيمة جداً.. أضخم من هذا الشيء بكثير!؟)، (ربما.. هو وليدها الصغير؟!!).

أخذ يطوف حواليها.. يعاينها عن قُرب، ركلها برجله.. فإذا هي رخوةٌ ثقيلةٌ، اقترب.. وانحنى إليها، نخزها بأُصْبُع يده.. فإذا هي لحمٌ طريٌ سميك، على وجلٍ.. وبحذرٍ مسح عنها الرمال.. رويداً رويداً؛ فاتضحت له معالمها: (إنَّها تشبه الحوت؛ لكنَّها أضخم جِرْماً، لا ريب.. هي دابةٌ من دواب البحر.. التي لا يعلمها إلا الله.. الذي خلقها!!)، (سبحانك.. يا ربي! تخلق ما لا نعلم.. ولا محيط لعلمك!!).

التبس عليه كُنْهُها.. وما عَرَفها؛ على أنَّه هتف في نفسه: (لا جرم.. هي رزقٌ ساقني اللهُ إليه؛ الحمد لله!)، (انتظر!! إنَّها ميتة.. لا يجوز لك أكلها!)، (أنا مضطر.. أخشى الهلكة، والله يعفو ويرحم!)، (لا جرم.. أنَّها من دواب البحر؛ وقد أَحَلَّ لنا رسول الله.. ميتة البحر!).

---

[1] : تلقائياً أو ارتجالياً.. بدون إعدادٍ سابق.

قعد إلى جوارها.. يتفكَّر: (لإنْ تَيَسَّر لي طعامها؛ فإنَّها تكفيني أياماً.. وأسابيع!)، (لكن.. كيف يتسنى لي الأكل منها!).

تذكَّر سيفه ومتاعه.. وسَرْج الحصان؛ غمغم: "أنْ أقع على طعامٍ كهذا.. بمحض صدفةٍ؛ فهذا فألٌ حسن!"، حضره شعورٌ غامرٌ بالتفاؤل.. شدَّ أَزْره وقَوَّى عزيمته؛ فنهض إلى الجواد.. وقفز على ظهره العاري من الرَحْل، وركض إلى حيث خَلَّف المتاع.
بتَعجُّلٍ واضطراب.. شرع يلبس قميصه وسَراويله ويعتجر[1] عمامته.. ويُسرِّج حصانه، ثم حمل سيفه.. وهرع ثائباً إلى لُقَطته[2] الثمينة.

اِنكَبَّ عليها.. يُزيل الرمال العالقة بجسدها، ويتحسَّسها بيديه.. كأنَّما لا يُصدِّق أنَّ مأدبةً مثل هذه.. تقع بين يدي رجلٍ مثله.
سَمَّى باسم الله.. وتناول سيفه، ثم اِجتَزَّ قطعةً صغيرة.. تخيَّرها من ظهرها، سلخ عنها جلدها.. ومسحها، ثم أدخلها –مُتردِّداً- إلى فِيه.. قضمها وجعل يلوكها ويمضغها نيئةً.. وقلبه يخفق هيبةً وحذراً.
لم يستحسن مذاقها؛ على أنَّه ابتلعها –مُكرَهاً- بعد أنْ مَضَغها مدة، ثم حَضَّ نفسه على الأَكْل منها: (ما بيدي حيلةٌ؛ إما آكلها.. أو الجوع يأكلني!!)، نهش نهشةً ثانية.. فثالثة.. فرابعة.. وبالكاد اعتاد على مذاقها.. وبصعوبةٍ تمكَّن من ابتلاعها، بعد العديد من النهشات الغير رائقة.. هتف: "يا حبذا أنْ أوقد ناراً.. وأطهو هذا الشيء!".

---

[1] : اعتجر فلانٌ بالعِمَامَةِ: لفَّها على رأسه وردَّ طرفَها على وجهه.

[2] : اللُقطة: مَا يُعثَر عليه مُلْقىً عَلَى الأَرْضِ فَيُلْقَطُ، أَوِ الشَّيْءُ الْمَتْرُوكُ لاَ يُعْرَفُ لَهُ مَالِكٌ.

غـدا يهـرول يمينـاً وشِـمالاً.. يبحـث عمّـا يُشـعله نـاراً، وبعـد محـاولاتٍ فاشـلةٍ.. ومحـاولات، وبعـد عنـاءٍ ومكابـدة.. حَفَـر حفـرةً وأشـعل –داخلهـا- نـاراً واهنـةً في شيءٍ من حَطَـبٍ جمعـه من هنـا وهنـاك، طفـق ينفـث فيهـا وينـفخ فيهـا.. حتى اطمـأن لاشـتعالها، جَـزَّ فِـدْرَةً[1] من طعـام البحـر ذاك، ثـم جعـل يُنضجها في حفرة النار.

أكل منها.. وما شَـبِع، غير أنَّها أقامت أَوَده؛ غمغم: "الحمد لله.. الـذي وهبني هذا الطعام!"، على أنَّ طعمها -الغير مستساغ- وحرّ الشمس وأجواء البحـر الراكدة الخانقة.. اجتمعوا عليه وألهبوا جوفه؛ فاشتهت نفسُه الماء!!

*****

تمتم.. يناجي ربه: "يا ربي! أنت وهبتني هذا الطعام من غير حول مني ولا قـوة! فـاللهم.. اسـقني!!"، تَخَتَّـرت[2] أطرافـه.. فـارتمى –بجـوار مأدبتـه- على رمـل الشاطئ، ألقى نظرةً عابرةً إلى البحر؛ فرأى الشمس قد نثرت خيوط ضيائها اللامعة على صفحته، وشاهد مياهه تتراقص تحت بريق سناها، رفع نظره إلى كبد السماء حيث تربَّع قرصها الملتهب.. فكادت تخطف بصره، أشاح عنها؛ لكن.. أَحسَّ بشعاعها الحارق يخترق عمامته ويَخِرق رأسه، شعر كأنَّها تَشوِي جلده وتُنَضِّج جسده.. لتأكله!!

تَلفَّت حواليه.. ينشد ظِلًّا؛ فما عثر.. على مدِّ بصره، حدَّث نفسه.. مُشجِّعاً: (وإنْ ضَنَّت عليَّ الشمس بظِلّها؛ فلأصنع –بعون الله- لنفسي ظِلًّا!!).

---

[1] : أي: قَطَعَ قطعة كبيرة من اللحم؛ والفِدْرَة: هي القطعة المجتمعة من كل شيء.. الجمع: فِدَر.

[2] : تخثَّر: استرخى وكسل.

خطر له أنْ ينقل مأدبة البحر هذه.. إلى جوار الأَيْكة؛ فينعم بالطعام والظِلِّ معاً، جَرَّب أنْ يقيس وزنها بحمل رأسها بكلتا يديه؛ فكانت ثقيلةً جداً، حاول أنْ يَعتِلها[1] أو يَجُرَّها على الأرض؛ فما استطاع.

أمسك سيفه بكلتا يديه ورفعه في الهواء.. ثم هوى به يغرزه في جسدها غرزاً، وثبَّته فيها تثبيتاً محكماً، ثم ربط لجام الحصان في السيف، وحاول أنْ يجرجرها بالحصان، حاول مراتٍ ومرات.. حتى أَجْهَد حصانه؛ وما قدر أنْ يزحزحها.

أُجْهِد.. هو الآخر؛ فقعد.. يلتقط أنفاسه.. ويتفكَّر في حاله: كيف يُهيئ لنفسه مأوى –وإنْ كان لأيامٍ مؤقتة- بجوار هذا الحوت: (آخذ الحصان إلى الأَيْكة، وأحمل عليه من أوراقها ما يُطعِمه.. ومن أغصانها ما أُوقد به ناراً، ثم أرجع بهم إلى هنا؛ فخير مقام.. جوار الطعام!!)، (وقبل أنْ يفسد لحم هذه الدابة.. أُقطِّع منها فِدَراً أُقدِّدها[2].. وأجعلها وَشائق[3]!)، (وأسلخ جلدها؛ فأصنع منه نَطْعاً أرقد عليه.. وأجمع فيه متاعي، وأصنع منه ومن ضلوعها وبعض أغصان الأَيْكة خباءً.. يُظلّني!).

واتته تلك الأفكار وازدحمت في رأسه بترغيبٍ وتحضيضٍ.. لامبالية بما يكتنفه من وحدةٍ ووحشة، بل –على النقيض- تملَّكته حالةٌ من الاستبشار والاستنفار.. كمَن صادف مأوىً آمناً بعد انقطاعٍ وشُرود؛ تجاوب معها..

---

[1] : عتل الشيء: جذبه وجرَّه بعنف.

[2] : قدَّد اللحم: أي.. قطَّعه وملَّحه وجفَّفه في الهواء والشمس ليصير قديداً فلا يفسد مع الزمن.

[3] : مفردها: وَشِيقَة.. وهي لحمٌ يقدَّد حتى يَيْبَس، ويُحمَل في الأَسفار، وهو أبْقَى قَدِيد.

وانتصب مُتأهِّباً للعمل.. ولم يزد عن أنْ واسى نفسه وصَبَّرها.. مناجياً الحصان: (بقي فقط: أنْ نعثر على ماءٍ.. نشربه!!).

*****

نظر -قبل أنْ يتحرَّك للعمل الذي عزم عليه- إلى انحسار الظِلِّ على الأرض.. فقال: "دخل وقت الظهر! الصلاة.. أولاً، ثم.. العمل!!".
على الرمضاء.. قام يُصلي صلاة الظهر وما شاء الله له أنْ يُصلي من النوافل.. كما علَّمه رسول الله ﷺ، وفي صلاته.. خشع إلى ربه واستغفره واستعان به.. وسأله الهداية والرشاد.. ورجا منه المأوى والسِداد[1]، ثم نهض إلى العمل.

لبث سويعات من نهاره.. يتأرجح –وحصانه وسيفه معه- بين الأيكة ودابة البحر، يُجمِّع من أوراقها ويُقطِّع من أغصانها، ثم يُكوِّم ذلك تحت (الحوت).. وإلى جواره، لم ينفك يثابر على هذا العمل دون كَلَلٍ أو مَلَل.. تحت السماء العارية من الغمام وشمسها الحارقة.. وفوق الأرض الملتهبة ورمضائها المُستعِرة.. غير مكترثٍ بأكوام الرمال اللافحة وحُفَرها المُعَرْقِلة، حتى إذا رضي بما تجمَّع تحت قدميه من فَضْل الأيكة؛ قعد يستريح –هنيهة- إلى جوار مأدبته.. بعد أنْ أطعم دابته من ورق الشجرة.
ثم نهض يستكمل العمل، وانهمك –لسويعات أُخر- في محاولة نزع جزءٍ من جلد تلك الدابة البحرية الضخمة.. ليُصيِّره نطعاً، لكن.. فشلت كل محاولاته؛ وما استطاع سلخ ولو قطعة واحدة ليدبغها ويستخدمها،

[1] : سِداد من عوز: ما يَسُدّ الحاجة من مال وغيره.

حتى محاولاتـه في تمزيقـه وتقسـيمه إلى قطـعٍ يمكـن اسـتعمالها.. فشـلت أيضـاً، وعجـز –كـذلك- عـن اسـتخراج ضـلوعها؛ يلزمـه أدواتٌ أنفـع مـن السيف.. ويحتاج رجالاً.. ليساعدوه.

كَلَّ عنهـا.. ومَـلَّ المحـاولات الفاشـلة.. واستسـلم للأمـر الواقـع، واكتفى بـأنْ صنع لنفسه مظَلَّةً.. يستظلّ بها: تخيَّر أغصاناً غليظةً ذات أطوالٍ مناسبة، وغرسـها في الأرض.. وثبَّتهـا جيـداً، ثـم خلـع عمامتـه.. وطرحهـا فـوق تلـك الأغصان فصارت مِظَلَّة.. أو تكاد، ثم اتكأ أسفل منها.

*****

اِلتَهَبـت أحشـاؤه وجَـفَّ حلقـه.. وهَمَـدَ جسـده مـن الظَمَـأ والأُوَار[1]، تسـاءل بخيبـة أمـل: "كيـف يطيـب المقـام.. مـن دون مـاءٍ يُشـرَب؟!!"، ثـم أردف بنبرةٍ مُتشائمة: "إنْ مكثتُ هكذا يومين آخرين.. هلكتُ؛ يجب أنْ أعثر على ماء!!".

ثم حدَّث نفسه مُحفِّزاً: (اِيه.. يا أبا بصير! الله معك؛ استغفره.. وتَوكَّل عليه.. واستعن به؛ يرزقك الشراب.. كما رزقك الطعام!)، فأجابته نفسه بإيجابية: (إذاً.. أَنتظر حتى ينكسر حَرُّ الشمس، ثم أسعى.. عسى أنْ أجد ما يروي عطشي؛ لن أقنط.. من رحمة الله!!).

تَوَسَّد ذراعه.. وأغمض عينيه.. ورقد –على الرمال الرطبة- أسفل مِظَلَّته التي لم تكد تُغطي جسده.. إلى جوار مأدبته ودابته.. مُدَّخِراً قوته للبحث عن الماء بعد انكسار الهاجرة.

---

[1] : الأُوَار: حَرّ الشمس.. والعطش الشديد.

أفاق من غفوته؛ فإذا الشمس مالت إلى مغربها.. وخَفَّ صَهْدها[1]، صلى العصر.. ثم ركب حصانه وذهب يُفتِّش عن ماء، ما انفكت عيناه تدوران تنشدان.. سراباً، ولسانه وقلبه لا يفتران عن ذكر ربه.. والاستعانة به، وما برح فِكْره مُعلَّقاً بمأدبته التي وراءه؛ كلما مشى خطوات.. التفت إليها يطمئن عليها.

سار أَمَداً.. حتى تباعد عن مأدبته وغابت عن ناظريه.. وما عثر على سُقْيَا، استيأس من البحث في تلك الجهة؛ فحبَّذ أنْ يعود أدراجه إلى مُستَقَرِّه قبل أنْ يَجِنَّ عليه الليلُ، ومن ثَمَّ.. يَتَحرَّى الماء في جهةٍ أخرى.

نزل عن الحصان.. وجعل يمشي ساحباً إياه إلى حيث مأدبة البحر، ثم لاحت عن بُعْد، رفع بصره إليها؛ فرأى كأنَّ إنساناً يطوف حولها، بُغِتَ.. وأوجس خيفة؛ فوثب على ظهر الحصان.. وركض صَوْبها.
اقترب.. ونظر؛ فشاهد رجلاً يعبث بمأدبته ويعيث في مكانه، شَهَر سيفه.. وعدا نحوه.. حتى وقف بجواده على رأس الرجل الذي تباغت به.. وارتعب من هيئته، زأر أبو بصير بصوتٍ غاضباً:

- ماذا تفعل هنا.. يا هذا؟؟ كيف تَتطفَّل على طعامي؟؟!
- على رِسْلِك.. يا أخا العرب! إنْ أنا إلا عابرٌ.. ضَلَلْتُ الطريق ونفد زادي!!
- ارحل!! فليس لك.. هاهنا.. مِن زاد[2]!

تصاغر الرجل.. وانكمش في تَذلُّل، ونكَّس رأسه.. وهو يهتف بصوتٍ أسيف:

---

[1] : الحر الشديد.
[2] : الزاد: طعام يُتَّخَذُ للسفر.

- لَعمرك -أيها الفارس الشَهْم- إنَّ الترحال في هذا التيه.. أضناني، ولقد عضني الجوع.. حتى أيقنتُ بالهلكة، ثم أراد الله أنْ أقع في طريقك، وأرجو أنْ تتفضَّل عليَّ.. وتحفظ رمقي بشيءٍ من طعامك!!

فيما يتوسَّل.. تَفرَّسه أبو بصير؛ فألفاه: أعرابياً أسود البشرة.. نحيف الجسم.. قصير القامة.. ضعيف البدن.. أعزل من السلاح، ولمح على ظهره قِرْبَةً[1] ماء؛ فكأنَّما وقع بصره على ترياق[2] الحياة، تنحنح.. ثم سأل بنبرةٍ لينة:

- هل معك.. ماء؟؟!
- أجل.. يا سيدي!!

هتف بها.. وهو يُنزِّل القِرْبَةَ عن ظهره.. ويُريه إياها، ثم يتقدَّم خطوتين.. ويَمدُّ يده بها يُقرِّبها إليه.. هاتفاً بتحضيض:

- إنْ شئتَ.. تشاركنا الماء!!

غَمَد أبو بصير سيفه.. وترجَّل عن فرسه، ولا إرادياً.. انقضَّ على يد الرجل مُنتزِعاً الماء، ثم قال بلهجةٍ رفيقة:

- مرحباً بك!

ثم أومأ إلى دابة البحر.. وأردف:

- هاك الطعام؛ خذ منه ما شئتَ.. واصنع لنا، وعَجِّلْ.. قبل أنْ يغشاك الليل!!

تَهلَّل وجه الرجل.. وأقبل على الطعام.. مُتفكِّراً: كيف يُعِدُّه.

---

[1] : القِرْبَة: وِعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ يُوضَعُ فِيهِ الْمَاءُ وَنَحْوُهُ. [2] : التِرْيَاق: دواء لإخراج السم من الجسم.

*****

انْتَحَى أبو بصير بقِرْبَة الماء؛ فَضَّ وكاءها[1] بحذر، ثم نَدَّى شفتيه بمائها، وبحرصٍ شديد.. بَلَّل يديه ومسح بهما وجهه ورَقَبته: وَدَّ لو يسكب الماء العذب فوق رأسه سَكْباً؛ فيغسل به شعره الشَعِث.. ووجهه الذي يَبَّسه هواءُ البحر بملحه وشقَّقه بغَبَرته، وَدَّ لو يَعُبُّ[2] الماء في جوفه عَبّاً.. حتى يرتوي، غير أنَّه –حِرْصاً على الماء.. ألا يذهب سدى- اِقْتَصَر على مسح وجهه وعنقه، وقَنَع –حامداً ربه- برشفاتٍ تجرعها.. رطَّبت حلقه وما أشبعت نَهَمه.

ثم قعد.. وقِرْبَة الماء -على مقربةٍ من المأدبة وضيفها المجهول- وإلى جواره دابته. في تَحفُّظٍ.. راح يراقب الضيف وهو يُعِدُّ الطعام، رآه يستخرج من ثنايا قميصه خنجراً لم يلحظ وجوده؛ فتحسَّس جراب سيفه محاذراً: (يجدر بي أنْ أحذر.. الغدر!!)، جعل يشاهده ويرصد حركاته.. في تُؤَدَة: كان يسابق قرص الشمس الذي يتهاوى إلى جوف البحر؛ قَصَب[3] قِطَعاً كبيرةً من اللحم ونزع عنها جلدها وغسلها بماء البحر، وبأيسر مما تَوقَّع أبو بصير أشعل ناراً.. وأخذ يؤججها، ثم قَطَّع اللحم قِطَعاً أصغر.. وأخذ يُنضِّجها في النار، كان يعمل بحنكةٍ مثيرة للإعجاب، ونشاطٍ واطمئنانٍ.. اندهش لهما أبو بصير!

انسلخ النهار.. وأقبلت غاشيةُ الليل، وتصاعد قُتَارُ[33] الشواء.. وداعبت رائحتُه أنفَ أبي بصير.

---

[1] : الخيط الذي تُشدُّ به.

[2] : عَبَّ الماء عَبًّا :شَرِبَهُ بلا تنفُّس ومَصٍّ.

[3] : قَصَب اللحم: قَطَّعه.

[33] : دُخَانٌ ذو رائحة خاصَّة ينبعث من الطَّبيخ أو الشِّواء.

بعد عدة تقليبات على جمر النار.. غرس الضيفُ نَصْل خنجره في قطعة شواء.. وقرَّبها إلى أنفه.. ثم إلى فمه.. وتذوَّقها ليستوثق من نُضْجها؛ فاستحسن مذاقها، ثم نادى:

- هَلُمَّ إلى الطعام.. أيها السيد الكريم!!

نهض إليه أبو بصير.. وجلس بين يدي الطعام، قرَّب إليه قطعةً من اللحم الناضج، اشتهى رائحتها؛ فغمغم: "باسم الله!"، لكنَّه شرع يأكل.. كالزاهد في الطعام؛ حالما يَلتهم الضيفُ المجهول اللحمَ اِلتهاماً، كان يأكل بشهيةٍ لا تتفق مع كونه ضالاً في صحراء.. ولا تَنُمُّ على أنَّه خائفٌ مكروب.

فيما يزدرد[1] قطعةَ لحمٍ أكبر من فمه.. رفع بصره إلى أبي بصير.. وسأله مُتودِّداً:

- هذا حوتٌ كبيرٌ! كيف اصطدتَه وحدك.. يا أخا العرب؟!!
- ..... . (ضرب صَفْحاً عن إجابته.. مُستخِفاً به)

ثم سأله.. مُلِحّاً في تجاذب الحديث:

- ما اسمك.. أيها الفارس الشجاع؟؟!

جاوبه.. بعدم اكتراث:

- ما اسمك.. أنت؟؟
- اسمي.. أُوَيْس[2]! وأنت؟؟
- عتبة!!
- ومِن أي أحياء العرب؟؟!

---

[1] : ازدرد اللقمة: بلعها بسرعة.

[2] : أُوَيْس: هو الذئب.. وهو تصغير أوس.

- قد فارقتُ قومي، فلا يهمني –بعد الحين- أنْ أنتمي إليهم!!

رمقه باندهاشٍ وتَوَجُّس، لكن.. سرعان ما وَارَى دهشتَه وراء ابتسامة تَمَلُّق.. وهتف بنبرة إطراء:

- إذاً.. أنت صعلوكٌ.. مثلي!!؟

- صعلوك؟!!

تمتم بإشمِئزاز.. وشرد في هواجسه: (صعلوك؟؟! هل انتهى بي المطاف إلى التَصعلُك؟!!)، (كلا! لستُ صعلوكاً، بل.. أنا مسلمٌ مهاجر؛ آمنتُ بالنبي محمد، وهاجرت إلى الله ورسوله!!)، (لكنَّك لستَ في جوار الرسول.. ولا في مدينته.. ولستَ بين أصحابه!؟)، (ذلك مِن كيد قريش لي.. وتَكبُّرها على الله ورسوله!!)، (أبا بصير! لا تكابر؛ إنَّك –الحين- طريدٌ شَريدٌ.. لا تملك شيئاً، وهل الصعلوك.. إلا فقيرٌ مُشرَّدٌ؟!!)، (الصعلوك.. نَهَّابٌ فَتَّاك؛ وإنّي.. لستُ كذلك!! قد أبيتُ الصعلكة –آنفاً- لمَّا عُرِضت عليَّ حينما غاضبتُ ثقيف، تَنَزَّهتُ عنها.. ورضيتُ أنْ أرحل –مظلوماً- عن الطائف.. إلى مكة!)، (كنتُ غريباً، وحالفتُ بني زهرة.. وليسوا بقومي ولا عشيرتي، كافحتُ.. وبدأتُ من جديد.. راغباً عن حياة الصعاليك المُتشرِّدين، ثم.. بعد أنْ اهتديتُ لدين الفضيلة والرشاد؛ تزعم أنّي.. تصعلكتُ؟!! كلا.. والذي نفسي بيده.. لستُ بصعلوك!!).

تنبَّه من شروده على صوت جليسه يهتف متسائلاً:

- هيه.. يا عتبة!! أيها الفارس الشَهْم! ألا.. تَقُصُّ عليَّ حكايتك.. كما قَصَصْتُ عليك خبري؟؟!

(ايه؟!! ماذا يقول؟؟ هل قَصَّ حكايته عليَّ.. تَوّاً؟!! إنّي لم أسمع منه شيئاً!!؟)؛

تعثرت الكلماتُ على شفتيه.. ولم تُسعِفه الألفاظُ؛ وما وسعه عدا أنْ يرمق السماء التي أظلمت بنظرةٍ عابرة.. ثم يقول في صرامةٍ.. نافضاً يده من الطعام: "قد أمسينا، ولا حاجة لي في مسامرتك!".

- هل تأذن لي –يا أخا العرب- أنْ أرقد في جوارك الليلة، ثم أرحل.. حين نُصبِح؟!

أومأ برأسه موافقاً، ثم أعرض عنه، أدرك الضيف المجهول أنَّ السكوت خيرٌ له من الكلام؛ فانهمك في قَضْم الطعام والتقامه.. حتى أَتَى على آخره، بينما يتظاهر أبو بصير بالرغبة في النوم.

اِضطَرَّ الأعرابي الضيف إلى التَنَحِّي بضعة خطواتٍ عن ذلك الفارس الغامض الغضوب، ثم سَوَّى لنفسه فِراشاً من الرمل.. استلقى فوقه، وما عَتَّم أنْ غاب في غطيطه.

ما فَتِئ يراقبه خُفْيَة.. متسائلاً في سريرته: (من أي سماءٍ سقط عليَّ.. ذاك الفتى؟؟!)؛ فوقع في رُوعه: (أرسله الله إليك.. بالماء الذي كنتَ تنشد.. بعدما كنتَ تلهث من العطش!!)، سمعه يَغِطُّ في نومه؛ فانتبذ عنه.. وقام يصلي، على أنَّه تخيَّر موضعاً لصلاته يلحظ منه ذاك النائم المجهول.. تَحسُّباً من الغدر؛ بيد أنَّ النائم شطَّ في سباتِه.. ولم يزعجه في ليلته.

في دُجى الليل.. خلا أبو بصير إلى نفسه وصلاته.. ومناجاة ربه؛ فأنفق ليلةً ثائرةً حزينةً.. كئيباً حائراً، لم يَذُقْ فيها النومَ.. إلا غراراً: (هل أنا صعلوكٌ

فتَّاك.. أم مؤمنٌ مهاجرٌ إلى ربه؟!!)؛ حتى بزغ الفجر.. وصلى الصبح.. ولَمَّا يهتدي من حيرته.

*****

بَسَقَت[1] الشمسُ.. ونشرت أشعتها في الفضاء؛ وما صحا ذاك الأعرابي النائم، ناداه أبو بصير.. وزَعَق فيه:

- قُمْ.. أيها الفتى!

(ما اسمه؟؟ قد ذكره لي البارحة.. أثناء ثرثرته!؟ لكني.. نسيته!)؛ أعاد النداء بصوتٍ لا أثر للوُدِّ فيه:

- اِستيقظ.. يا هذا؛ قد أَضْحينا[2]!!

أجابه بصوتٍ خامدٍ.. مُشَبَّعٍ بالكسل:

- قد أفقتُ.. يا سيدي!

اِصْطَبَرَ عليه.. حتى نهض وذهب إلى الخلاء.. واستتر ليقضي حاجته، ثم عَرَّج على ماء البحر؛ فغمس فيه رأسه.. يلتمس الإفاقة، ثم جاءه مبتسماً:

- لبيك.. أيها الفارس الكريم! أ تحب أنْ أُعِدَّ لك.. طعاماً؟!!
- بل.. أُحب أنْ ترحل عني.. كما اشترطتَ على نفسك.. البارحة!!
- وما عليك لو تركتني.. فأمكث معك؛ تَأنس بي وأطبخ لك طعامك.. حتى إذا سئمتَ هذه الوليمة.. سعينا معاً إلى حيث تشاء الأَقْدار؟!!

عبس أبو بصير.. وأجابه حاسماً.. بصوتٍ صارمٍ رادع:

- كلا! بل.. الأجدر بك أنْ تفارقني.. الآن!!

---

[1] : بسقت: ارتفعت.

[2] : أضحينا: صِرنا في وقت الضحى.

أذعن الأعرابي.. ولم يُراجعه، بيد أنَّه تَوقَّف –هنيهة- مُتفكِّراً، ثم جأر.. مُتوسِّلاً:

- هل تسمح لي –أيها الفارس الشَهْم- أنْ أتزوَّد.. قبل الرحيل؟؟!
- لن أمنعك الزاد؛ خذ من لحم الحوت ما يكفيك في سفرك، لكن.. نقتسم الماءَ كما وعدتَ!!
- لا أَضْحَى الله ظِلَّكَ[1]! سأكتفي باللحم، والماء.. كله لك؛ فليس معي له.. وعاء!!

تأثَّر أبو بصير بإيثار الفتى له بالماء على نفسه؛ وهَمَّ أنْ يتراجع عن عزمه.. ويَدَعه يمكث معه، على أنَّه كتم شعوره.. وامتنع تَحَرُّزاً وإيثاراً للسلامة.. وحفظاً لسره.

راقبه؛ فشاهده.. قد شرع -بحركاتٍ دؤوبة- يُجهِّز زاده قبل أنْ يرتحل، قصم فِدْرَةً عظيمةً من اللحم.. تكفي عدداً من الرجال.

ثم تَصنَّع الحياء.. وهو يهتف:

- سأُقدِّدها في الطريق، أحسب أنَّ رحلتي.. ستكون طويلة!

لم يَعبَأ أبو بصير؛ إنَّما أومأ مُبيحاً له ما أخذ، ثم أشار أنْ: هيا.. انصرف؛ فحمل الرجل فِدْرة اللحم على ظهره، وفارقه.. في هدوء.

وبينما يبتعد –وظهره يكاد يَنُوء بحِمْله-.. ناداه أبو بصير:

- ذَكِّرني: ما اسمك.. أيها الفتى؟؟
- أُوَيْس!! (صاح.. دون أنْ يلتفت)

---

[1] : دعاء معناه: لا أهلكك الله.

تناءى.. حتى غاب عن ناظريه، زفر أبو بصير زفرة ارتياح: (ها أنا ذا قد استعدتُ خلوتي!)، ثم نظر.. فرأى أنَّ وقت الظهر قد دخل؛ فقام إلى الصلاة.

جثمت الشمس المستعرة.. على صدر السماء، وما برحت ترجم الأرض بأشعتها الحارقة.. وتقذف البحرَ وشاطئه بلهيبها، حاول أبو بصير الاختباء منها تحت مظلَّة عمامته؛ فما أغنت عنه شيئاً، بل.. وزاده هواء البحر الراكد نفوراً واختناقاً؛ فخلع ثيابه.. واندفع بجسده إلى موج البحر.. يزيل أدرانه.. ويغسل همومه.

بينما يداعب الأمواجَ وتداعبه.. ما انفكت الأفكار المضطربة تتلاطم في رأسه: (ماذا بعد؟؟! إلى متى أقنع بالبقاء جوار دابة البحر.. تلك؟!! ألا أسيح في الأرض.. فأبحث عن مأوى.. خيرٌ لي من انتظار الموت في هذا العراء؟؟!)، (لا جرم أنَّ سادة قريش سيطاردونني؛ إنْ لم يفعلوا اليوم.. فغداً، ولن أجد مَن يُجيرني؛ لن يَتجرَّأ أحدٌ من العرب على مُعاداة قريش.. لأجلي!!)، (فما العمل؟!! حتى وإنْ بقيتُ هنا.. إلى أنْ تفنى هذه المائدة؛ فلن تكفينا قِرْبَةُ الماء –أنا والحصان- أكثر من يومين.. أو ثلاثة!!).

خطر له وجه الفتى الأعرابي (أُوَيْس) وهو يتوسَّل أنْ يبقى معه؛ فتندَّم: (لِمَ أَصرَرتُ على رحيله؟!!)، وتعجَّب: (كيف يُؤْثِرني على نفسه.. بالماء كله؟؟ الماء.. وما أدراك ما الماء في تلك الصحراء؟! إنَّه الحياة! نعم.. إنَّه الحياة!!)، (ألا يخشى ذلك الفتى الهلاكَ عطشاً في حَرِّ الصحراء؟!! هل ثقته في عطاء الله أشدُّ مني؟!!).

رجع يتذكَّر أُوَيْسَ وحاله معه.. ويتأمَّل سَمْته وأخلاقه؛ فما اطمأنَّ له. وحدَّثته فراسته: أنَّه فتى لئيمٌ غادر.. وإنْ لم يظهر لُؤْمه في أفعاله.. ليلة

البارحة: (كان حريصاً على أَخْذِ حِمْلٍ عظيمٍ من اللحم.. بحجة أنَّ رحلته طويلة؛ ألا تحتاج تلك الرحلة الطويلة إلى الماء.. أيضاً؟؟!)، (ربما يعرف مكاناً قريباً فيه ماء!؟؟)، (كلا!! لا أَظُنُّ ذلك! لقد تحدَّث عن نفسه فقال أنَّه تائهٌ.. ضلَّ السبيل!!؟)، (وما يدريك أنَّه صادقٌ.. فيما قال؟؟!)، (قد أخبر عن نفسه فقال أنَّه صعلوك، وهل يخطو الصعلوك -وحيداً- في تلك الصحراء؟؟!)، (أنت –أيضاً- صعلوك؛ وها أنت ذا تخطو في الصحراء.. وحدك!!)، (مَهْ! قلتُ لك: لستُ.. صعلوكاً!!)، (صدقتَ! لكن.. ذاك الفتى الأعرابي.. كاذبٌ!!).

(كيف أُصدِّق أنَّه يؤثرني على نفسه بالماء.. وأغفل اللحمَ الكثير الذي اِستحوذ عليه؟؟! هل يخشى الجوع.. ولا يخشى العطش الذي هو أكبر؟؟! إنَّه لمُريبٌ؟!)، (هذا الفتى ليس ضالاً في الصحراء.. كما زعم، ولن يسافر في رحلةٍ طويلة؛ بل هو ينتقل الى مكانٍ قريبٍ.. أقرب من أنْ يحتاج إلى الماء في الوصول إليه!).

(فلماذا –إذاً- يُجشِّم نفسه هذا الحمل الثقيل من الطعام؟؟! قد يكون له رفقاء في ذلك المكان القريب!!؟ وربما حمل ذلك اللحم إليهم!!؟)، (وربما حين يخبرهم بأمر هذا الحوت.. يطمعون فيه، وقد يستقدمهم معه.. لينازعوني إياه!!؟)،

(ينبغي أنْ تأخذ حذرك.. يا أبا بصير!!).

*****

كربت[1] الشمسُ تغيب.. حينما بلغ الأعرابي (أُوَيْسُ) سفح الجبل.. الذي لم تستغرق رحلته إليه –ماشياً- أكثر من نصف يوم، ثم راح يصعِّد في شعابه.. التي هو بها عليمٌ، انقطعت أنفاسه.. صعوداً بحِمْله الثقيل؛ فوضعه عن ظهره،

[1] : كربت تغيب: أوشكت أنْ تغيب.

قعد على أقرب صخرة، وراح يلتقط أنفاسه.. وله طحير وزحير[1]، ثم تطلَّع إلى الأعلى؛ فلاحت له مغارةٌ، استجمع قواه.. وجهارة صوته، ثم نادى صارخاً: "طعـــام! طعـــــــام!!".

أشرف عليه رجلان.. أضخم منه جسداً وأفرع طولاً؛ خرجا من المغارة ووقفا –على فمها- يتأمَّلانه باندهاش، جعل يُلوِّح إليهما بيده: أنْ أقبلا إليَّ.. واحملا معي، أبصرا اللحمَ بين يديه؛ فانشدها فرحاً وسروراً.. وهرول أحدهما هابطاً إليه، فيما صاح الثاني بثالثهما الراقد في جوف الغار.. قائلاً بنبرةٍ مُشبَّعةٍ بالاستغراب والتَعجُّب:

- لَعَمْرُك.. قد عاد الخبيثُ.. بطعامٍ!!

ثم جرى –إلى الطعام- خَلْف صاحبه، حملا معه بيدٍ.. واليد الأخرى ضارعةٌ إلى السماء تدعو له بالرحمة والبركة، صعدوا.. ودلفوا إلى الغار، استقبله الرجل الثالث بوجهٍ طَلْق.. وعيون مُحملِقةٍ مُتعجِّبةٍ، أومأ إليه أُوَيْسُ بتوقير.. وحادَثه:

- ها أنا ذا.. قد فزتُ.. يا مأوى الصعاليك!
- .....
- كنتُ أعلم أنَّك واسع الحيلة.. يا أُوَيْس! لكن.. كيف حصلتَ على هذا الطعام.. بهذه السرعة؟؟! (جأر أحد الصاحبين)

بينما الثاني يُقلِّب قطعة اللحم بين يديه.. مُذبذَباً بين الفرحة والدهشة، و(مأوى الصعاليك) –ثالثهما- ساكتٌ.. لا ينطق؛ فاستطرد أُوَيْس.. يجادله:

---

[1] : الزحير: صوت النفس عند المشقة والتعب.. والطحير: صوت الصدر عند المشقة وهو فوق الزحير.

- أيا مأوى الصعاليك!! هل ترى –الآن- أنّي جديرٌ بالانتماء إلى جماعتك؟؟

- أجل! أحسنتَ صنيعاً.. يا ضَبُّ[1]!!

أجابه باقتضابٍ، ثم أردف بنبرةٍ آمرة صارمة:

- هيا.. أَعدُّوا لنا الطعام؛ كاد الجوع.. يُهلِكنا!

بأشدِّ من عَضَّة الجوع لأحشائهم.. راح ثلاثتهم يُعِدُّون الطعام ويطبخونه، فيما (مأوى الصعاليك) –واسمه الحقيقي: الصَعْصَعَة بن عامر- مُنتبِذٌ عنهم.. مشغولٌ بزِقِّ خمرٍ بين يديه.

اجتمع الأربعة نفر.. -والصمت.. والانتقام من الجوع- على الطعام، فلا تسمع حِسّاً إلا لأيديهم وهي تتسابق في تمزيع اللحم.. وأنيابهم وهي تنهشه.. وحُلُوقهم وهي تتلهَّف لابتلاعه قبل أنْ تمضغه الأضراس، أكلوا.. وأكلوا.. وكبسوا الطعام في أمعائهم كبساً.. حتى كاد يخنقهم، ثم انقلبوا إلى الخمر.. يَعُبُّونه عَبّاً، ثم التفت إليه الصَعْصَعَةُ –وهو رئيسهم- وسأله.. بنبرةٍ يشوبها التهكُّم:

- الآن.. خَبِّرنا –يا ضَبُّ- كيف وقعتَ على.. هذا اللحم الطري؟؟!

---

[1] : أطلق هذا الاسم عليه بدلاً من اسمه الحقيقي "أويس" الذي يعني: الذئب.. تشبهاً له بحيوان الضَبِّ.. استخفافاً به، والضب: حيوان من جنس الزواحف من رتبة العَظَاء "السحالي"، غليظ الجسم خَشِنُه، وله ذَنَبٌ عريضٌ حَرِش أَعْقَدُ، يكثر في صحراء الجزيرة العربية.

أشاح أُوَيْسُ بوجهه عنه كيلا يلحظ امتعاضه العابر من نعته بالضَبِّ؛ فهو يكره تحقيرهم لشأنه وسخريتهم منه ومن هزال جسمه وضعف قوته، فضلاً على أنَّه يظنُّ –في نفسه- أنَّه أدهى من ثلاثتهم أجمعين.. وأوسع حيلة.

سرعان ما عاد فالتفت إليه بوجهٍ يَتقنَّع بالتوقير والود، وأجابه بمداهنة:

- دفعني إليه حرصي على أنْ أرجع إليكم وأنا خليق بصحبتك.. يا سيدي؛ فاجتهدتُ في البحث عن طعامٍ يليق بكم.. حتى عثرتُ عليه!!
- بهذه السرعة؟!! لم يمض يومٌ وليلة.. على مفارقتك لنا؛ إنَّك لذو حظٍ حسن!!

علَّق أحد الرجلين -واسمه: ربيعة-، في حين.. سأله الآخر –واسمه: الصِمَّة- بصوتٍ مُنكَر:

- وما الذي عثرتَ عليه.. يا محظوظ؟؟!
- حوتٌ ضخمٌ –لم أر له مثيلاً- وجوادٌ مُسْرَج.. تحت يد رجلٍ أحمق حَريٍّ بأنْ يُقتَل بسيف -مأوى الصعاليك- سيدنا: الصَعْصَعَة بن عامر!!

انتشى الصَعْصَعَةُ بهذا الإطراء.. وانفرجت له أساريره.. وتساءل باهتمامٍ:

- أين هذا الأحمق.. يا أُوَيْس؟؟!
- قريبٌ.. يا رئيسنا! عند سيف البحر.. مسيرة نصف نهار!
- إذاً!! انطلق بنا إليه.. في الصباح!

*****

صاح[1] الفجرُ.. والذُؤْبان الأربعة يغذُّون السَّيْر متسلِّلين إلى سيف البحر حيث الغنيمة المنشودة؛ مَطِيَّتُهم أملٌ بَرّاق في دَرْء الجوع –ولو إلى حين-، مُتسلِّحين بسلاحٍ قليل –هو كل ما يملكون-: (خنجر أُوَيْس.. سيف الصَعْصَعَة ودرعه.. قوس ربيعة وبضعة أسهم.. وسيف الصِمَّة)، على أنَّ أُوَيْس أكدَّ لهم أنَّ الغنيمة باردةٌ.. وصاحبها ضعيفٌ هَيّن.

مَشوا إلى أنْ أجهدهم السَّيْر، تَقَلَّص ظِلُّهم على الأرض، وشارف على الزوال حينما لاح لهم الحوتُ.. من بعيد: مائدةٌ عظيمة من اللحم البحري الطري.. مطروحةٌ على الشاطئ لتُغري كل عابرٍ -عضَّه الجوع- بالمُكُوث والاقْتِيات[2]، ابتهج أُوَيْس.. وهمس مُشِيراً صوبها: "الحوت.. يا مأوى الصعاليك!".

تَوَقَّفوا مُتطلِّعين إليها.. تَطَلُّع ضباعٍ مُتربِّصين بفريسةٍ أوشكوا على اقتناصها، تَجوَّل رئيسهم (الصَعْصَعَة) ببصره حول المكان، ثم تساءل:

- أين الحصان.. وصاحبه الأحمق؟؟! لا أثر لهما!!؟
- لا ريب.. هو قريبٌ من هنا!! (أجابه أُوَيْس.. بيقين)
- إذاً.. نتربَّص حتى يظهر لنا؛ فنأخذه.. على غِرَّة!

توَشَّحوا بالصبر.. واستتروا وراء كثيب رمل، وما برحت عيونهم تراقب وليمة البحر ونِطاقها.

مرَّت ساعاتٌ بطيئة –ظَنُّوها طويلة- كابدوا فيها حرارة الشمس الحارقة وأجواء البحر الخانقة، تسرَّبت السآمة إلى قلوبهم.. فصاح ربيعة مُتضجِّراً:

- إلى ما الانتظار؟؟ ماذا لو كان رحل.. قبل أنْ نأتي؟؟!

---

[1] : صاح الفجر: أضاء نوره.

[2] : اِقْتات الشيء: اتخذَّه قوتاً.

أجابه أُوَيْس بنبرةٍ حَذِرةٍ:

- لن يرحل بهذه السرعة؛ نَتريَّث.. قليلاً! أخشى.. أنْ يكون كامناً لنا!!

ضحك الصِمَّة مُتهكِّماً.. وزجره ساخراً:

- إنَّك جبانٌ.. أيها الضَّبُّ! كيف يكمن لنا.. وهو لا يعرف بقدومنا؟!!

علَّق الرئيس (الصَعْصَعَة) على تجادلهما.. قائلاً:

- صدقتَ.. يا صِمَّة! وإنّي قد مَللتُ الانتظار!

ثم أردف: "خُذْ ذاك الضَبَّ معك، وعاينا الحوت.. عن قرب! وسأراقبكما أنا وربيعة.. من هنا!".

هرع الصِمَّة إلى الحوت مُتجرّئاً مُنتشياً.. يتبعه أُوَيْس مُحاذِراً مُتوجِّساً، طفق يَحوم حول دابة البحر فَرِحاً بالغنيمة الباردة، وضع سيفه عن عاتقه.. وجثا إليها على ركبتيه، جعل يحتضنها ويتحسَّس لحمها الطري، سال لعابه اشتهاءً لها؛ فحادَث أُوَيْس الذي يقف خَلْفه يَفرُك يديه.. قلقاً من غياب الرجل الغامض: (كيف.. لا أثر له؟!! لا آثار لأقدامه.. ولا أقدام الحصان؟!! أين مظلته؟! أين حفرة النار؟! أين بقايا الطعام؟! أين رَوْث الحصان؟! إنْ كان رحل من تلقاء نفسه؛ فلِمَ محى آثاره؟؟! أمرك مريبٌ.. يا عتبة!؟).

هتف الصِمَّة –دونما يلتف-.. وهو يتلذَّذ –مشغولاً- بلَعْق بَدَن الحوت:

- هَلُمّ.. نَجُزُّ منها.. ونَتَغَذَّى، قد جُعنا.. طويلاً؛ وآنَ لنا أنْ نشبع!!

- إنّي أتوجَّس: كيف رحل.. بهذه السرعة؟!! إنَّه...

لم يكد يستكمل كلماته.. حتى قاطعه صوتٌ صارمٌ يُناديه من خَلْفه:

- قد علمتُ.. أنَّك ستعود.. أيها اللئيم!!

التفت؛ فبُغِتَ بضربةٍ شديدةٍ بمقبض سيفٍ فوق رأسه؛ خَرَّ منها فاقداً الوعي، حالما نظر الصِمَّة وراءه.. ليشاهد –مبهوتاً- ما حدث في لحظات، ويُبصر صاحبه يسقط على بُعد خطواتٍ منه.. بين يدي رجلٍ جسيمٍ مُخيف الطَّلْعَة، خفَّ إلى سيفه يريد التحصُّن به.. مُغمغِماً: "متى انشقت الأرض.. عن هذا الشيطان؟!!".

تهاجما، ووثب الصِمَّة لينقضَّ –بكل قوته- ويَهوِي على غريمه بضربة سيفٍ فاتكة؛ تلقَّاها أبو بصير على سيفه.. وردَّها –في لمح البصر- بأشدَّ منها.. تفادها الصِمَّة بسيفه، وإخْتَلَّ -لشِدَّتها- توازنه.. وارتجف قلبه، على أنَّه تماسك واستمسك بشجاعته.. وأعاد الكَرَّة على خصمه.
تصاولا برهة.. اهتز فيها الصِمَّة وتسلَّل اليأس -من النجاة- إلى قلبه، وتمنى لو يَنْجُده أحد أصحابه قبل فوات الأوان، لم يخيِّب ربيعة رجاءه؛ رفع سهماً إلى قوسه.. وسَدَّده –من بعيد- إلى ظهر أبي بصير، لكن.. انحرف السهم قَيْد فِتْر[1] عن كتفه.. ووقع –جوارهما- في الأرض.

تفاجأ أبو بصير بوجود ثالثٍ يرميه من ظهره، وتشجَّع الصِمَّة.. ليشدَّ عليه، لكنَّ أبا بصير ثَبُتَ.. ولم يُمهِلهما؛ انحرف.. وضرب الأرضَ بقدمه.. ناثراً الرمال في وجه مقاتله، وبركلةٍ سريعةٍ أسقط السيفَ من يده، وقبل أنْ ينتبه إليه.. وثب عليه وقيَّد ذراعيه خَلْف ظهره.. بيده الحرة، وطوَّق رقبته بذراعه المُمسِكة بالسيف،

---

[1] : الفِتْر: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتهما.

تَمكَّن منه وأجبره على مواجهة جهة الرامي.. مُتترّساً به قبل أنْ يرميه ربيعة بالسهم الثاني الذي أخطأ هدفه أيضاً، عجز الصِّمَّة عن التملُّص من قبضة خصمه؛ وأَيْقن أنَّه تَملَّكه.. وأنَّه قاتله؛ فصرخ مستغيثاً.. بصوتٍ مخنوق: "النجدة.. النجدة!!".

خبط الصَعْصَعَة على كتف ربيعة موحياً إليه: أنْ أمسك عن الرمي، وانبرى –واقفاً فوق كثيب الرمل- مُنادياً بصوتٍ جهوري.. ردَّده الفضاء حواليهم: "أبا بصير!! مَهْ.. أبا بصير!"، تعجَّب ربيعة: (كيف عَلِم.. كُنْيَته؟؟!)، ورنا أبو بصير إلى صاحب الصوت.. مُندهِشاً: (مَن ذا.. الذي يعرفني بكُنْيَتي؟!)، أحكم قبضته على أسيره.. مُتطلِّعاً إلى صاحب الصوت.. مُنقِّباً في ذاكرته عن صوته وصورته، رآه يُلوِّح بسيفه.. ثم يَغرِزه في الأرض ويرفع يديه عزلاوين، ثم يجذب رفيقه (ربيعة) ليبرز معه، وينزع منه القوس والكنانة ليطرحهما أرضاً.. كمَن يُطمئنه ويُسكِّن غضبه، ثم يناديه.. صائحاً بصوتٍ ودود:

- يا أبا بصير!! أنا صاحبك القديم: الصَعْصَعَة بن عامر! أُكْفُفْ سيفك عن صاحبي، وذَرْني أدنو منك.. أُكلِّمك!؟؟

تذكَّره أبو بصير؛ غير أنَّه لم يُطلِق الأسير.. وإنْ كانت حِدَّته قد هدأت يسيراً، أقبل الصَعْصَعَة وربيعة عليه.. بدون سلاح، اقتربا حتى وقفا أمامه، واستوثق كلٌ منهما أنَّهما الصديقان القديمان، بادهه الصَعْصَعَة.. قائلاً بلينٍ وإشفاق:

- أمسك شَرَّك عنا.. يا أبا بصير؛ فو الله.. لا يُصيبك منا ما تكره! ولو كنتُ أعلم أنَّك صاحب هذا الحوت؛ ما جئتُك.. إلا ضيفاً مسالماً، فلا تبتئس.. وأكرم نزلنا!!

على وجلٍ وحَذر.. رنا إليه أبو بصير.. دونما يجيبه، ثم فرَّق بصره على أصحابه مُتفرِّساً فيهم، ثم قذف بصاحبهما الذي في قبضته إليهما، ثم أغمد سيفه.. هاتفاً: "مرحباً.. بكم!!".

*****

بدأ الصِّمَّة يستعيد أنفاسه التي كادت تختنق، ثم استأذن أنْ يستعيد سيفه؛ فأذن له، جعل الصَعْصَعَة يرنو إليه بإعجاب.. ثم مدَّ إليه يده ليصافحه؛ تصافحا.. وربت على كتفه هاتفاً:

- مضى زمنٌ طويل.. يا أبا بصير! اختلف شكلك عن الأيام السالفة؛ لكني عرفتُك.. من قتالك!!
- أجل.. يا صَعْصَعَة! لم نلتقِ.. منذ سنين!!
- أحسب أنَّها.. عشر سنوات!
- إنْ أردتَ أنْ تحصيها؛ فهي تقارب خمس عشرة سنة.. مذ فارقتُ ثقيف والطائف!

قاطع ربيعة حديث الذكريات.. مُتسائلاً بتكدُّرٍ:

- قتلتَ صاحبنا.. يا هذا؟؟!
- كلا!! انظر إليه؛ إنَّه.. فاقد الوعي!

رجع ربيعة إلى أُوَيْس، انحنى إليه.. ليطمئن عليه؛ فألفاه صحيحاً.. يتظاهر بالإغماء، همس مُوبِّخاً: "تباً لك.. يا جبان!"، ابتسم بلامبالاة.. ولم يجبه، ثم قام معه، بينما تنحَّى الصَعْصَعَة بأبي بصير.. ليجلسا.. ويستعيدا حديث الذكريات، وتبعهما الصِمَّة.. مُنكَّس الرأس مُتجهِّماً.

لحق بهم ربيعة يسوق أُوَيْسَ بين يديه، يوبِّخه ويَذُمُّ جبنه وتقاعسه، قهقه الصَعْصَعَة وهو ينظر إليهما، ثم قال.. مُتهكِّماً:

- لِما لم تقتل هذا الجبان وتُريحنا منه.. يا أبا بصير؟؟

ناكفه أُوَيس.. متجاوزاً عن استهزائهم به.. وهتف:

- اسمه: عتبة.. يا مأوى الصعاليك، هكذا.. أخبرني!

- إنَّه: أبو بصير.. عتبة بن أسيد بن جارية الثقفي، هو رفيق الصِبَا.. أيها الضَّبُّ الجبان!

وجأر الصِمَّة بنبرة تحسُّرٍ مُصطنَعة:

- ليت شعري.. لماذا لم يقتلك هذا الفارس الشهم؛ فإنَّك لم تغن عني شيئاً؟!!

التفت الصَعْصَعَة إلى أبي بصير.. متسائلاً -مرة أخرى- بإكبار:

- قد شاهدتُك؛ فاصدقنا القول: لماذا لم تقتله.. وأنت قادرٌ عليه؟؟!

سكت أبو بصير هنيهة، ثم هتف بصراحةٍ.. وهو يرمق أُوَيْس بنظراته:

- لَعَمُرك.. استحييتُ أنْ أقتله؛ وما زلتُ أشرب من الماء الذي آثرني به على نفسه، بينما طردتُه أنا.. ونفرتُ منه!

علَّق ربيعة على الكلام.. ذامّاً أُوَيْس ومُوضِّحاً دناءته.. بنبرة مِزاح:

- قد خدعك! إنّي أعرف هذا الطمَّاع الماكر جيداً؛ وأحسب أنَّه ما ترك لك الماء إلا ليُثبّتك مكانك.. ويضمن أنَّك مقيمٌ فيه.. حتى يعود بنا؛ فنسلبك حصانك، لم يكن ليكتفي بالحوت!!
- وإنْ كان!! فقد حفظتُ له.. معروفه!

جأر الصَعْصَعَة.. مُثْنِياً:

- إنَّك شهمٌ كريم -كما عهدتُك-.. يا أبا بصير! لكن.. أين الحصان؟؟!
- لا تجزع! لم يزل في حوزتي!!

ثم هتف الصِمَّة.. مُنزعجاً:

- تالله.. قد أعيانا الجوعُ؛ ألن تُطعِمنا.. من مائدتك.. يا أخا العرب؟!

فأجابه أبو بصير.. بِتَرْحَاب:

- إنْ شئتم.. فاصنعوا طعاماً!!

توجَّه الصَعْصَعَة إلى أُوَيْس.. آمراً: "اذهب.. فاطبخ لنا طعاماً.. يا ضَبُّ؛ فإنَّك.. لا تُحسن غيرها!!"، ثم أردف مُشافهاً ربيعة بنبرةٍ ألين:

- ولتعاونه.. يا ربيعة!!

*****

لم ينعموا بظِلٍّ يُجيرهم من حرارة الشمس؛ فوَاصَلتْ إيذائهم.. وهم يتناولون الطعام الذي أحسن أُوَيْس طَهْيه، تَبرَّم الصِمَّةُ مُتألِّماً من ذراعه.. وهو يَمُدُّها إلى الطعام، ثم هتف.. بملامةٍ مُغلَّفةٍ بالمَدْح:

- لله دَرُّكَ.. أيها الفارس! إنَّك.. لشديد؛ لقد كدتَ.. تكسر ذراعي!!
- عذراً.. يا أخا العرب! جئتم متسلِّلين؛ فكنتم أعداءً!

- والحين.. أصبحنا أصدقاء!؟؟

جأر بها أُوَيْس مُمازحاً.. حالما تساءل الصَعْصَعَة باندهاش:

- إنَّما أتعجَّب: كيف علمتَ بقدومنا؟! وأين كَمَنتَ لنا؟؟!

يتبسَّم أبو بصير -قبل أنْ يجيبه.. مُشيراً إلى أويس- ثم يقول:

- حينما آثرني صاحبكم المخادع.. بالماء على نفسه، شكرتُ صنيعه في نفسي، لكن.. حينما تفكَّرتُ في أمره؛ تَوقَّعتُ منه أنْ يعود بأمثالكم.. ليفعلوا ما فعلتم؛ فاحتطتُ لنفسي!

- إنَّك.. شجاعٌ.. ذو فراسة!!

جأر بها ربيعة.. مُعجَباً، فأقرَّه الصَعْصَعَة: "أجل.. إنَّه كذلك!"، ثم استطرد:

- وإنّي كما عجبتُ منك؛ أعجب -أيضاً- من الضَّبِّ: لماذا كان مُتيقِّناً أنَّك كامنٌ لنا.. ولم ترحل؟!!

فأجاب أُوَيْس.. مَزهُوّاً بفراسته ودهائه:

- وأنا –كذلك- حين تفرَّست فيه.. علمتُ أنَّه فارسٌ مجرب.. صاحب حيطةٍ وحذر؛ وأيقنتُ أنَّ مغالبته.. ستكون عسيرة!!

احتج عليه الصِمَّة.. مؤنِباً:

- قد كذبتَ –إذاً- عندما أغريتَنا به قائلاً: أنَّه أحمق.. هَيِّنٌ.. ضعيف!

تحرَّج أُوَيْس.. واضطرب خشية أنْ يحنق عليه أبو بصير لنعته إياه بالأحمق؛ بيد أنَّه تمالك جَأْشه.. واستدرك:

- بل.. هو –كما رأيتم- محاربٌ فَطِنٌ.. جَرِيء، وقد أردتُ لكم الطعام؛ وها أنتم أولاء.. قد حصلتم عليه!!

زفر ربيعة زفرة تَغيُّظ، وهتف.. ضاغطاً على أسنانه وكلماته:

- أشهد: أنَّك داهيةٌ.. خبيثٌ.. يا أُوَيْس!!

ثم تساءل الصِمَّة.. مُتحيّراً:

- لكن.. أين كَمَنَتَ لنا.. أيها الفارس؟! ليس ثَمَّةَ ما يُستتَر به!!
- بَلَى!! انظر خَلْفك.. بعيداً؛ هناك أَيْكةٌ.. عظيمة الجِذع والأغصان، ويتوارى حصاني عندها الحين!!

التفتوا –جميعاً- حيث أشار؛ فألفوا الأَيْكة النائية التي يُطعِم من ورقها حصانه، جأر ربيعة.. مُستعظِماً بُعدها على الرائي:

- إنَّها بعيدةٌ جدا؛ كيف كنتَ تَرقُب.. مع بعد المسافة؟؟!

فزاده أبو بصير.. مؤكِّداً:

- وألوم نفسي: أنّي لم أركما.. تستتران وراء الكثيب!!
- وأنا –أيضاً- أَتعجَّب كيف مرقتَ من أمامي.. كل هذه المسافة –من الشجرة إلى البحر- ولم أرك؟!!

أضاف ربيعة مُنْبهِراً؛ فنَهَرَه رئيسه (الصَعْصَعَة)، وهتف.. مادحاً أبي بصير:

- ويحك.. ربيعة! لهذا لُقِب: أبا بصير! إنَّه.. أبو بصير: العينُ.. عينُ صقر، والركضُ.. ركض فهد، والصدرُ.. صدر ثور، والزَّنْدُ.. زَنْد أسد!!

صفق الذؤبان استجابةً لمديح رئيسهم إياه.. وصاحوا:

- مرحى.. مرحى.. أيها الفارس الفَذّ الهُمَام!!

******

سكتوا.. مُنكبين على الطعام، بيد أنَّ السؤال ما انفك يُلِحُّ على ذهن الصَعْصَعَة.. مذ التقيا؛ فبادره به.. مُتعجِّباً:

- لماذا أنت هنا.. يا أبا بصير؟!! لماذا تركتَ مكة.. وما رجعتَ الطائف؟
- غبنني[1] حليفي الزهري.. وأكل مالي؛ ولا أحب أنْ أعيش في دار الذِّلَّة!
- أصبتَ!! ومنذ متى.. وأنت تحيا في هذا العراء؟!!
- ما عدتُ أحصي الأيام!!
- ألا تذكر؟؟ رفضتَ دعوتي –قديماً- بحجة أنَّك تطمح أنْ تعيش شريفاً كريماً.. لا صعلوكاً؛ وها أنت ذا أصبحتَ صعلوكاً مُشرَّداً!؟
- هل أنت شامتٌ.. يا صَعْصَعَة؟؟!
- حاشاني أنْ أشمتُ فيك.. يا أخي! بل أبسط إليك يدي، وأُجدِّد دعوتي لك؛ فإنْ شئتَ.. ضَممتُك إليّ؟؟!
- وما أنتَ.. يا صَعْصَعَة؟!!

تساءل.. مُستخِفّاً بحاله؛ فجاوبه أُوَيْس بأنفةٍ.. مُمجِّداً رئيسه:

- هو.. مأوى الصعاليك.. ونصيرهم! يأبى أنْ يبيت شبعان.. ورجل من صعاليكه جوعان، وإنْ كان عروة الصعاليك[2].. قد مات؛ فإنَّ الصَعْصَعَة بن عامر.. لم يزل حيٌّ!

---

[1] : غبنه: خدعه ونقصه حقه في البيع والشراء.

[2] : هو عروة بن الورد العبسي: من صعاليك العرب في العصر الجاهلي المعدودين شجاعةً وجوداً، وكان شاعراً، كان يجمع الصعاليك والفقراء ويقوم بأمرهم ويرعى أحوالهم.. إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش، وكان يقسم مغانمه بينهم بالتساوي ويجعل لنفسه نصيباً كفردٍ منهم؛ ولذلك لقَّبوه: عروة الصعاليك.. وأبو الصعاليك.. وأمير الصعاليك، قيل أنّه مات قبل بعثة النبي محمد بخمس سنين.

وأردف الصِّمَّة.. مُشيداً بكرم رئيسه:

- لا أنسى –منذ أسابيع قليلة- حين اجتاحنا الجوع.. وكاد يُهلِكنا.. ولم نجد ما نقتات به؛ لم يتردَّد الصَعْصَعَة.. ولم يتوان في ذبح حصانه ليُطعِمنا ويَسِدّ مجاعتنا، وقد كان ذلك الحصان أعز عليه من ولد، وكان –ساعتئذ- هو كل ما يملكه.. الصَعْصَعَة!

أجابهم أبو بصير.. مُكلِّماً الصَعْصَعَة.. بنبرةٍ مُشبعةٍ بعاطفة الصداقة السالفة:

- لطالما.. كنتَ مُعجَباً بأخبار عروة الصعلوك، وكم كنتَ تحب أنْ تتشبَّه به؛ غير أنَّك لستَ شاعراً!!

كان الصعصعة – مُتكئاً في جِلسته- مزهواً بإطراء أصحابه، فلَمّا أحس بإهانة للصعاليك في طيَّات كلام أبي بصير؛ جلس.. وصاح مُدافِعاً عنهم:

- لا تَحْقِرَنَّ الصعاليك.. يا أبا بصير! إنَّما الصعلوك: فارسٌ مغامرٌ.. ثائرٌ على الظالمين من أشراف قبيلته، مُبغِضاً للبخلاء من أغنيائهم، الصعلوك: رجلٌ أَبِيٌّ.. يأنف الذِّلَّة؛ ويُفضِّل أنْ يموت جوعاناً على أنْ يَشبع ذليلاً!
- دع هذا.. يا صَعْصَعَة! الصعاليك لصوصٌ مجرمون؛ يُغيرون على الآمنين، وينهبون.. ويسلبون ما لا حق لهم فيه!!؟

اكفهر وجه الصَعْصَعَة غضباً.. وضرب بيده في الهواء حانقاً.. وأجابه: "لو غيرك قالها –يا أبا بصير- لأجبتُه بسيفي!!"، ثم أردف بنبرةٍ أهون حدة:

- الصعاليك.. شجعان أقوياء.. يغامرون بحياتهم لغرضٍ نبيل؛ ألا وهو: مسح دموع البائسين وإطعام الجائعين.. بالسطو على أموال الأغنياء البخلاء.

- .....

- الصعاليك –يا صاحبي- أصحاب أنفة؛ يسلبون ولا يستجدون اللئام، يصبرون على الجوع مهما يبلغ بهم الجهد.. حتى يغنموا قُوْتهم بسيوفهم، ويتشاركون الأسلاب.. ويتقاسمون الغنائم.

- وَيْهَا.. يا صَعْصَعَة! أنت حكيم الصعاليك.. لا مأواهم!!؟

علَّق أبو بصير؛ فيما أضاف أُوَيْس -مستاءً من سخرية أبي بصير- مُعضِّداً رأي رئيسه.. مُتحدِّثاً عن نفسه:

- أَحَب إليَّ أنْ أكون صعلوكاً من أنْ أعيش خاملاً متكاسلاً.. قانعاً بالكفاف، أو أجلس حول المجازر لأستجدي عطايا الناس.. أو ألتقط النفايات؛ فأملأ بطني بالذِّلَّة، وأنام ملء جفوني.. ثم أقوم لأخدم نساء الحي!

وأردف الصِّمَّة.. هاتفاً باعتزاز:

- نحن نَقتصُّ للفقراء الضعفاء.. من الأغنياء البخلاء! فأنعم بصعلوكٍ شجاع مخاطر؛ إنْ قُتِل.. كان مشكوراً مذكوراً بالجرأة والشجاعة، وإنْ غنم.. كان بالغنيمة جدير، وبئس الرجل.. واهن العزم الذي لا يعنيه إلا أنْ يأكل ويشرب.. ثم يعيش في ذُلٍّ وهوان!!

ثم أضاف ربيعة.. مُتحذلِقاً[1]:

---

[1] : تحذلق: تكلَّف وتصنّع.. مُدَّعياً العلم.

- إنَّ المالَ.. مال الله؛ فهو حقٌ للناس جميعاً: الغني منهم.. والفقير، فليأخذ منه الصعاليك ما يشاؤون! وإنّي لأخجل من الله أنْ أَجُرَّ حبلاً بغير بعير، وأنْ أسأل اللئيم الشحيح بعيراً.. ولله الإبل كلها وهي كثيرة، وإنّي لأبغض الأغنياء.. حتى أنَّي آنس إلى عواء الذئب.. وأفزع من صوت الرجل الغني!!

*****

سكت أبو بصير.. أمام ما رشقوه به من دفاعٍ عن الصعاليك، وأَعْرَض عن الجدال معهم؛ فلن يفيد.

فلَمَّا سكت؛ ظَنَّ الصَعْصَعَة أنَّهم أقنعوه برأيهم.. واستمالوه إليهم؛ فأعاد العرض -مرة أخرى- هاتفاً:

- والآن!! هَلَّا.. انضممتَ إلينا.. يا أخي؟؟!

فبادر أُوَيْس هامساً في إذنه.. كأنَّما يثنيه، بيد أنَّ الصَعْصَعَة صاح بإصرار:

- لا غضاضة عندي في هذا؛ لكلٍ منا ربه، وليعبد أحدنا ربه.. كما يشاء.. على أي دينٍ شاء!

حدج أبو بصير أُوَيْس.. بارتياب، ثم نظر إلى الصَعْصَعَة باستغراب.. كأنَّما يسأل عما هُمِس به، فأجابه الصَعْصَعَة.. بعدم اكتراث:

- يزعم هذا الضَّبُّ.. أنّك على دين محمد بن عبد المطلب!!؟

انشده أبو بصير: (كيف لهذا الفتى أنْ يعلم أنّي مسلم؟!! تُرى.. هل رآني وأنا أُصلي أول البارحة؟!! تُرى.. هل كان يُخادعني –ليلتئذ- ويتظاهر أنَّه نائمٌ.. بينما كان يراقبني..

ويتجسَّس عليَّ؟؟! يا له.. من ماكر!!)، على أنَّه.. لم يتوقَّف كثيراً عند مكر أُوَيْس؛ وإنَّما تدارك وصدح.. دون مُوَارَبة:

- لا أُنكره! ولأجل هذا.. فارقتُ قومي.. ومالي!!
- لا تثريب عليك.. يا ابن العم! اختر الدين الذي تحب؛ لا شأن لنا بذلك، وإنّي أحب أنْ تَنضمَّ إلينا؛ فماذا ترى؟؟!

طأطأ أبو بصير مُتفكِّراً: (أ بعد صحبة النبي وأصاحبه.. أرجع فأُصاحب الكفار؟!!)، (فأين أذهب؟! قد ضاقت بي الدنيا، وجوار هؤلاء.. خيرٌ من جوار كفار مكة؛ فإنَّهم.. لا يعادون النبي وأصحابه!!)، ثم رفع رأسه إلى الصَعْصَعَة.. قائلاً:

- لكني.. أشترط: ألا أعمل عملاً.. يخالف ديني!!؟
- أ تشترط عليَّ -يا أبا بصير- وأنا.. أنا؟؟! لك.. ما تريد، ولكني.. أشترط أنا.. أيضاً!!
- وما.. شرطك؟؟
- أنْ تَهبني.. حصانك!؟؟
- هو.. لك!!

*****

تعاهدوا على انضمام أبي بصير إليهم، وعلى إمضاء شرطه: ألا يُكرهوه على مخالفة دينه، وشهدوا أنَّ الحصان صار مِلْك رئيسهم (الصَعْصَعَة)، وتَعهَّد أبو بصير بطاعة الرئيس.. فيما لا يخالف دينه، وأنْ يشاركهم الجوع والشبع، وأنْ يتقاسم معهم الغنيمة والأسلاب.

ثم قصدوا إلى الأَيْكة.. حيث خلَّف أبو بصير الحصان ليعاينوه، وفيما يتفحَّص الصِمَّة الحصان.. كأنَّه يثمِّنه لمشتري.. قال الصَعْصَعَة:

- أ رأيتَ –يا أبا بصير- إنْ لبثنا إلى جوار هذه المائدة نهاراً؛ نطعم منها، ونجعل منها وَشائق[1].. نَدَّخرها لقابل الأيام، ثم ننقلب إلى مأوانا مساءً.. آخذين معنا ما قَدَّدناه، وهكذا.. حتى نُجهِز عليها؟؟!
- كنا سنفعل.. بعد أنْ نقتلك! (صدح أُوَيْس.. مازحاً)

حدجه الرئيس بنظرةٍ زاجرة؛ فأسكته، والتفت إلى أبي بصير.. مُرتقِباً جوابه، فأجابه أبو بصير مُستفهِماً:

- وأين تَأْوون.. يا صَعْصَعَة؟؟
- غار.. في جبلٍ قريبٍ من العيص[2]؛ مسافة نصف نهار.. أو أقل!
- الرأي.. كما أشرتَ؛ فلنفعل.. ما تحب!
- مرحباً بك.. في مأوى الصعاليك.. أبا بصير!

*****

عكف الصعاليك الخمسة -أياماً- على الحوت الضخم، يغدون صباح يومٍ.. فيطعمون منه.. ويُقدِّدون منه وَشائق مُدَّخَرة، ويروحون.. مساء اليوم التالي –إلى مأواهم بالجبل- يحملون قديدهم ووَشائقهم.. حتى أفنوه.. وتلاشى كل أثرٍ له على الشاطئ.

---

[1] : مفردها: وَشِيقَة.. وهي لحمٌ يقدَّد حتى يَيْبَس، ويُحمَل في الأَسفار، وهو أبْقَى قَدِيد.

[2] : قرية تقع في شمال غرب المدينة المنورة، على طريق تجارة مكة المتجه إلى الشام، وتحيط بها الجبال من معظم الجهات.

في تلك الأثناء.. إرتدّ الفتى (كوثر) إلى مكة.. يبكي وينتحب.. ويحثو على رأسه التراب.. ناعياً سيده (خنيس بن جابر) إلى سادة بني عامر، استفهم منه حويطب بن عبد العزى عن الخبر؛ فحدَّثه بما كان من أبي بصير.. وجعل يندب ويصيح: "غدر به أبو بصير، قتله.. غيلة!".

بلغ النبأ سهيل بن عمرو؛ فأقام الدنيا.. وما أقعدها، وهَمَّ بالأزهر بن عبد عوف الزهري (حليف أبي بصير).. ووبَّخه، وصرخ في بني زهرة.. مُبكِّتاً: "حليفكم الصابئ.. قتل أخانا العامري!!"، ثم إلتجأ إلى صحن الكعبة.. وأسند ظهره إلى جدارها.. وأقسم قائلاً: "لا أقوم.. حتى يُدَى[1] الرجل!!".

علم أبو سيفان بن حرب بالخبر.. وبما كان من سيد بني عامر؛ فخالفه.. وقال: "والله.. لا يكون هذا أبداً!!"، وتجادل القوم وتصاخبوا.. واتهم بعضهم بعضاً، حتى إذا هدأت فورة سهيل.. وثاب إلى حكمته وحلمه؛ امتثل لرأي زعيم قريش.. مُتوعِّداً أبي بصير إنْ قدر عليه.

**********

---

[1] : أي: تُعطَى ديته.

# -الفصل الرابع-

أَوَى أبو بصير إلى مأوى الصعاليك: الصَعْصَعَة بن عامر؛ رجلٌ من أقرانه –أو يكبره بأعوامٍ معدودة-، قَضَيا معاً أيام الصِبَا والفُتُوَّة.. في بادية الطائف، تعلما معاً الفروسية وفنون القتال، يعرفه –منذ صِباه- مُولعاً بأخبار الصعاليك والمغامرين، حَالِماً بأنْ يصبح زعيماً للصعاليك.. مثل: عروة بن الورد العبسي.

والمَغَارَة: هي كهفٌ مستور، أو بيتٌ نقرته الطبيعة في تجويف جبلٍ -من جبال العيص- قريبٍ من سيف البحر.. على طريق القوافل إلى الشام، أَحسن الصَعْصَعَةُ اختيارها ليأوي إليها.. وصعاليكه، ويتيسَّر لهم الانطلاق منها لشَنِّ الغارات، وعلم هو منهم: أنَّ الصعصعة يعتبرها بيته ومنزله.. ولا يقبل أنْ يُنازعه أحدٌ مِلْكيَّتها؛ على أنَّه يستضيف فيها مَن تَبِعه من الصعاليك.

صعد معهم الجبل.. ودلف إلى المَغَارَة، نظر إليها؛ فرآها.. ذات بابٍ ضيقٍ، لكنَّها تتسع من الداخل، أفضل ما يُميِّزها –في رأي الصعصعة- أنَّها تكشف الصاعد في الجبل قبل أنْ يصل إليهم ويفاجئهم، وهذا أول ما تَعلَّمه.. من الصعلكة: الخوف –دائماً- من الزائر الغريب؛ فقد يكون موتوراً يسعى لثأرٍ.. أو لصاً يسعى لسَلْبٍ، وكما قال الصَعْصَعَة: "حياة الصعاليك –يا أبا بصير- تقتضي منهم أنْ يعيشوا على تَهيُّبٍ وحذرٍ دائم؛ فلا ينامون إلا بعيونٍ يقظة.. ليحموا أنفسهم!!"، ولهذا.. فدَأْبهم أنْ يتناوبوا على الحراسة ليلاً.

دخل المغارة؛ فألفاها.. تجويفاً صخرياً يتسع للرَّهْط من الرجال، غير أنَّ الرجل الطويل –مثله- لا يكاد يُقيم فيها قامته.. بارتياح، جال ببصره في أنحائها؛ فأبصر أرضاً صلدة وجدراناً رطبة.. وكومةَ حطبٍ ومتاعاً قليلاً، رائحةً عَطِنة يخشى ألا يألفها أنفه.. ودَنَّ[1] خمرٍ.. وقُلَّة[11] ماءٍ وقِرَبَ، فجواتٍ في الجدران –لا جرم.. تسكنها الهَوَامُّ[2] والحيّات-، عناكِب نسجت بيوتاً.. وأتربةً لاصقة وغير لاصقة، وقد أخبره ساكنوها أنَّهم لا يخافون في مقامهم بهذه المغارة –حاشا الغرباء المتلصِّصين- سِوَى الجُرْذان.. على طعامهم ومتاعهم، والعقارب.. على أجسادهم وأرواحهم.

تساءل باهتمامٍ: "والعطش!!؟ ألا تخافون.. العطش؟؟!"؛ فطمأنوه وأجابوه: "هنالك.. ثَبْرةٌ[3].. نستعين بها!".

ارتمى وثوبه وسيفه.. في زاويةٍ –حيث أشاروا.. قائلين: هذا فراشك-، وما هو بفراش؛ إنَّما.. أرضٌ خَشِنَةٌ طُرِح عليها حَصِيرٌ بالٍ مُغبَّرٌ.. أكلته القوارض والسنون.

مضى معهم يغدو ويروح.. ويُقدِّد اللحم.. حتى دفنوا وليمة البحر في بطونهم ووَشائقهم، خلال تلك الأيام والليالي.. خالطهم، وتَعرَّف إليهم؛ فوجد: ربيعة ألينهم عريكة –وظنَّ فيه أنَّه أنقاهم سريرة-.. وهو أمهرهم رمياً بالقوس، أما أجرأهم على القتال ومواجهة المخاطر وأسرعهم غضباً وأشدّهم عبوساً.. فهو الصِّمَّة، وأحلمهم أُوَيْس.. وهو أدهاهم.. وأنحفهم جسداً وأشدّهم نَهَماً، أما رئيسهم -رفيقه القديم-.. فهو أشدُّهم قوة وأحبهم للفخر والزعامة.. وأنداهم يداً.

---

[1] : الدَّنُّ: برميل؛ وعاء ضخم للخمر والخلّ ونحوهما.

[11] : إناءٌ كبير من الفَخَّار يُشرَبُ منها.

[2] : هَوَامّ الأرض: حشراتها المؤذية.

[3] : الثَّبْرَة: الثغرة تكون في الجبل تمسك الماء كالصهريج.

تأمَّل في رِقَّة حالهم؛ فعَتَب –ذات مرة- على الصَعْصَعَة.. هامساً:

- أرى –يا مأوى الصعاليك- أنَّك.. ما أنصفتَ نفسك، ولا أصحابك.. حين صَيَّرتَهم صعاليكاً؟!!
- أبا بصير!! لا يَغُرَّنَّك.. الشَّظَف الذي ترانا فيه؛ فلقد كُنَا –آنفاً- أكثر جمعاً.. وأرغد عيشاً.. وأشدّ قوة، لكن.. جارت علينا السنون.. وأصابتنا الفاقة، وفشلت غاراتنا.. وتَشتَّت شملنا، وتَفرَّق عني رجالي إلا أولئك النفر.. من جَرَّاء حرب محمدك.. قُرَيْشاً!
- مَهْ! ولا تذكر محمداً ﷺ.. بسوء!!

*****

توالت عليهم.. الأيامُ والليالي -وهم قابعون في غار الجبل- يطعمون من وشائق الحوت، ويرتقبون استئناف القوافل لرحلة الصيف.. بعد انقضاء الموسم والأشهر الحُرُم.. كي يستأنفوا الغارات.

في تلك الأثناء.. عرفوه عن قريب؛ فألفوه: أَغَضّ طرفاً.. وأقل فُحشاً.. وأَجْوَد يداً، يحضر سمرهم.. ويُعْرِض عن سفاهتهم، يعاونهم في الطهي والخدمة.. ولا يشرب الخمر، يتعاقب معهم على الحراسة ليلاً.. ولا يَأْنَف من الاستجابة لأمر رئيسهم، يُطيل السكوتَ.. في تَفكُّرٍ، يَتطهَّر من النجس ويَتنَّزه عن الدنس، ويستكثر من الاغتسال.. والاختلاء للتَنَسُّك[1]؛ حتى أنَّ الصِمَّة أَسَرَّ –ذات مرة- في أُذن رئيسه.. مُستنكِراً:

- لِمَ رَزَأتَنا[2] بهذا المُتحنِّث[3].. يا مأوى الصعاليك؟!!

---

[1] : الصلاة والتعبُّد. [2] : رزأته مصيبة: أصابته. [3] : المتعبِّد.

فأجابه.. بثقة العارف:

- أردتم الطعام والحصان؛ فأحرزتموهما، وزيادةٌ.. فارسٌ شديدٌ.. ذو بأس؛ غداً.. ستحمدون قتاله معكم!

ذات ليلةٍ.. وهم يتسامرون.. مازح أبو بصير أُوَيْسَ.. مُتفكِّهاً:

- ما أسقطك عليَّ.. أيها الشَرِه؟؟ لقد.. كِدتَ تأكل الحوت.. كله!

فأجاب عنه رئيسهم (الصَعْصَعَة).. مُقهقِهاً:

- ظَنَّ أنَّه نِدٌّ للصِمَّة.. وتنازع معه؛ فأصلحتُ بينهما.. وحكمتُ عليه أنْ يُفارِقنا، ولا يرجع إلينا.. حتى يأتينا بطعامٍ يُشبِعنا؛ وإلا فهو خاسرٌ.. وغير جدير بالانتماء إلينا!!

- فسقط عليَّ.. كصاعقةٍ من السماء.. آكلاً الحوت وحده!!

- بل.. أكلتموه.. جميعكم.. معي، أم.. تنكرون؟!!

صاح أُوَيْس.. مدافعاً عن نفسه، حاجَّه ربيعة.. مُبكِّتاً:

- بل خادعتَ أبا بصير وخادعتنا.. حتى جلبناه إلى هنا، وها أنت ذا.. تأكل قَدْر ما نأكله نحن مجتمعين.. إلى اليوم!!

- إنْ كنتُ خدعتكم.. جميعاً، واستخدمتُكم في جَلْب الحوت.. إلى هنا؛ فلم تَعذِلوني؟! أنا رب الحوت.. وأطعمتُكم منه!!

- بل.. ربه.. البحرُ؛ هو الذي قذفه.. إلى البر! (جادله ربيعة)

استاء أبو بصير لتنازعهم في رب الحوت.. فصاح مُتضجِّراً:

- بل.. ربه وربي وربكم.. **الله**؛ لو كنتم تعلمون!

دهمهم وجومٌ قَلِق.. وغشيتهم كآبة.. وكأنَّما لسان حالهم يقول: (ما الذي أحفظه[1]؟! إنَّما كنا نمزح ونلعب!)، حبَّذ أُوَيْس أنْ يُمزّق غشاء الصمت الكئيب.. ويستعيد أجواء السمر والفُكاهَة.. مُستخِفاً بأبي بصير وفَوْرَة غَضْبته لربه؛ فتَوَجَّه إليه مُستخبِراً:

- أيا.. عتبة! إنَّك تزعم أنَّ ابن عبد المطلب على دين إبراهيم، لكنّي.. راقبتُ صلاتك التي تُصليها.. ليل نهار، ولقد رأيتُ عجباً!!؟
- ماذا رأيتَ.. يا رجل؟؟ (استوضح أبو بصير.. باهتمام)
- إنَّكم.. تعبدون الشمسَ والقمر؛ تُصلون لها نهاراً.. وللقمر ليلاً، هل كان إبراهيم.. يعبدهما؟!!
- كلا.. أيها الأعرابي! لقد أسأتَ الفهم!! إنَّما نُصلي لله وحده.. هو الذي فرض علينا صلواتٍ خمس في اليوم والليلة، ونتحيَّن بالشمس دخول أوقاتها، أما في الليل.. حين تراني أخرج أُصلي بالوَصِيد[2]؛ فتلك صلاة تَهَجُّد.. سَنَّها لنا النبي محمد ﷺ في السَحَر كل ليلة؛ إنَّنا نصلي لله.. وما نعبد شمساً ولا قمرا!
- كيف تُصلي لربك.. ولا نرى له -بين يديك- وثناً ولا صنما؟؟! كيف تُصلي لربٍ.. لا تراه؟؟!
- الله.. ربي وربكم.. لا تدركه الأبصار.. وهو يدرك الأبصار.. وهو اللطيف الخبير، أما أثناء الصلاة.. فقد أُمِرنا أنْ نُوَلِّي وجوهنا شَطْر البيت الحرام.. في مكة!

انبعث الصِمَّة يستهجن.. صائحاً بصوته المُنكَر وبحميَّةٍ جاهلية:

---

[1] : أغضبه.

[2] : الفناء أمام باب المغارة.

- وَيْحُكم!! أ تحاربون قريشاً.. وأنتم تستقبلون كعبتها؟؟!

فأسكته أبو بصير.. صائحاً بذات نبرة صوته:

- الكعبةُ.. كعبة الله، والأمر كله.. لله!!

آنئذ.. حجز الصَعْصَعَة بينهما، وقطع الجدال.. هاتفاً بحسم:

- كفى!! أُعبد ربك.. كما تشاء.. يا أبا بصير، لنا ديننا.. ولك دينك!

- أجل!! لكم دينكم.. ولي دين!

*****

ذات نهارٍ ضَجِرٍ طويل -من النهارات الحارقة الخانقة.. التي يقضونها في الاضطجاع والتَمَلْمُل.. وقتال الذباب- تَضجَّر الصِمَّة.. وأقبل على رئيسه يصيح مُتأفِّفاً:

- إلى متى –يا مأوى الصعاليك- نَرقُد.. هكذا؟؟ صدأت السيوف في غُمُدها؛ ولقد اشتقتُ لاستلال سيفي في الغارات!

وأضاف أُوَيْس مُتبرِّماً.. هو الثاني:

- لن نصبر على طعامٍ واحد؛ لقد سئمتُ.. هذا القَدِيد[1]!!

- وماذا تُحِبُّ أنْ تأكل.. أيها الضَّب الأكول؟؟

سأله الصَعْصَعَة هازئاً؛ فاسترسل هو في تبرُّمه.. حَالِماً بالطعام الذي يشتهي:

- اشتاقت نفسي إلى.. لحم الجزور[2].. والمَرَق والثَّرِيد[3]!

---

[1] : القديد الذي صنعوه من لحم الحوت؛ فصار لَحْماً مُقطَّعاً مُمَلَّحاً.. تم تجفيفه في الشَّمس والهواء.

[2] : الجَزُور: ما يَصْلُحُ لأَن يُذْبح من الإبل.

[3] : ما يُثرد من الخبز، وهو طعام من خبزٍ مفتوت ولَحْمٍ ومَرَق.

- كيف نستجلبها لك.. وما نبرح قاعدين ها هنا.. كالنساء!

أجابه الصِمَّة.. مُتسخِّطاً؛ فزجره.. الصَعْصَعَة صائحاً:

- صَهٍ.. يا صِمَّة! وارفع.. لسانك.. عنا!

حينها.. تَنَحْنَح ربيعة –الذي كان ساكتاً.. مثل أبي بصير- وقال:

- قد عزمتُ الخروجَ للصيد.. صباح الغد؛ عسى أنْ أجد ما يُسكِّن بطنك.. يا أُوَيْس!!

- إذاً.. أَخرجُ معك.. إنْ شاء الله! (أقرَّه أبو بصير)

فاعترضهما الصَعْصَعَة.. هاتفاً بحزمٍ.. ومُكلِّماً ربيعة:

- الليلة.. نوبتك على الحراسة، وستُصبح مُرْهَقاً من السهر؛ فأَجِّلْ خروجك.. إلى بعد غد!!

واستطرد.. مُلتفِتاً إلى الصِمَّة.. الذي عبس وجهه وتَقطَّب جبينه:

- وأنت! اِشْحَذْ سيفك الذي صدأ، وصَبِّر نفسك إلى أنْ يرجع ربيعة، ثم نخرج إلى سيف البحر؛ لعلَّك تُحصِّل.. ما تَتُوق إليه نفسك!!

*****

في تلك الليلة.. وفيما أبو بصير قائمٌ يُصلي بالوصيد؛ يناجي ربه.. ويسأله التثبيت والتفريج؛ راح ربيعة –كدأبه في نوبات حراسته- يدور ويطوف حول الكهف، ويصعد في شعاب الجبل ويهبط.. دون كللٍ أو ملل.

وما كان أبو بصير –كعادته.. في تَهَجُّده- مُنْفَكّاً حتى ينفلق الصبح؛ فيصلي الفجر.. ثم يرقد، بيد أنَّ صرخةً مكظومة صَكَّت سمعه.. وهَتَكت ستر سَكِينَته، استنكرها.. لكنَّه واصل صلاته، ثم قطعها عليه أنينٌ -ليس مألوفاً

في سكون الليل والجبل- كأنَّه صوت رجلٍ يَتوجَّع، تسمَّع إلى الصوت؛ فاشتَبَه أنَّه حِسُّ ربيعة، عَجّل.. وانصرف من صلاته، وما برح يبحث عنه حول الكهف حتى عثر فيه.. مُلقاً على الأرض.. عاجزاً عن الحركة، وسمع له أنيناً مكتوماً؛ هلع عليه:

- ربيعة!! ماذا بك؟؟ هل.. وقعتَ؟ أم.. وقعتْ عليك صخرة؟؟!
- بل.. لدغني عقرب!!
- عقرب!! متى؟؟!

فأجابه بصوتٍ واهن مُتألِّمٍ.. مُشِيراً إلى ساقه اليمنى حيث لُدِغ: "الحين!!"، ثم سكت.. وأخذت أنفاسه تتحشرج ولعابه يَسِيل.

رغم حُلْكَة الليل.. اجتهد أنْ يتفحَّصه، تَسمَّع قلبه.. فأَحَسَّ بضرباته تتسارع، ووجد أنفاسه تخرج -شهيقاً وزفيراً- بصعوبة، شرع يَتحسَّس موضع اللسعة؛ فأَحَسَّه.. يَتورَّم، فأسرع.. يحصره وخلع عمامته وربطه، ورفع الساق إلى أعلى.. ليمنع انتشار السم بالجسد، ثم جرح جُرحاً صغيراً حيث اللدغة، وجعل يَمتصّ -من خلاله- السم ويبصقه.. بمهارة سريعة، حتى اطمأن أنَّه أخرج الدم المسموم؛ حمله بين ذراعيه.. وولج به إلى المغارة.

أرقده في فراشه، وأيقظ أُوَيْس.. يسأله: "أين.. الملح؟؟"، لم يجبه.. مُتوهِّماً أنَّه يحلم، عَنَّفه أبو بصير.. صائحاً بتقريع[1]: "قُمْ.. يا هذا! لقد لُدِغ صاحبك؛ ساعدني.. كي أُسعفه!".

---

[1] : التقريع: صوت التأنيب.

انتبه أُوَيْس.. ونهض متسائلاً: "ماذا جرى؟!!""، لم يجبه.. ولم ينتظر هو الجواب؛ وإنَّما خَفَّ.. فأَسْرَج ضوءً، وأحدث صخباً وهو يبحث عن الملح ويُحضر الماء.. كما أمره أبو بصير الذي أَقْبَل بوجهه على المريض.. يمسح على رأسه، ويمسح موضع اللدغة بيده.. مُتمتِماً بكلماتٍ؛ لم يفهمها المريض.. فخَمَّن أنَّها رُقْيَة.

تنبَّه النائمان الآخران.. فيما يتناول أبو بصير الملح والماء ويضعهما في إناءٍ، وجعل يَصُبّ منه على موضع اللدغة، استخبرا أُوَيْسَ.. فأنبأهما الخبر، تأسَّف الصَعْصَعَةُ.. مُستاءً: "أخزى الله العقرب، ما تدع رجلاً.. إلا لدغته!"، حالما أنشأ أبو بصير يحاور ربيعة.. مُتلطِّفاً:

- لا تجزع! لن تضرك –إنْ شاء الله- فقد نَزعتُ السم، لكن.. تَحمَّل الألم وتَصبَّر.. حتى يصرفه الله عنك!

همس بصوتٍ واهنٍ مُتهدِّج[1].. وبنبرة تَوَسُّل:

- أشعر بالغثيان، وأنفاسي تضيق.. كأنّي أحتضر!؟؟
- ذلك.. من أثر اللسعة، وقد تُصيبك حُمَّى.. ليلةً أو ليلتين، لا تجزع؛ سأكون جوارك.. حتى يشفيك الله!

أجابه أبو بصير مُطمئناً، ثم التفت إلى أُوَيْس.. قائلاً:

- جئني بماءٍ بارد.. وخِرَق؛ عسى أنْ نُخفِّف عنه آلام اللَسْع.. وأوجاع الحُمَّى!

---

[1] : تهدَّج الصوت: تقطَّع في ارتعاش.

عاد الصعاليك الثلاثة إلى مضاجعهم.. واستأنفوا نومهم، وظَلَّ ربيعة أَرِقاً مَحْمُوماً مُتوجِّعاً، وإلى جواره أبو بصير.. يرقيه ويُطبِّبه.. حتى أنَّه صلى الفجر إلى جواره.

*****

تنفَّس الصباح.. وصحا النُّوَّام، ولم ينم المريض.. ولا مُطبِّبه، هَيَّأ لهم أُوَيْسُ مائدةً.. فأكلوا، وأبى المريض.. أنْ يأكل، واشتكى إلى مُطبِّبه أنَّه يجد صعوبة في البلع.. وتشويشاً في الرؤية؛ فهَدَّأ هَلَعه.. وأَعلَمه أنَّ كل ذلك من أثر اللدغة.. وسرعان ما يزول مع الصبر.. خلال يومٍ أو يومين.

تبرَّم الصِّمَّة، وما انفك يجئ ويذهب.. مضطرب النفس.. ثائراً، زجره رئيسه:

- ما بك.. يا رجل؟؟! ألا.. تقعد؟؟
- لن أصبر.. حتى يُشفَى هذا المريض، لابد أنْ نخرج للإغارة!!

غمغم أُوَيْس في نفسه.. بضيقٍ ونفور: (لَمْ أَرَ مُتعجِّلاً للقاء العدو والقتال.. مثل هذا الأحمق!؟)، في حين انفرد الصَعْصَعَة بأبي بصير.. يستفهم منه عن حالة صاحبه المصاب، صارحه بالحقيقة:

- قد بذلتُ ما أستطيع من جُهد، ولا أعلم متى يَبرُؤ، وأسأل الله أنْ يشفيه.. خلال يومين أو ثلاثة!!
- أ رأيتَ إنْ خرجنا للإغارة.. وخَلَّفناه؟؟! (أَسَرَّ.. في أُذنه)
- لا أُحبذ.. أنْ نتركه وحده!!
- وذاك الفائر –يُشير إلى الصِّمَّة- لن يصبر.. يومين أو ثلاثة!!؟

- .....
- أرى أنْ تبقى أنت إلى جانبه.. ونخرج نحن لسبيلنا!؟
- إنْ شئتَ؛ فافعلوا!!

اتخذ مأوى الصعاليك.. قراره، وكلَّف أُوَيْسَ بإعداد الزاد وإسراج الحصان.. عازماً على الخروج للإغارة، تبرَّم أُوَيْس.. وتهلَّل الصِمَّة، ورنا ربيعة إلى أبي بصير مُستغيثاً؛ فأومأ إليه: أنْ اطمئن.. سأبقى معك.

ليس لأويس مفر.. من الإذعان لرئيسه، شرع يُجهِّز زاد السفر ومتاعه.. فيما يشحذ الصِمَّة سيفه بغبطةٍ وحماس.

حمل بعض الأوعية.. وطعاماً من وشائق الحوت وقربة ماء.. ولم ينس زِقَّ الخمر، ثم أسرج الحصان، وما عتِّم الذؤبان الثلاثة.. أنْ خرجوا إلى سبيلهم.

*****

انقضى يومٌ وليلة.. وربيعة لم يزل طريح الفراش، أحسَّ بآلامه تَخِفُّ؛ لكنَّه.. يشعر بخَدَرٍ[1] في الجسد والأطراف.. وانصراف شهية عن الطعام.

في أُمْسِية[2] اليوم التالي.. أتاه أبو بصير بالطعام، وألَحَّ عليه أنْ يأكل:

- يلزمك أنْ تأكل جيداً.. لكي تَبرؤ، وإلا.. قد تنتكس!!
- لا رغبة.. لي.. في الطعام!
- لا تطاوع نفسك، اِعزم عليها أنْ تتغذَّى.. حتى تُشفَى!
- هذا القديد؛ باتتْ نفسي.. تَعافه[3]!!

---

[1] : الخدر: فتور وإعياء. [2] : آخر النهار.. وهي خلاف الأُصبوحة. [3] : تكرهه.

- صبراً! تَقوَّت بهذا.. الآن، وفي الغد.. أَعِرني نُشّابك[1]؛ وسأخرج –إنْ شاء الله- لأصطاد.. سائلاً الله أنْ يرزقك طعاماً حسناً!
- إنَّك رجلٌ كريم –يا أبا بصير- وصاحبٌ وفي!!

أَثْنَى عليه.. بامتنان، ثم استطرد.. مُستعلِماً: "هَلاَّ.. تُعلِّمني هذه التعاويذ التي رَقيتَني بها؟؟ أحسب أنَّك.. شَفيتَني بها!".

- الشافي: هو.. الله! وما هي.. بتعاويذ، إنَّما قرأتُ عليك.. قرآناً؛ وهو شفاءٌ.. بإذن الله!!
- وما.. القرآن؟؟!
- إنَّه: كلام الله الذي أنزله على رسوله محمد.. هدى ونوراً للعالمين!!

سكت ربيعة مُتعجِّباً.. وصرف وجهه عنه؛ فقام مُنصرِفاً عنه.

*****

في هَزِيع[2] الليل.. تَعارَّ[3] ربيعة؛ فأَحَسَّ بأبي بصير يَصُفّ قدميه إلى جواره.. مُصَلّياً صلاته الليلية، اِمْتَنَّ –في سريرته- لصنيعه: (عجباً! هل يَهتمُّ لأمري.. حتى أنَّه يَتَخلَّى –في هذه الليالي- عن عادته التَحنُّث بالوصيد.. ليرعاني ويعتني بي وأنا نائم؟!!).

راح يغفو؛ فراوغه النوم.. ونمى إلى سَمْعه صوت همهمة أبي بصير، دفعه الفضول ليتسمَّع إليه؛ أَصْغَى.. فسَمِعه.. يقرأ (من سورة الحاقة):

---

[1] : النشاب: النِبْل والسهام.

[2] : الهزيع من اللَّيل: نحو الثُّلث أَو الرُّبع الأَوَّل منه.

[3] : تَعارّ فلانٌ: أَرِقَ وتقلَّبَ في فراشه ليْلاً.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (15) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ (17)يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (18)فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ (19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23)كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26)يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (27)مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30)ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (32)إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (33)وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (34)فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (35)وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36)لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (37)﴾

أَطْرَبت الكلماتُ.. سمعه، واضطرب لها قلبه.. وشعر أنها تَقرَعه قَرْعاً، تساءل –في سريرته- مبهوراً بها.. مُعجَباً بناظمها[1]: (قَوْل مَن.. هذا؟!)، فسمع القارئَ.. كأنَّما يجيبه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40)﴾، فتجاوب معه.. مُعارِضاً في خاطره: (بل.. هذا قول.. شاعر!!)، فاعترض عليه القارئ.. كأنَّه سمعه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41)﴾، انشده.. وهامس نفسَه: (كيف اِطَّلَعَ على هاجس نفسي؟!! تالله.. إنَّها لكِهَانَة[2]!!)، فسمع القارئ.. يُجيبه: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (42)تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (43)﴾، فذَعِر: (كيف يسمع القارئ خواطر عقله.. ويُجيب عليها؟!!)، خِشِي على نفسه؛ فتقنَّع بثوبه.. وغطى رأسه.. وصَمَّ أذنيه.. مُتَهيِّباً أنْ يسترسل في السماع.

---

[1] : ناظم الشعر: الذي ينظم الشعر حسب الوزن والقافية.

[2] : الكهانة: حرفة الكاهن.. وهي: ادّعاء معرفة الأسرار أو أحوال الغيب.

في أصبوحة اليوم التالي.. تَيقَّظ من نومٍ مضطرب؛ فألفى أبو بصير فوق رأسه.. يُقدِم له طعاماً، فَزع منه.. لقراءته البارحة، بيد أنَّه.. سرعان ما تذكَّر أنَّ هذا هو.. صاحبه الذي يُطبِّبه ويرعاه.. منذ يومين.

لاحظ عليه أبو بصير شيئاً من الكدر والامتعاض، سأله.. وعزم عليه أنْ يُصارحه بما في نفسه؛ فزفر.. زفراتٍ مخنوقة، ولم يجد مَفَرّاً من مصارحته؛ فقال بصوتٍ يشوبه التردُّد:

- لَيْتَ شِعْرِي[1].. ماذا كنتَ تقرأ البارحة.. في صلاتك!!؟
- القرآن! أ وسمعتني؟؟
- بل.. أنت.. الذي سمعتني!؟؟
- كيف؟؟! لم أعلم.. حتى أنَّك يقظان!

فحكى له ما كان منه.. ومن قراءته؛ ثم تساءل.. مُتحيِّراً:

- كيف.. يَطَّلِع قرآنُك.. على الهواجس التي تدور في عقلي؟؟!
- إنَّه.. كلام الله؛ ربي.. وربك.. ورب العالمين الذي يعلم السرائر والجهائر!!
- لقد.. خَشيتُ منه.. على نفسي!!؟
- إنّي أدعوك للإسلام.. يا ربيعة، أسلم.. يجعل الله خوفك.. أمنا!
- يا أبا بصير! أنا على دين قومي؛ لا أفارقه.. وإنْ فارقتُهم!!
- لا إكراه في الدين، وسأدعو الله لك.. أنْ يهديك سبيل الرشاد!
- .....

---

[1] : عبارة لِلتَّعَجُّبِ بِمَعْنَى: لَيْتَنِي كُنْتُ أَعْلَمُ وَأَشْعُر.

أطرق ربيعة.. وطال صمته؛ فكلَّمه أبو بصير.. مُتلطِّفاً:

- ألن تُعرني نُشَّابك.. فأصيد لك صيداً حسناً.. تتقوَّت به؟؟
- خذها.. إنْ شئتَ!

*****

تجهَّز أبو بصير.. ليخرج للصيد، وقبل أنْ يفارق صاحبه.. هَيَّأ له ما يلزمه حتى يرجع، وطَمْأنه -قبل الرحيل- ووعده.. أنَّه لن يتَأخَّر عليه، ثم تَوَكَّل على ربه.. وخرج راجياً أنْ يغنم صيداً سميناً.

ما أخلف أبو بصير موعد صاحبه، وما خَيَّب ربه رجاءه، ورجع –قبل أنْ تحتجب الشمس في مغربها- بصيدٍ سمين: وعل[1] عظيم، لم يَشُق عليه اصطياده بقَدْر ما أجهده جَرُّه.. وحَمْلُه حتى صعد به إلى الكهف.

رآه ربيعة.. فما صَدَّقتْ عيناه ما يرى: (كيف عاد غانماً.. بهذه السرعة؟! كيف اقتنص هذا الوعل الشديد؟! وكيف حمله.. وكيف صعد به الجبل؟!)، تحامل على نفسه.. ونهض ليعاونه ويحمل معه، وضع أبو بصير حِمْله.. وطرح النُشَّاب عن عاتقه، وارتمى على الأرض.. يلتقط أنفاسه ويستعيد قوته.

سأله باستعظام:

- كيف أحرزتَ.. هذا الصيد؟!! وكيف جلبتَه.. إلى هنا؟؟!
- رزقٌ مبارك.. ساقه الله.. إلينا!

قالها بأنفاسٍ مُتقطِّعة، ثم اعتدل.. واستأنف:

---

[1] : تيس الجبل.. وهو من جنس المعز الجبلية.

- أستريح قليلاً، ثم أقوم.. لأطبخ لك، وأطعمك من هذا الوعل السمين.. لحماً ومرقاً!
- تالله.. لقد طَوَّقتَ عُنقي.. بمعروفك!!
- لا تقل هذا! يجب أنْ تأكل جيداً.. لتستعيد قوتك!

رقد أبو بصير.. سويعة، ثم قام إلى صيده السمين؛ فسلخه وأعدَّه للطهي، وأوقد ناراً.. وطبخ لصاحبه.. وهَيَّأ مائدةً شهية؛ أكلا منها حتى شبعا.. وباتا بخير ليلة.

في اليوم التالي.. تماسك ربيعة وطرد عن نفسه الوهنَ والكسل، ونهض.. ليساعد صاحبه في إعداد الغداء، أحب أنْ يأكل لحماً حنيذاً؛ فخرج من المغارة.. وبحث –في الجبل- عن أرضٍ يجعل فيها حفرة، ثم أشعل فيها ناراً.. وحَمَّى حجارةً داخل الحفرة.. حتى صارت رضيفاً[1]، ثم قَطَّع لحماً من الصيد السمين وشَواها على الرضيف الذي أعدَّه، ودعا أبا بصير.. ليأكل منه؛ ذاقه.. فاستلذَّه.. وأثنى عليه هاتفاً:

- أراك –حمداً لله- قاربتَ التعافي، وإنَّك.. لماهرٌ.. في طهي الرضيف!
- لا غَرْوَ[2]! صيدك المبارك.. شفاني!!
- يا ربيعة! الشافي.. هو الله!

مكثا -على تلك الحال- أياماً.. تماثل فيها ربيعة للشفاء.. وأوشك يستردَّ عافيته، وتَوطَّدت –خلالها- الوشيجة[3].. بينه وبين أبي بصير، وانشرح له صدره؛ حتى أنَّه شرع يراقبه.. وهو يصلي ليلاً،

---

[1] : حجارة مُحْمَاة.. تُجعَل للطهي والشوي.
[2] : أي: لا عجب.
[3] : رابطة أو علاقة.

ويتأمَّل حاله في صلاته.. مُشفِقاً مُتعجِّباً، سأله.. بنبرةٍ ودودة مُشبَّعةٍ بالإشفاق: "ما هذه الصلاة.. التي تُرهق بها نفسك.. طوال الليل؟؟!".

- يا ربيعة! هي مناجاتي لربي! هي.. شرفي!!
- ولماذا.. يُعنِّتك[1] ربك.. بهذه الصلاة الشاقَّة؟؟
- أ رأيتَ إنْ وقفتَ ساعاتٍ.. بين يدي ملكٍ عظيمٍ مِن ملوك الدنيا؛ ليسامرك ويقضي حوائجك، هل يُعنِّتك ذلك؟؟
- المثول بين يدي الملوك شرفٌ؛ لا يناله.. كل أحد!
- وكذلك.. الصلاة! شرفٌ للمؤمن؛ لأنَّها مثولٌ.. بين يدي ملك الملوك!!
- لكن.. ألا يَشُقّ عليك.. طول القُنُوت[2]؟؟
- هي لذةُ حياتي.. وراحةُ قلبي! ولن يعرف اللذةَ.. إلا الذي ذاق!
- لا زلتُ.. حائراً؛ كيف تعبد رباً.. لا تراه؟!!
- إنْ كنتُ لا أراه؛ فهو.. يراني.. ويَطَّلِع عليَّ.. ويَكلأني.. ويرزقني!
- لكنّ.. عقلي لا يقبل أنْ أعبد رباً.. لا تراه عيني؟؟!
- هل تعرف: كسرى.. ملك فارس، وقيصر.. ملك الروم؟؟
- ومَن لا يعرفهما؟ هما أعظم.. ملوك الأرض!
- هل تماري[3] في أنَّ رعيتهما.. تُبجِّلهما وتُعظِّمهما؟؟
- لا جدال.. في هذا!

---

[1] : عَنَّتَ الرَّجُلَ: أَجْبَرَهُ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ وَأَلْزَمَهُ مَا يَصْعُبُ عَلَيْهِ.

[2] : القُنُوت: الطاعة والصلاة والدعاء.

[3] : تماري: تجادل أو تخالف.

- كم.. فرد من هؤلاء الرعية جلس مع كسرى أو قيصر.. في مجلسٍ واحد.. وكلَّمه، أو رآه بعينه؟؟!
- أحسبهم.. عدداً قليل!
- ومع هذا؛ فإنَّ المؤمنين.. سَيَرَوْن ربهم كما يَرَوْن القمرَ.. ليلة البدر، لا يشكون في رُؤْيَتِه!
- متى؟؟!
- يوم البعث؛ حين يبعث الله الناس بعد موتهم.. للحساب!
- وتلك –أيضاً- في النفس منها.. شكٌّ!!؟
- يا ربيعة!! أ وليس الذي أنشأ الخلق أول مرة.. بقادر على أنْ يبعثهم مرة أخرى؟!!
- ..... !!
- سأضرب لك مثلاً!! لقد ظلمك قومُك ظلماً بَيِّناً؛ فهل.. أُقْتُصَّ لك.. مِمَن ظلمك؟؟
- لا!! ولذلك.. فارقتُهم.. وتَصعلكتُ!!
- متى القصاص.. إذاً؟! لو لم يكن يومٌ.. يقف فيه الظالم والمظلوم.. بين يدي الدَّيَّان.. ليحكم بينهم؟!!
- يا أبا بصير! إنَّا نَظنُّ أنَّ الله –خالق هذا الكون- أعظم من أنْ يشغل نفسه بنا؛ لذا فقد وَكَلَ أمورنا إلى الآلهة التي دونه، وهم شفعاؤنا عنده؛ ولذلك.. نعبدها!!؟
- إنْ هي إلا أسماءٌ سمَّيتموها.. ما أنزل الله بها من سلطان! أ رأيتَ أنَّ رجلاً ذا مالٍ كثيرٍ: إبل وأبقار وماشية –يملأ.. واديين أو ثلاثة- وَكَلَ

أمر هذا المال كله إلى عبيده؛ فتصرَّفوا فيه -كما شاءوا- وأهلكوه، فإنْ لم يحاسبهم: حفظوا.. أم ضيَّعوا، فماذا تقول فيه؟؟

- أقول: سفيه.. ضيَّع ماله وما حفظه!!
- وتعالى الله.. أنْ يضيِّع مخلوقاته، هو العزيز الحكيم.. لا يعوز عَوْناً ولا نصيراً، وحاشاه أنْ يخلقنا عَبَثاً.. أو يتركنا هَمَلاً!
- إنَّ هذا حديثٌ.. يستملحه العقل، أراه أقرب إلى الهدى.. من الضلال!!؟
- أدعوك –إذاً- للإسلام.. يا ربيعة! أسلم.. تنجو في الدنيا والآخرة!!
- ذرني.. أُراجع نفسي؛ ليس من الهَيِّن أنْ يفارق المرؤ.. دين قومه.

*****

تعاقب ليلٌ ونهار، ثم انشقَّ الصباح عن أُوَيْس.. يصعد إلى الكهف.. ساحباً بعير، ومن ورائه.. الحصان، والصَعْصَعَة والصِمَّة يتهاديان في خيلاء.

قبل أنْ يُرحِبا به.. هتف يخاطبهما بنبرة ودٍّ يشوبها التحدّي:

- أشهد أنَّ لديكما.. لحماً طازجاً!!
- كيف عَرفتَ؟!! (تَعجَّب أبو بصير)
- أشهد.. أنَّك.. ذو فراسة! (امتدحه ربيعة)

أناخ البعير بالوصيد، ثم سَلَّم عليهما.. وولج إلى الغار مُتعجِّلاً أنْ يعثر على ذلك اللحم الطازج، فيما ينتظران هما الآخرَين.. ليُرحبا بهما، أبصر هو رأسَ الوعل.. ونطعاً صُنِع من جلده؛ فصاح:

- مرحى.. يا ربيعة! لقد تعافيت.. واصطدتَ، وهذا هو الدليل: رأس ذات قرون.. ونطع مدبوغ!!

لم يجبه ربيعة؛ وإنَّما انشغل عنه –هو.. وأبو بصير- بمعاينة البعير ورحله، وبتحية الآخرَين.. والترحيب بهما، ثم دخلوا المغارة.. ليجدوا أُوَيْس مُتكئً.. ويقول: "أَشم رائحة اللحم الطازج! أين جسد هذا الرأس؛ لابد أنْ آكل من لحمه!!"، جلسوا.. وشاهد الصِّمَّة –ورئيسه- رأس الوعل مُعلَّقاً بقرنيه الكبيرين على الجدار الصخري، صاح.. مُثنِياً: "أحسنتَ.. يا ربيعة! هذا.. صيدٌ سمينٌ!"، في حين تساءل الصَعْصَعَة باهتمام:

- متى.. صِدتَه؟! وكيف اقتنصتَه؟! أعرف من هذه الرأس أنَّه كان وعلاً عنيداً!!

تبسَّم ربيعة.. قائلاً:

- أبو بصير.. هو الذي صاده!
- أجل! لا يقتنص صيداً كهذا.. إلا رجلٌ كهذا! (أشاد به الصَعْصَعَة)
- هو رزقٌ.. ساقه الله.. إلينا! (أجاب أبو بصير بتواضعٍ وإنكار ذات)
- مرحى.. مرحى! لولا أَطعمتَنا من رزق ربك.. يا أبا بصير؟

طالبه أُوَيْس بها.. وهو يدور في جنبات الكهف بحثاً عن جسد الوعل ولحمه.. حتى عثر عليه، أراد أبو بصير أنْ يُمازحه مشاكساً:

- ليس قبل أنْ تَقُصَّ علينا: كيف غنمتم ذاك البعير!!

نظر أُوَيْس إلى الذَيْن كانا معه.. كأنَّما يطلب السماح بأنْ يحكي؛ فأجابه الصَعْصَعَة بإماءةٍ من رأسه، وقف –كأنَّه سيخطب في جمعٍ من الناس- وغدا

يحكي.. بألفاظه وسكتاته.. وقسمات وجهه وإماءته.. وانتفاضات جسده الضئيل وسكناته:

- خرج الصعاليك الثلاثة، لا!! ليسوا صعاليكاً؛ بل ذؤبان ثلاثة! خرجوا يبحثون عن الطعام.. في صحراءٍ قاحلة يعزّ فيها الماء والغذاء، ضربوا الأرض بأرجلهم.. حتى زلزلوها، وطافوا بطريق الأسفار؛ فما وجدوا عليه أحداً؛ لا أبرار.. لا فجار!!؟
- .....
- مكثوا يوماً.. يومين.. ثلاثة أيام، طالت عليهم الأيام.. وللجوع عضةٌ مُتلِفة.. أشدّ من عضة أسد، وذات نهارٍ لافح.. ألهبت فيه الشمسُ الرؤوسَ.. والجوعُ البطونَ، لاح –لهم.. من بعيد- بعيرٌ.. يصيح: "جئتُ.. لكم نجدةً؛ فكلوني! هيا.. اذبحوني.. اذبحوني!".
- .....
- كان يصحبه رجلٌ مجهول، رآه مأوى الصعاليك؛ رقَّ له.. وأشفق عليه أنْ يقتله؛ فبرز له قائلاً.. برفق: "يا أخا العرب! دع لنا البعير.. وامض إلى حال سبيلك، لا نريد أنْ نؤذيك!!"، لكن.. الأحمق ظلم نفسه، وغَرَّه الشيطان.. وشَهَر سيفه!!

تَلطَّف به.. مأوى الصعاليك، وتجاوز.. عن سوء خلقه، وقال ناصحاً: "يا أخا العرب! أنا الصعصعة بن عامر؛ فلا تقتل نفسك!؟".

لكن العناد ركب الأثيم، وأخذته العزة.. وصاح مُغتَرّاً بنفسه: "خذه بالسيف.. إنْ اِستطعتَ!"، فاضطر مأوى الصعاليك أنْ يستل سيفه، ولوَّح به في الهواء، وضرب بالحسام.. ففلق الهام.

صاح بها -مُلوِّحاً بيده في الهواء- وعيناه تبرقان في وجهه ربيعة، ارتعب منه ربيعة لوهلة.. وتوهَّم أنَّه قاتله؛ فأشاح بوجهه عنه.. هاتفاً: "تباً لك!!"، حالما صاح الصِمَّة.. مُقهقِهاً بإطراء:

- ثكلتك أمك.. يا ضبّ! لقد اقشعر بدني.. وأنت تحكي!!

قهقه ربيعة.. وهأهأ الصَعْصَعَة، وبَسَمَ أبو بصير.. وعلَّق قائلاً:

- لأجل هذا الحَكيّ الممتع.. سأطعمك من رزق ربي!

ثم قام إلى الوعل.. ليُعدَّ لهم طعاماً، ونهض معه ربيعة.. يعاونه.

*****

أثناء تناولهم مائدة أبي بصير.. تَوجَّه الصِمَّة إلى رئيسه بالسؤال:

- كيف ستُقَسِّم تلك الغنيمة.. يا مأوى الصعاليك؟؟

- ليست بالغنيمة الثمينة؛ إنَّما هي سَلَب[1] قتيل.. وكيس دراهم معدودة، لكن.. ينبغي أنْ تُقَسَّم!!

قالها.. ثم استطرد مخاطباً الصِمَّة:

- لك.. ثيابه، ولربيعة.. سيفه، وكيس الدراهم.. لأبي بصير!

- والبعير؟؟! (تساءل.. الصِمَّة)

- نذبحه.. ونأكله جميعاً!! (هتف.. ربيعة)

- البعير لي؛ وسأُطعِمك.. إياه!! (صدح الصَعْصَعَة.. مُجيباً ربيعة)

- كلا!! (جأر.. أُوَيْس)

- وَيْها.. أيها الضب! أراك تحب أنْ تستأثر به لنفسك!!؟

---

[1] : سَلَب القتيل: ما معه من ثياب وسلاحٍ ودابَّة.

هتف الصِّمَّة ساخراً؛ فجاوبه أُوَيْس.. صائحاً في أنفة:

- ألا ترى –أيها الفطن- ما نحن فيه؟!! كيف نأكل الجزور؟؟ وليس عندنا شيءٌ نصنع منه خبزاً.. ولا ثريداً؟!!

- أصبتَ.. أيها الضب! لن نصبر على طعامٍ واحد؛ فما العمل؟؟!

جأر الصَعْصَعَة.. متسائلاً؛ فأجابه أُوَيْس.. هاتفاً بتُؤَدَة:

- يا مأوى الصعاليك! ذرني آخذ البعير.. والدراهم؛ فأنزل إلى البادية.. فأشتري لكم: دقيقاً وسويقاً[1]، وأَقِط[2] وسمن وتمر وعسل، ثم نطبخ طعاماً شهياً نستلذّه، ونتقوى به على الغارات!

- وماذا نأكل حتى ترجع.. أيها الحكيم؟؟! (تساءل الصِّمَّة باستهزاء)

- أ وليس هذا.. بطعامٍ؟!!

أجابه أُوَيْس بجِدَّة.. مُشيراً إلى وعل أبي بصير، وأَقرَّه الصَعْصَعَة هاتفاً:

- نِعم الرأي.. رأيك.. يا أُوَيْس!!

ثم استطرد.. يخاطبه بلهجةٍ آمرة:

- اذهب.. واجلب لنا حمل بعير من الطعام، وسنعكف على وعل أبي بصير حتى ترجع؛ فلا تتلكَّأ.. ولا تتأخَّر، وجئنا بأخبار الركبان!

- على الرحب.. يا مأوى الصعاليك! أستريح الليلة؛ ثم أرحل صباحاً!!

*****

مرت أيامٌ ثلاثة، ثم عاد أُوَيْس -مع غروب شمس اليوم الرابع- والبعير يحمل ما لَذَّ وطاب من الأطعمة، رحبوا به.. وأَثْنوا عليه، قَدَّم له ربيعة ماءً؛ فالتمس

---

[1] : السويق: طعامٌ يُتَّخَذ من مدقوق الحنطةِ والشعير: سُمِّي بذلك لانسياقه في الحلق.

[2] : الأَقِط: لَبَنٌ مُحَمَّضٌ يُجَمَّدُ حتى يَستحجِر ويُطْبَخ، أَو يطبخ به.

خمراً، ناوله إياه.. فيما يفحص الصِّمَّة رَحْل البعير وما يحمل من طعامٍ وبضاعة، ويتساءل مُتعجِّباً:

- كيف حَصَّلتَ كل هذا.. بتلك الدراهم المعدودة؟؟!

أعرض عن إجابته مُتباهياً بذكائه وحنكته، ثم سأله الصَعْصَعَة مُستخبِراً:

- أما مِن أخبارٍ عن الركبان.. يا أُوَيْس؟؟!

- جئتُك بنبأٍ.. أعظم مِن كل أخبار الركبان.. يا مأوى الصعاليك!

- هات.. ما عندك!!

رمق أبا بصير بطرف عينه نظرةً ذات مغزى، وكان مُتكِئاً؛ فجلس.. ثم تنحنح، ثم قال هامساً.. كأنَّما يخشى أنْ تسمعه جدران الكهف:

- خرج محمدٌ وأصحابه من يثرب.. عازمون غزو خيبر!!

اندهش القوم مما سمعوا، وغشيهم صمتٌ مبغوت، بينما مزَّق أبو بصير غلالة الصمت.. مُتشكِّكاً:

- أ واثقٌ أنت.. مما تُحدِّث به؟؟!

- أجل!! وأُجزِم أنَّهم –الحين- أمام حصون خيبر!

تساءل ربيعة.. مُستنكِراً:

- وهل يقدر محمدٌ وأصحابه على حصار خيبر.. وقتال يهود؟!!

حالما هتف الصِّمَّة.. هازئاً بمحمدٍ وأصحابه:

- وأيم الله! قد غَرَّ هؤلاء دينهم، وإنَّهم لمقتولون.. شر قتلة!

رمقه أبو بصير بامتعاض.. والقلق والوجل يعصران قلبه، فيما جأر رئيسهم:

- إنَّه لأمرٌ عظيم.. له ما بعده!! ينبغي أنْ نعلم على مَن تدور الدائرة!
- ماذا تريد أنْ نصنع.. يا مأوى الصعاليك؟؟!

تساءل أُوَيْس؛ فأجابه الصَعْصَعَة بعد برهةٍ من التفكُّر:

- لن نتمكَّن من الوصول إلى خيبر؛ فلا ريب أنَّ الطريق إليها –الحين- محفوفٌ بالمخاطر، على أنَّه يمكننا أنْ نعلم الخبر اليقين.. إذا ذهب أحدنا إلى يثرب!
- أو.. مكة!! (قال أُوَيس).. ثم أردف: "لا جرم أنْ قريش علمت بالنبأ العظيم، ولا ريب أنَّ سادتها يتحسَّسون ما يؤول إليه الأمر!؟".

صَدَّق الصَعْصَعَة على قوله.. صائحاً: "أصبتَ!"، ثم استطرد يخاطبه:

- فلتذهب أنت إلى مكة؛ وتسمَّع لنا أخبارها!

ثم التفت إلى أبي بصير.. وأردف:

- وليذهب أبو بصير إلى يثرب؛ ويأتينا بالأخبار من هناك!
- أبو بصير.. لا يستطيع الذهاب إلى يثرب! (جأر ربيعة).. ثم ذيَّل حديثه.. مُبرِّراً: "كيف.. وقد طُرِد منها آنفاً؟!!".

استدرك الصِمَّة.. مُزكّياً نفسه:

- إذاً.. أذهب أنا إلى يثرب؛ إنّي أقدر أنْ أُداهن أهلها.. وآتيك بالنبأ اليقين، لكن.. أشترط أنْ تُعيرني الحصان!
- وأنا!! أَعِرْني البعير.. إلى مكة.. يا مأوى الصعاليك!؟؟ (جأر أُوَيْس)

فأجابهما الصَعْصَعَة.. هاتفاً بحماسٍ:

- لكما ما تريدان! انطلِقا.. من الغد؛ ولا تُبطئا علينا!!

*****

تَمُرُّ أيام الجبل مكرورة؛ ليلها.. كنهارها.. في انتظارٍ وترقُّبٍ للنبأ العظيم الذي سيُغيّر حسابات مأوى الصعاليك.. والعرب أجمعين.

انصرمت بضعة أيامٍ.. استبد -خلالها- الأرق والسُّهاد بعيون أبي بصير وعقله، القلق.. يقرض أعصابه.. كلما تطاولت الليالي.. وطال أمد الانتظار، وما انفكت الهواجس تُطبِق بأصابعها البغيضة على قلبه المضطرب.. وتمنعه التَفكُّر.. والتنفُّس، راح يقضي لياليه.. وبصره مُعلَّقٌ بالسماء.. ويده ضارعةٌ إلى الله.. وقلبه يرجو النصر والتمكين لرسول الله.

ذات نهار.. كاد يفرغ صبره لولا أنْ سمع هميس[1] ورغاء[2] بعير أُوَيْس، هرع إلى حيث أبصر الجمل يتمايل صاعداً الجبل براكبه، ركض إليه.. يستنبأ عن الخبر؛ فما أجابه بما يُثلج صدره، إنَّما نظر إليه نظرة إعجابٍ.. واصطنع العتاب وهو يهتف بنبرةٍ هازئةٍ: "اعلم -أبا بصير- أنَّ بني عامر بن لؤي يعضُّون عليك الأنامل تَغيُّظاً، ويتربَّصون بك.. ليثأروا لقتيلهم!!"، أومأ باستخفافٍ.. قائلاً: "ذرهم يموتوا بغَيْظهم! هل من نبأٍ عن محمد ﷺ؟؟".

لم يُجبه حتى دلف إلى الوصيد.. ولَقِي صاحبيهما: (الصَعْصَعَة وربيعة)، تساءلوا ملهوفين: "ماذا وراءك.. يا أُوَيْس؟؟!".

أناخ الراحلة، ونزل عنها.. والعيون عالقة بجسده النحيل.. والقلوب مُعلَّقة بخبره.. والأسماع مُترقِّبة لحديثه.

---

[1] : الهَمِيس: صوتُ نَقْل أَخفاف الإبل.

[2] : الرُّغاء: هو صوت الإبل عندما تضجر.

رنا إليهم بنظراتٍ طال سكوتها.. فيما تحملق إليه عيونهم تستعلم عن الخبر وتحضُّه على الإفصاح والكلام، بعد لَأْيٍ.. انفرجت شفتاه واهتز لسانه.. واهتز معه قلب أبي بصير تَوَجُّساً.

- بلغتُ مكة.. وأهلها متراهنون على مائة بعير؛ يقول فريقٌ منهم: "إنَّ خيبر قرية الحجاز ريفاً ومنعةً ورجالاً وسلاحاً، وأنَّ ابن عبد المطلب سيُهزَم شر هزيمة تحت حصونها".
- .....
- ويقول الفريق الآخر: "بل الغلبة.. ستكون لمحمدٍ وأصحابه"، وتربَّص الناس.. ولا شاغل لهم خلا تحسُّس أخبار خيبر.. ومحمد!!
- وماذا.. بعد؟!!
- مَرّت أيامٌ.. ومكة على تلك الحال من الترقُّب والانتظار.. حتى أقبل عليهم الحجاج بن عِلاط السلمي.. قادماً من جهة خيبر؛ فقالوا: هذا الحجاج بن عِلاط.. عنده –والله- الخبر!!
- ومَن الحجاج بن عِلاط؟؟!
- سيد من سادات بني سليم[1]، وصاحب معادن الذهب التي بأرض بني سليم، ثري.. ذو مال كثير، وزوجه: أم شيبة بنت عمير بن هاشم العبدرية القرشية.. مِن أغنى نساء قريش!
- هل كان عنده.. مِن خبر؟؟!
- أجل! فحين أبصره القوم.. أقبلوا عليه قائلين: "يا حجاج! إنَّه قد بلغنا أنَّ القاطع قد سار إلى خيبر.. بلد اليهود وريف الحجاز!؟"،

[1] : بنو سليم: قبيلة عربية عدنانية، تقع منازلهم في الحجاز ما بين مكة والمدينة.

فأجابهم: "بلغني ذلك؛ وعندي من الخبر ما يسرُّكم!"، فأحاطوا براحلته والتزموه.. حتى يعرفوا خبره.

- وماذا.. قال؟؟

- قال: "لم يلق محمدٌ وأصحابه قوماً يحسنون القتال غير أهل خيبر، كانوا قد ساروا في العرب يجمعون له الجموع؛ فجمعوا له عشرة آلاف، فهُزِم هزيمةً لم يُسمَع قط بمثلها، وأُسِر محمدٌ أسراً، فقالوا: لن نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة؛ فنقتله بين أظهرهم بمَن قتل منا ومنهم!".

- .....

- ثم قال: "أعنوني على جمع مالي الذي على غرمائي[1]؛ فإني أريد أنْ أقدم فأصيب من فَلِّ[2] محمدٍ وأصحابه قبل أنْ تسبقني التجار إلى هناك!"، فقاموا فجمعوا له ماله كله الذي عند غرمائه، وهرعتُ – من فوري- أُبشِّركم بالخبر.

هلَّل الصَعْصَعَة صادحاً.. والفرحة تتلألأ في عينيه: "قد بطل السحر.. ورب الكعبة!!"، بينما طفر أبو بصير حانقاً.. وركل الأرض برجله.. وضرب الهواء بقبضة يده.. وهو يصرخ:

- كلا! هذا حديث كذب! الله أعلى وأجل.. مِن أنْ يكون مثل هذا!!؟

صاح فيه الصَعْصَعَة ناهراً:

---

[1] : أي: الذين عليهم له دين.

[2] : الجمع: فلول، وهو الجمع المنهزم.

- مَـهْ.. يـا أبـا بصـير! قـد انـبلج الحـق؛ وعلمنـا أنَّ محمداً سـاحرٌ، لكـنَّ سحره لم يغلب يهود خيبر، وقد أبطلوا سحره!!
- اخرس! قطع الله لسانك! بل هو.. رسول الله حقاً، والله لا يخذله!!

بـرق الغضـب في عيني مـأوى الصـعاليك، وهـمَّ أنْ يـبطش بصـاحبه؛ فقـام بينهما ربيعة، وحَثَّ رئيسه على التمسُّك بالحلم والأناة، ثم قال.. برَوِيَّة:

- يا مأوى الصعاليك! لنصبر حتى يرجع إلينا الصِمَّة من يثرب بالخبر اليقين!

*****

انصـرمت أيـامٌ ثلاثـة.. كأنَّهـا –ولياليهـا- شـهورٌ طويلـة، ولـم يـزل الصـعاليك الأربعة يتربَّصون عودة خامسهم -مِن يثرب- بالخبر اليقين.

أحـلام اليقظـة –خـلال تلـك الأيـام- مـا برحـت تـداعب خيـال مـأوى الصعاليك: (الغنيمة الباردة؛ يثرب وأموالها.. نُهْبَةٌ هينةٌ، وأهلها.. سبايا بين يديي!)، (نعـم! قـد أُسِـر محمد.. وتَشـتَّت جمـع أصحابه!)، (أضحت يثرب.. بلا جيشٍ يحميها أو يـدافع عنهـا!!)، (هـذه فرصـتي.. قبـل أنْ يتنبَّـه غيري لخُلُوِّهـا مـن جنودهـا، لابـد أنْ أُداهمها قبل أنْ يفيق أهلها من صدمتهم.. وأصيب من مغانمها!)، (بمغانمها وأسلابها.. أسـتعيد مكانتي التي كانت في سـالف الأيام!)، (ولتتحدَّث العرب -في أشعارها وأسـفارها- عن الصَعْصَعَة بن عامر: مأوى الصعاليك.. الذي سَبَى نساء محمد وغنم ماله!!).

أسكرته الأماني بنشوتها.. والخمر بمذاقها؛ فانبعث يُحرِّض أصحابه:

- مضت ثلاثة أيام.. ولم يرجع الصِمَّة، هَلُمّوا بنا إلى يثرب!

وتساءل ربيعة.. بنبرةٍ يشوبها التوجُّس والقلق:

- كان ينبغي أنْ يرجع قبل أُوَيْس؛ فيثرب أقرب إلى هنا من مكة!!؟

- صدقتَ –يا ربيعة- إنَّ غيابه لمريب!!

أقرَّه أُوَيْس.. حالما تمادى الصَعْصَعَة في تصديق أحلامه هاتفاً:

- أخاله اغتنم الفرصة السانحة.. ونسي أمرنا، وكأنّي أراه يتنعَّم في حدائق يثرب.. وينهب أموالها!

- كذبٌ.. كذب! وأيم الله.. إنَّه حديثٌ كاذب! (جأر أبو بصير.. مُستاءً مُستهجِناً).

فأجاب أُوَيْس.. كأنَّه ينفي تهمةً عن نفسه:

- تالله.. قد صدقتُكم، وحدَّثتُكم بحديث سيد بني سليم.. كما كان!

فصاح أبو بصير.. مُؤكِّداً –في إصرارٍ- صدق ظنّه بربه.. ورفضه لهذا الادعاء:

- يا قوم!! إنَّ الله أعلى وأجل.. مِن أنْ يخذل نبيه!

لكنَّ الصَعْصَعَة أجابه –وهو يحاوره- بلهجةٍ لاذعة عاذلة:

- أبا بصير!! قد استقام المنسم[1].. وعَلِمنا كذب ابن عبد المطلب؛ فدع هذا الدين الذي عنَّتك وأفسد عليك حياتك!

- .....

- هيا! هَلُمَّ معنا.. إلى يثرب؛ نَنهَل مِن مغانمها قبل أنْ ترجع إليها فلول جيشها المنهزم!! (خاطبه.. وهو يُشجِّعه ويَمُدُّ يده إليه ليُنهِضه).

---

[1] : استقام المنسم: أي: تبيَّن الطريق.

على أنَّ أبا بصير قعد.. وما قام معه، وظلَّ صامتاً.. ذاهلاً عن مجادلة رفيقه، حائر بين إيمانه بصدق نبيه وثقته في نصر ربه.. وبين ذاك الخبر المشئوم الذي يُكذِّبه قلبه.

أحسَّ الصَعْصَعَة بالإهانة لإعراض أبي بصير عنه وامتناعه عن تلبية رغبته؛ فأنشأ يزجره ويُهدِّده.. بنبرة توبيخٍ آمرة:

- انهض –يا عتبة- وانطلق معنا.. نُغِير على يثرب؛ وإلا.. فلستَ مِنّا!!
- ..... . لم يجبه.. ولم يُحرِّك ساكناً،

حبَّذ ربيعة أنْ يُوَفِّق بينهما؛ فأومأ إلى رئيسه أنْ سَكِّنْ غضبك.. وقال:

- دعه.. يا مأوى الصعاليك! لعلَّه جَزِع لهزيمة أصحابه؛ لنذهب نحن.. ونتركه يهدأ إلى أنْ نرجع!
- كلا!! لن أتركه حتى يَتبرَّأ مِن محمدٍ وأصحابه؛ فلا يكون له صاحبٌ غيري، وإلا.. فليس مِنّا.. ولسنا منه!!
- لن أتبرَّأ مِن محمدٍ وصحبه، ولن أترك دينه أبداً.. يا صَعْصَعَة!
- إذاً.. فليس بيننا سوى السيف! اسْلُلْ سيفك.. ودافع عن نفسك!! (صاح بها.. وهو يُشهِر سيفه.. بجِدّيّةٍ ناقمةٍ)
- على رِسْلِك.. يا مأوى الصعاليك! لا ينبغي أنْ يكون بيننا قتالٌ.. مهما اختلفنا!! (جأر ربيعة مُناشِداً.. وعَضَّده أُوَيْس)
- قد أَثَرَ علينا.. محمداً؛ فلم يعد فرداً مِنّا!! (أجابهما.. بأنفةٍ صارمةٍ)
- أكْرَه قتلك.. يا صَعْصَعَة؛ فاغمد سيفك، وذرني وشأني!

- أما أنا.. فأحب أنْ أقتلك إنْ لم ترجع عن موالاة مجدك هذا، فانهض.. وجَرِّدْ سيفك لتدفع عن نفسك؛ فإنَّ الصَعْصَعَة لا يقتل إلا محارباً! (صاح بها.. وهو يزجره بصفحة سيفه).

قام إليه أبو بصير –دون أنْ يستَلَّ سيفه- وهتف بنبرةٍ هادئةٍ لينةٍ:

- يا صَعصَعَة! إنّي راغبٌ عن قتالك.. لأجل مراتع الصبا وأيامها الخوالي؛ فدعك مني!!
- وإنّي –أقسم بآلهتي- راغبٌ في قتالك.. لأجل مراتع الصبا وأيامها الخوالي؛ فاسْلُلْ سيفك.. وبارزني!!

زعق بها.. وهو يَخِزه بنصل السيف في خاصرته.. كأنَّما يستفزُّه للقتال.

ثارت حفيظة أبي بصير ونفد صبره عليه؛ فامتشق سيفه، وزأر الصعصعة مخاطباً صاحبيه: "اخرجا معنا.. لتشهدا القتال!"، ثم خرجا إلى الفناء الذي أمام الغار.. يتبعهما أُوَيْس وربيعة في رهبةٍ وهلع.

تواجه الخصمان.. وعلى قاب قوسٍ ثبت الآخران يرقبان بأنفاسٍ محبوسة، غَشِيَ الصمتُ الجبل، وسكنت حركات هوامه.. كأنَّها ترتقب خاتمة النزال.

شرع الصَعْصَعَة يُلوِّح بالسيف بين يديه مختالاً بشدة ضربته ليَبُثَّ الرهبة في قلب خصمه؛ خصمه الذي كان –في غابر الأيام- إِلْف صباه، وفرَّقتهما نَوَائِب الدهر.. ثم ابن عبد المطلب ودينه الجديد، لن يأسف عليه إنْ قتله؛ فهو الذي خان.. وأبى إلا التَنَكُّر لأيام الصبا.

وراح أبو بصير يحدجه بنظرات التحدّي والإشفاق؛ تحدّي لكبره وخيلائه.. وإشفاق على ما كان بينهما من أُلفةٍ ومودة، كان يحب له أنْ يشرح الله صدره للإسلام.. ويُذعن للحق؛ فيصبحان أخوين في الإسلام والإيمان.. كما كانا أخوين في عهد الصبا.

هجم الصَعْصَعَةُ هجمةً مُفزِعةً، وطفق يضرب بالسيف -يميناً ويساراً- ضرباً شديداً؛ وطفق أبو بصير يتفاداه بخفةٍ ورشاقة، أو يتلقّاه –بثباتٍ- على نَصْل سيفه.. دون أنْ يردَّ الضربة بمثلها.

يزداد إصرار الصَعْصَعَة على القتال العنيف.. ويَتَّقد وجهه غضباً، يتطاير الشر من عينيه.. والشرر من ضربات سيفه، ويزداد أبو بصير تماسكاً.. ويبرق سيفه ثباتاً ورباطة جأش، يصطك السيفان.. ويغطي صليلهما سكون المكان، يتتابع وميض الضربة تلو الضربة، ويصرخ الهواء.. وتُردِّد جنبات الجبل صدى صراخه المُفزِع، وما كَلَّ الصعصعة.. وما وهن أبو بصير؛ حتى ظنَّ الشاهدان أنَّ النهار سينتهي.. دونما ينتهي ذلك القتال الشَرِس.

بيد أنَّ أبا بصير فاجأهما.. وباغت غريمه بضربةٍ خادعةٍ أطاحت بالسيف من يده، وأردفها بضربةٍ ثانيةٍ –بصفحة السيف- على ركبته.. فركَّعته، وثالثةً –بمقبض السيف- فوق رأسه.. فصرعته، انكسر الصَعْصَعَة.. وخَرَّ على الأرض مُجهَداً مُتألِّماً.. مُستسلِماً لقبضة أبي بصير الذي علاه بالسيف.

جمد الدم في عروق ربيعة وأُوَيْس، واختنقت الصيحات في حلقيهما؛ فيما يهدر الصَعْصَعَة بصوتٍ مُتحشرج.. اجتهد أنْ يُخفي ما فيه مِن ذعر:

- هيا.. أجهز.. يا عتبة!
- كلا! لا تقتله.. يا أبا بصير! (ناشده ربيعة.. بنبرة رجاءٍ ذات غُصّة).
- أكره.. أنْ أقتلك.. يا صَعْصَعَة!! (زمجر.. محاولاً كظم غيظه)
- لن.. أتوسَّل.. إليك.. (صرخ الصَعْصَعَة صرخةً يائسة)
- أسألك برب محمد.. ألا تفعل!! (صاح ربيعة.. مُتوسِّلاً)
- عرفناك شهماً كريماً؛ فاصفح عنه! (هتف أُوَيْس)
- إنّي مثلك.. لا أصدق أنَّ رب محمدٍ.. يتخلَّى عنه!!؟ (جأر ربيعة)

اِنْسَكَبت كلمته على قلب أبي بصير كالماء البارد؛ فأطفأت نار غضبه، قام عن خصمه الصريع.. مُنصرِفاً إلى ربيعة يستوثق مِن صدقه في مقالته:

- أ حقاً تُحسِن الظنَّ بمحمدٍ وربه.. يا ربيعة؟؟!
- أجل.. ورب الكعبة!!

أقبل عليه بوجهٍ طَلْق.. متناسياً القتال.. مُخلِّفاً خصمه وراءه مصروعاً:

- ألم يئن الأوان أنْ تُسلِم.. يا رجل؟!!
- بلى.. قد آن! كيف أدخل في هذا الدين.. يا أخي؟؟!

فغر فم أُوَيْس.. وحَدَّق فيهما مبهوتاً مما يسمع، عجز عن الكلام؛ فلوَّح بيده في وجه ربيعة.. كأنَّما ينهاه أنْ يفعل، بينما استأنف أبو بصير مُستبشِراً:

- اِشْهَد الشهادتين؛ تفز في الدنيا والآخرة!

- وكيف أشهد؟ ماذا أقول؟؟!
- قل: أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأشهد أنَّ محمداً رسول الله!

أشاح أُوَيْس وجهه عنهما مُتأفِّفاً.. مُستنكِر إذعان ربيعة لأبي بصير؛ فأبصر الصَعْصَعَةَ ينهض من رُقاده.. ويلتقط سيفه ويثب به على ظهر أبي بصير يريد أنْ يُباغته ويبطش به، لا إرادياً.. يصرخ: "احذر.. أبا بصير!!".

يلتفت أبو بصير خَلْفه حيث يُشير الصارخ.. فيجد الصَعْصَعَة يرفع سيفه الغادر الحاقد.. ليهمَّ به، ينحرف أبو بصير جهة اليمين؛ فينفلت من الضربة القاتلة؛ لكنَّها تصيب ذراعه اليسرى، يكظم أبو بصير صرخة تألُّمه.. حالما يصيح ربيعة في الصَعْصَعَة زاجراً:

- اُكْفُفْ.. يا صَعْصَعَة! قد أبقاك الرجل.. وهو قادرٌ عليك!!

بيد أنَّ الصَعْصَعَة لم ينزجر، وإنَّما عاجل أبا بصير بضربةٍ ثانيةٍ؛ وأيضاً.. انفلت منها، وأخذ –بإصرارٍ واستماتةٍ- يُتبِع الثانية بثالثةٍ ورابعةٍ.. عازماً على الفتك بأبي بصير الذي ما انفك يتحاشى ضرباته المتوالية.. ويروغ منها بحنكةٍ واقتدارٍ -رغم ذراعه المصابة- حتى صادف منه غِرَّةً؛ فلفح نحره بظُبة[1] سيفه، انتفض الصَعْصَعَة مُتألِّماً من حَرِّ اللفحة، وارتجف جسده.. وألقى سيفه من يده.. قابضاً بكلتا يديه على نحره الذي راح يشخب دماً، أعرض عنه أبو بصير.. وأسند ظهره إلى صخرةٍ مُجاورة.. محاولاً التقاط أنفاسه اللاهثة؛ حالما تسمَّر ربيعة في مكانه تأثُّراً مِن هَوْل المشهد.

---

[1] : الظُبة: حد السيف والسنان والخنجر وما أشبهها.

بيد أنَّ أُوَيْس –الذي كان أحضر بديهة- أسرع إلى سيف الصَعْصَعَة المُلقَى على الأرض.. وذَفَّف به على رئيسه.. مُتمتِماً:

- الآن.. وَجَبَ قَتْلك.. يا صَعْصَعَة!!

صرخ الصَعْصَعة صرخة الموت، وصرخ ربيعة مُتفجِّعاً:

- ويحك.. أُوَيْس! ماذا.. فعلتَ؟؟!

سكت أُوَيْس.. ولم يجبه، وسكت الصريع ميتاً.. وسكت ربيعة.. وسكت أبو بصير؛ وسكن الكون.. من حولهم.

*****

اشتدت حرارة الجبل.. وأضحت صخوره كأنَّما تنفث في الوجوه نيراناً لافحة، وسكنت رياحه وأنسامه.. حتى ثقل هواؤه الراكد على الأنفاس.

ثم انسلَّت ساعات النهار وئيدة.. والثلاثة نفر ذاهلون.. مُتسمِّرون حول الجثة التي ما برح نحرها ينزف دماً.. حتى تَلطَّخت الأرض -من تحتهم- بالدم، وتلوَّنت السماء -من فوقهم- بلونه الداكن، وكسفت شمسها وراء غيومه المُظلِمة المُحزِنة؛ أو هكذا.. صُوِّر المشهد في أعينهم التي جمد فيها الدمع.

أطبق الصمت عليهم.. فكأنَّ ألسنتهم خرست، بل.. كادوا يتوهَّمون أنَّ أسماعهم صمَّت.. لولا أنَّهم يسمعون أنفاسهم الحارة حائرةً في صدورهم، وبين الحين والحين.. يطرق سمعهم طنين ذبابة.. أو فحيح أفعى.. أو اصطكاك حجارة تهوي في مكانٍ سحيق.

سعى أُوَيْس إلى تمزيق غلالة الوجوم التي خنقت أنفاسه؛ فقام إلى أبي بصير قائلاً: "ينبغي أنْ تضمد جرحك هذا!!؟"، ثم شرع يعالج الجرح، استسلم له أبو بصير.. فيما طفق ربيعة يُفرِّق نظراته الآسفة بينهما وبين جثة رئيسهم المُدرَج في دمائه، ثم همس بأسى:

- يجب أنْ ندفن هذه الجثة!!

وافقاه.. وأقبل أُوَيْس على الجثة ينزع عنها درعها وقِراب سيفها.. ويخلع عنها ما ينفعه من ثيابها، ثم دفنوها.. ثم انقلبوا إلى مغارتهم مُتجهِّمين.

انزوى أُوَيْس بربيعة.. ليهمس في أُذنه:

- أ حقاً تريد أنْ تفارق دين قومك.. وتتَّبع دين أبي بصير؟؟!
- قد أيقنتُ أنَّه الدين الحق.. يا أُوَيْس!!
- تريَّث!! ولا تفعل.. قبل أنْ يرجع إلينا الصِمَّة.. بخبر يثرب!
- لن يُغيِّر ذلك من رأيي!!
- لكنَّه سيُغيِّر رأيي أنا؛ فأستحلفك بإلهك الذي تعبد: لولا تمهَّلتَ إلى أنْ يعود الصِمَّة؟ ثم افعل ما بدا لك!!
- أنت خبيثٌ.. يا أُوَيْس! إنَّك تخشى أنْ أُظاهر عليك أبا بصير إنْ صِرتُ على دينه؛ لذا تحب أنْ أنتظر عودة الصِمَّة لتكونا معاً ضدنا؛ أليس كذلك؟!!
- كلا.. أيها الأحمق! وهل آمن أنْ تُناصره عليَّ ولو لم تكن على دينه؟؟ وهل ترى أنّي أنا وأنت نقدر على رجلٍ قتل الصَعْصَعَة بن عامر؟!
- لِمَ –إذاً- ترغب أنْ أَتلكَّأ في اتباع ذاك الدين؟؟!

- إذا جاء الخبر من يثرب بأنَّ محمداً انتصر على يهود خيبر.. الذين هم أهل الكتاب وأعلم أهل الأرض؛ فإنَّه نبي.. ودينه هو الدين الحق، وإذا كان كما علمتُ في مكة؛ فإنَّ دينه ليس خيراً من دين يهود.. ولا من دين آبائك؛ فلِمَ تستبدل بدينك ديناً آخر.. ليس خيراً منه؟!!
- لا أدري كيف أُجيبك؛ فقد هيَّجتَ الحيرة في صدري!!؟
- إذاً.. تريَّث.. كما أنصحك!

أطرقا برهة.. ثم رفع أُوَيْس بصره إلى أبي بصير -الذي لم يزل واجماً.. ذاهلاً عمّا يفعلان- وناداه هاتفاً: "أيا.. مأوى الصعاليك!!"، حدجه ربيعة بارتياب.. فيما رمقه أبو بصير مُستغرِباً؛ فاستطرد قائلاً:

- علاما تنظران إليّ.. هكذا؟؟ قد قاتلتَ الصعصعةَ وغلبتَه؛ فحقك أنْ تكون أنت مأوى الصعاليك، ولك علينا ما كان له من الطاعة والاتباع؛ أليس كذلك.. يا ربيعة؟؟
- .....
- وكذلك.. يَؤُول إليك كل ما كان يملك: هذا الغار.. وذاك البعير.. والجواد الذي خرج به الصِمَّة، أما سَلَبه: فإنّي أطمع أنْ تهبه لي –يا مأوى الصعاليك- لأنني مَن ذَفَّفتُه!!؟
- ماذا تقول.. يا أُوَيْس؟؟! (تساءل ربيعة مُتعجِّباً.. مُستنكِراً)
- ما أقوله.. هو الحق الذي لا مراء فيه!

هتف يجيب بها ربيعة.. وهو ينهض إلى ثياب القتيل وسلاحه كي يحتفظ بهم لنفسه، راح يقيس الثوب المُسربَل بالدم على جسده.. فألفاه واسعاً طويلاً،

ثم يلبس الدرع.. ويتنطَّق بحزام السيف في خصره، وربيعة ينظر إليه مُشمئِزّاً.. بينما أبو بصير واجمٌ.. مُنصرِفٌ عنهما.

غشيهم الليل.. وفرَّق بينهم ظلامه، وسرعان ما تسلَّل النوم إلى جفون أُوَيْس وربيعة.. فاستسلما له، بيد أنَّه جافى أبا بصير؛ فلبث يتقلَّب في مضجعه حائراً.. مُضطرباً، قام إلى تَهجُّده بنفسٍ خائرة وعقلٍ شارد، وبات ليلته مُستجيراً بربه لائذاً به.. راجياً عفوه.. ونصره لنبيه وأصحابه.

ثم أصبحوا.. وقد توافقوا –دونما اتفاق- على التربُّص.. حتى يرجع الصِّمَّة.

*****

الأيام تَمُرُّ ثقيلةً ضَجِرةً.. حتى على أُوَيْس الذي بدا وكأنَّه مُبتهجٌ بمقتل رئيسه السابق.. وبالخلاص من تَسلُّطه عليه؛ فظلَّ يُنفِق نهاره في إعداد الطعام.. والتقامه -بشراهةٍ- المرة تلو المرة.. مُتلذِّذاً مُغتبِطاً، ثم في التربُّص بين سفح الجبل وشعابه، حتى إذا داهمه الليل وظُلْمَته.. أَوَى إلى دَنِّ الخمر وبات يحتسي منه بنَهَمٍ.. إلى أنْ تدور رأسه وتثقل جفونه.. فيرتمي في فراشه.. ويَغِطّ في سباته؛ فتراه كأنَّه: قُطْرُبُ[1] نهارٍ.. جِيفةُ ليل.

ذات يومٍ.. اشتهت نفسه لحم الجزور؛ فكلَّم أبا بصير:

- أيا مأوى الصعاليك! هَلاَّ تذبح لنا ذاك الجمل؛ فنطعم اللحم والمرق، فإنَّ نفسي.. قد عافت الخبز والعسل!!

امتنع عليه أبو بصير.. ونهره:

---

[1] : القطرب: ذبابة لا تفتر عن الحركة.

- لا.. لن أفعل! أما علمتَ –أيها الأكول الشره- أن ليس لنا دابةٌ سوى هذا البعير؟!!
- بل.. ما زال لنا الجواد الذي ذهب به الصِمَّة!!؟ (أجابه.. بإلحاح)
- كلا!! حتى يرجع الصِمَّة.. والجواد! (زجره.. بإصرارٍ على الرفض)

أَيِس منه.. فانصرف إلى ربيعة يُغريه بالخروج معه للصيد، بيد أنَّه صدَّه.. وتأبَّى عليه؛ فنزع يده من كليهما مُتبرِّماً.. وغدا يَصِيد الجرذان والحيّات.

أما ربيعة.. فمكث ينتظر عودة الصِمَّة –مِن يثرب- بالخبر الذي تنقشع به الظلمات.. ويفرق بين الهدى والضلال، وخلال تلك الأثناء.. جعل يراقب –صامتاً.. في حسرةٍ وإشفاق- أبا بصير الذي أضحى مهموماً مضطرباً، زاهداً في الحياة.. يترقَّب خبر يثرب كمثل المحتضر يرجو عودة الروح إلى جسده.

بعد مرور أيامٍ.. لم يحصوها –وإنْ عدّوها طويلة- سمع أبو بصير دبدبة حصان، ثم شاهده أُوَيْس يصعد في الجبل، هرع ثلاثتهم إلى حيث يبصرونه جيداً، شرعوا ينظرون؛ وهتف أبو بصير مُتحمِّساً: "كُنْ.. الصِمَّة!"، تقدَّم ربيعة إلى الأمام.. وجعل يتطلَّع إلى راكب الجواد من بعيد، حدَّق فيه.. ثم صاح: "إنَّه.. هو!! إنَّه الصِمَّة.. ورب الكعبة!".

تمتم أبو بصير مُتضرِّعاً: "اللهم.. بشِّرني بالخير والظفر!".

*****

دنا منهم.. فترجَّل عن صهوة الجواد، تطلَّعوا إليه.. وهو يمشي إليهم، وأسرَّ أُوَيْس في نفسه: (أشهد أنَّك رجعتَ بغير الوجه الذي ذهبتَ به.. أيها الجِلْف!).

حَيّاهم بوجهٍ طَلْق، وأقبل عليهم.. مُعانِقاً بترحابٍ وبشاشة، حدجه أُوَيْس بنظراتٍ مُتوجِّسة.. وتساءل ربيعة –والدهشة تعلو وجوه ثلاثتهم-:

- ماذا دهاك.. يا صِمَّة؟!! حدِّثنا.. ما خبرك؟!
- لم تكن ليناً أنيساً –هكذا- مِن قبلُ!!؟ (أضاف أُوَيْس.. مُستريباً)
- على هَوْنِكما! هل تنقمان مني أنْ ألقاكم باشّاً.. بعد هذا الغياب؟!!
- نتعجَّب: كيف أصبحتَ سَمْحاً.. بعد أنْ كنتَ فظاً غليظاً؟!!
- وما العجب في أنْ يَتخلَّق الرجل.. بالخُلُق الحسن؟؟!

تبسَّم ربيعة.. هاتفاً: "لا عجب!"، ثم أردف.. في استبشار:

- حدِّثنا.. بما لديك من أخبار!؟
- عندي أخبارٌ عظيمة! أين الصَعْصَعَة.. ليسمع معكم؟؟

تبادل أبو بصير وربيعة نظراتٍ واجمة.. فيما أجابه أُوَيْس في ثباتٍ:

- لن يأتي الصَعْصَعَة.. الحين؛ فنَبِئْنا بما عندك!!

لم يتوجَّس من غياب رئيسهم؛ فانبعث يصدح.. وعيونهم تجحظ تلهُّفاً:

- الحمد لله.. نصر الله رسوله، وفُتِحت خيبر!
- الحمد لله!! (جأر أبو بصير مُنتشِياً.. كأنَّما أسكرته الفرحة)

في حين رمقه ربيعة مُندهِشاً.. وسأله أُوَيْس مُتهيِّباً:

- ماذا تقول؟!! هل صبأتَ.. يا صِمَّة؟؟!
- بل.. هداني الله إلى الإسلام.. والحمد لله! (هتف بارتياحٍ وثقة)

هلَّل أبو بصير.. وقبَّل رأسه.. والتقطه في أحضانه، وما قدر أنْ يكبت دمعة الفرح التي طفرت من عينه، بينما سأله ربيعة باهتمامٍ:

- هَلُمَّ.. خبِّرنا بتفاصيل ما جرى!!
- بما أُخبركم.. يا هذا؟؟ قد مَنَّ الله على رسوله ﷺ ونصره على عدوه.. وفتح له خيبر.. وغنم أصحابه مغانم كثيرة.
- كيف هذا؟ قد بلغنا غير الذي تقول!؟؟ (تساءل ربيعة مُستوثِقاً)
- وماذا بلغكم؟؟!

فأجابه أُوَيْس.. بتردُّدٍ مكبوت:

- لقد سمعتُ بأُذني الحجاج بن عِلاط –سيد بني سليم- في مكة يُعلِن أنَّ يهود قد هزموا محمداً وأصحابه شر هزيمة، وأنَّه أسيرٌ في أيديهم!
- قلتُ لك: هذا حديث كذب! (صاح أبو بصير.. في حَمِيَّةٍ)
- والذي نفسي بيده.. قد نبَّأتُكم بالحق.. الذي لا شك فيه، ولقد خلَّفتُ أهل المدينة يحتفلون ويتهيّؤون لاستقبال النبي.. بعد أنْ جاءهم البشير يقول: قد افتتح النبي ﷺ خيبر.. وذلَّ له يهود.. وغنم أموالهم، واصطفى ﷺ لنفسه صفية بنت عظيمهم حيي بن أخطب.. وخيَّرها بين أنْ يعتقها وتكون زوجه أو أنْ تلحق بأهلها؛ فاختارت أنْ تكون زوجه.
- الحمد لله.. نصر نبيه وأعز جنده، حدِّثنا –يا صِمَّة- كيف أسلمتَ!؟ (هتف أبو بصير.. بانشراح نفس).
- بِمَ أُحدِّثك؟! لقد نزلتُ يثرب؛ فرأيتُ عجباً: رأيتُ أناساً يعبدون الله كما لم يُعبد مِن قبلُ، رأيتُ أقواماً يتحابون.. ويتوادُّون..

ويتراحمون فيما بينهم.. وما رأيتُ كمثلهم قط، رأيتُ النور.. بعد الظلام –يا أبا بصير-، رأيتُ الحُسن.. بعد القُبح!!

- لكن!! لماذا عُدتَ بعد أنْ صرتَ من أتباع محمدٍ؟!! (تساءل أُوَيْس)
- استحييتُ أنْ يُصيبني هذا الخير العظيم.. ولا أدلّكم عليه!
- أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأشهد أنَّ محمداً رسول الله!!

صدح بها ربيعة.. وطفق يُردِّدها.. ويرفع بها صوته، وجعل أبو بصير والصِّمَّة يردِّدان معه.. ويهلِّلان.. ويحمدان الله، وقفز ثلاثتهم.. فرحين كالأطفال، وتعانقوا.. وقبَّل بعضهم رأس بعض، وأُوَيْس قائمٌ بين أيديهم.. جامداً مُلجَّماً.. لا يدري: ما يفعل.. ولا ماذا يقول!!

*****

هدأت فرحتهم.. وتنبَّهوا من نشوتهم، قَدَّموا الصِّمَّة بين أيديهم –ترحيباً به- إلى داخل الكهف، جلس ثلاثتهم مغتبطين؛ بينما رابعهم مكبوت كما لو كان منبوذاً، رنا إليه أبو بصير، ثم هتف.. كأنَّما يُطيِّب خاطره:

- لا ترتاع.. يا أُوَيْس! رغم أنّي أحب لك الإسلام؛ لكن.. لن نُكرِهك على الدخول فيه!!
- أنعم بكم من أصحاب، كيف لا أرضى لنفسي ديناً ارتضيتموه لأنفسكم؟! إنّي معكم على دينكم!!

هلَّل ربيعة والصِّمَّة طرباً وسروراً.. وصاح أبو بصير مُبشِّراً:

- فاشهد الشهادتين؛ تكن من الفائزين!!
- أشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأشهد أنَّ محمداً رسول الله!

ردَّدها أُوَيْس، وردَّدوا معه.. متفائلين مسرورين، ثم خاطبه ربيعة مُمازِحاً:

- ولأجلك –أيها المسلم الأكول- سأخرج للصيد.. غداً!!
- الحمد لله الذي ردَّنا من الكفر إلى الإيمان! (جأر أبو بصير بخشوع)
- ليت شعري.. أين الصَعْصَعَة ليشهد معنا الخير؟؟! (تساءل الصِمَّة)

تَجهَّم الآخرون.. وأطرقوا؛ فتوجَّس.. واستنبأهم عن خبر الصَعْصَعَة؛ فسرد عليه ربيعة ما كان منه.. وإصراره على قتال أبي بصير وقَتْله.

طأطأ الصِمَّة رأسه.. وسكت مدة، ثم تمتم: "أحببتُ أنْ يهديه الله للإسلام؛ لكنَّ الله يهدي مَن يشاء!"، ثم انتفض –كأنَّما ينفض عنه وعنهم غبار الأسى والحزن- وهتف بنبرة تحضيضٍ حماسية:

- هيا بنا.. نهاجر إلى المدينة.. لنلقى رسول الله ﷺ.. ونجاهد معه!!
- على رِسْلِك –يا صِمَّة- قد علمتَ أنّي مُبعَدٌ عن المدينة، ولا يمكن أنْ ألحق بالنبي.. لشرط الصلح الذي بينه وبين قريش!
- حقاً!! قد نسيتُ هذا!!
- وأنا مثل أبي بصير؛ فقد علمتُ أنَّ قومي دخلوا في عهد قريش، ولو علموا بإسلامي؛ فسوف يُرسلون في طلبي!!؟ (ردَّد ربيعة)
- ورسول الله ﷺ لا يُخلف عهده!! (جأر أبو بصير)
- فما العمل؟؟! (تساءل الصِمَّة.. مُتحيِّراً)

فأجاب أُوَيْس على البديهة.. كطفلٍ ساذجٍ:

- نخرج للصيد.. غداً، ونبقى -كما نحن- صعاليك مسلمين!

**********

# -الفصل الخامس-

انقسموا إلى فريقين: فأما الصِّمَّة وأُوَيْس فمكثا في الكهف ينظفانه.. ويطهّرانه من الدنس والنجاسات.. حتى أنَّ الصِّمَّة أَصَرَّ على التخلُّص من آنية الخمر لكيلا تَضعُف نفوسهم.. فيشربوا منها وهي حرامٌ عليهم؛ وحمل الدَّنَّ فوق كتفه، ثم أهرقه حتى تبدَّدت الخمر في شِعاب الجبل.. فيما ينظر إليه أُوَيْسُ مُتغيِّظاً.. (ويَسُبّه والخمرَ معاً.. في سريرة نفسه!)، ثم شرعا يُهيِّئا –في إحدى الجنبات- مسجداً ليقيموا فيه الصلاة.

أما أبو بصير وربيعة.. فقد تجهَّزا وخرجا للصيد، لبثا يوماً وليلة ثم نهاراً ثانٍ.. ولم يتمكَّنا من اصطياد أي فريسة، تضجَّر ربيعة.. وهتف قانطاً:

- لنا يومان وليلة.. ولم يرزقنا الله بصيدٍ تناله أيدينا!؟ أ وبعد أنْ أصبحنا مسلمين؟؟!
- أيا ربيعة! هل أسلمتَ ليُيسِّر لك الله اصطياد الفرائس؟؟! بئس المسلم.. ذاك الذي يبتغي بإسلامه عَرَضاً زائلاً من الدنيا!!؟
- يا أبا بصير! ألا تذكر: لقد خرجتَ فاصطدتَ –في نصف نهار- وعلاً لم أر في حياتي أضخم منه؛ وقلتَ أنَّ هذا رزقٌ ساقه الله إليك لأنَّك آمنتَ به! وها نحن أولاء نؤمن به؛ فلِمَا لَمْ يرزقنا منذ يومين؟
- وهل نَمُنّ على الله إسلامنا.. يا ربيعة؟!! (تساءل مُستنكِراً مُعاتِباً).. ثم أردف: "بل.. لله المِنَّة علينا أنْ هدانا.. بعد أنْ كنا من الضالين! استغفر ربك –يا رجل- إنْ كنتَ تزعم أنَّك.. مؤمنٌ!!".

- أستغفر الله! إنّي مؤمنٌ حقاً.. يا أبا بصير! لكن.. ألا يطمع المؤمن في عطاء ربه؟؟!
- العطاء الحق الذي يرجوه المؤمن.. هو الجنة –يا ربيعة-: **الجنة**!
- لا ريب.. أرجو الجنةَ.. يا أخي! لكن.. تلك في الدار الآخرة؛ أليس لنا ما نرجوه ونطمع فيه مِن نعيم الدنيا؟؟!
- اسمع مِني -يا ربيعة- فلقد لبثتُ مع أصحاب النبي في المدينة حيناً، ولقد حدَّثني عبد الله بن سهيل.. عن رجالٍ مِن الأنصار.. أنَّهم قالوا عن بيعة العقبة الثانية: "أسلمنا قبل أنْ يهاجر النبي ﷺ إلى يثرب حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رهطٌ من المسلمين يُظهرون الإسلام، ثم قلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرَد في جبال مكة.. ويخاف؟!، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدناه شِعب العقبة، فاجتمعنا عليه.. فقلنا: يا رسول الله! علام نبايعك؟ قال: على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى أنْ تقولوا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أنْ تنصروني إذا قدمتُ إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.".
- ..... .
- أ سمعتَ.. يا ربيعة؟؟! بايعوه على التضحية بكل شيءٍ؛ وليس لهم إلا الجنة، **الجنة فقط**.. يا أخي! هل تدري بما أجابوه؟؟
- ..... !!؟

- قالوا: والله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نُسلَبها أبداً، وقاموا إليه.. فبايعوه، فأخذ عليهم وشرط، ويعطيهم على ذلك: **الجنة**!!
- لله دَرُّكَ.. أبا بصير! إنّي ما زلتُ أتعلم هذا الدين، ولكن.. أرضى لنفسي ما يرضاه أولئك الأكارم!
- أما وقد قُلتَها! فاصبر.. واستعن بالله عسى أنْ يرزقنا رزقاً حسنا!

*****

باتا ليلةً ثانيةً في العراء.. يترصَّدان صيداً.. ربما يَمُرّ بين أيديهما، صلَّيا العشاءين.. وما شاء الله لهما من قيام الليل، ثم أغمض ربيعة جفونه.. وهو يبتهل إلى الله أنْ يرزقهما صيداً يطعمهم جميعاً.. ويسدّ جوعهم.

واضطجع أبو بصير على كثيب رملٍ؛ لكن.. هجر النوم عيونه، وجال في خَلَده ذكريات الأيام المعدودة التي قضاها في المدينة مع عبد الله بن سهيل.. وأصحاب النبي، وجال في عينيه دمع الحنين والشوق.

ثم تذكَّر –فيمَن تذكَّر- أبا جندل؛ صديقه الذي خلَّفه حبيساً في مكة.. بعد أنْ تعاهدا معاً على الهجرة إلى مدينة الرسول ﷺ: (عذراً.. أبا جندل! قد شُغِلتُ بنفسي.. عما تعاهدنا عليه!)، (عذراً.. يا أخي الحبيب! قد شُغِلتُ بنفسي عن نصرتك!!)، (كلا.. كلا!! لا عذر لي.. وقد ذكَّرني الله الآن.. بعد أنْ أوشكتُ أنسى!!)، (نعم!! لا عذر لي –يا أخي الحبيب- إلا أنْ أُنفِّذ ما تعاهدنا عليه!!)، (لكن.. كيف؟؟! هل أغزو مكة.. وأقتحم على قريش وبني عامر بن لؤي عقر دارهم.. واستنقذ أبا جندل من أيديهم؟؟!)، (هل أقدر على هذا؟!!)، (أجل.. أقدر!)، (ولِمَ لا أقدر والله معي؛ أستعين بالله.. وسيُعينني؟!!)، (لكن.. إنْ نجحتُ واستخلصتُه من بين أظهرهم؛ هل يمكنه

الذهاب إلى المدينة؟؟!)، (لا!! سيردُّه النبي ﷺ إليهم كما ردَّني! فما الفائدة –إذاً- من تلك المغامرة؟!!)، (وإنْ!! أدنى الخير أنْ أستنقذ أخي من بين أيدي الكافرين.. فلا يُفتَن عن دينه!!)، (توكلتُ على الله! صبراً.. يا أبا جندل؛ إنّي قادمٌ لنجدتك.. إنْ شاء الله!).

انتبه من إغفاءةٍ عابرةٍ.. على يد ربيعة التي تَهُزّه وتُوقظه.. وصوته الذي ينادي: "قم.. أبا بصير.. لنُصلِّي الفجر قبل أنْ تشرق الشمس!"، ما عتَّم أنْ أفاق -من غفوته- بعد أنْ قضى غالب ليلته في صراعٍ مع أفكارٍ مُؤرِّقة.. شَتَّتت ذهنه، نهض إلى وضوئه.. وسرعان ما أَتَمّا صلاتهما.

لم تكد الشمس تَهُبُّ من سُباتها، وبينما يسابقانها -قبل أنْ تتربَّع فوق عرشها في كبد السماء- مُرتحِلَين إلى بقعةٍ أخرى.. علَّهما يعثران على ما ينشدان؛ بينما هما كذلك.. إذ لمع ضوء الشمس مُنعكِساً في عين ربيعة، تنبَّه.. ومَدَّ بصره صوب الضوء اللامع؛ انفرجت أساريره سروراً.. ونكز صاحبه –في صمت- رامزاً إليه أنْ انظر عن يمينك، نظر أبو بصير.. فرآها: بياضها لامعٌ.. وجسدها سمينٌ، بنيتها قويةٌ.. وعنقها عريضٌ، شعرها قصيرٌ.. وعيونها واسعةٌ أَخَّاذَةٌ، ذيلها طويلٌ.. وقرناها حادان نحيلان طويلان.

ابتسم أبو بصير.. وأَسَرَّ إليه: "أبشر.. يا جوعان! إنَّها.. مَهَاةٌ[1] عظيمةٌ!!

---

[1] : الجمع: مَها ومَهوات، والمَهَاة: هي بقرة وحشية.. تتميز بلونها الأبيض الناصع وعينها الواسعتين وقرنها الطويلين.. وجسدها القوي الضخم.. وكذلك سرعتها الشديدة، كانت منتشرة في الجزيرة العربية.

أومأ إليه ربيعة أنْ أُسكت.. وجذبه ليستترا عنها بـدَرِيئةٍ[1] وراء كثيبٍ، ثم همس: "لا نجونا.. إنْ نجت من أيدينا!!"، فأجابه مُخافِتاً: "سَمِّ.. باسم الله!". وتربَّصا بها.. فيما هي غافلةٌ عنهما.. تأكل مِن عشب الأرض.

*****

أقبلا على كهف الجبل يحملان صيدهما السمين، لقيهما الصِّمَّة مُرحِباً ومُهلِّلاً، رمق الفريسة البدينة.. بإعجابٍ، ثم هتف.. مادحاً:

- أنعم بكما مِن صائدين ماهرين؛ هذه المَهَاة الضخمة –إنْ شاء الله- تُشبِعنا أياماً!
- اقتنصناها.. ببركة اسم الله! (أجابه ربيعة.. مُغتبِطاً)

طاف أبو بصير بنظراته في جنبات المَغَارَة، ثم أشاد بما يراه.. قائلاً:

- ما شاء الله.. لا قوة إلا بالله! صارت.. كأنَّها جنةٌ!!
- وعزلنا هذا المسجد.. ليكون طاهراً ومُهيَّأً للصلاة في كل وقت! (صدح الصِّمَّة.. مُشيراً إلى جهة المصلى)
- أحسنتما.. صنيعاً! أين أُوَيْس؟؟ (قال ربيعة)
- أراد أنْ يختلي بنفسه؛ فصعد إلى تلك الصخرة.. في أعلى الجبل!
- ما شأنه؟ هل أحزنتَه.. في شيءٍ؟؟! (استفهم أبو بصير)
- أحسبه حزيناً على الخمر.. الذي سفحتُه! (أجاب الصِّمَّة باستخفاف)
- أما عَلِم أنَّ الله حرَّم علينا.. الخمر؟!! (استهجن أبو بصير)

---

[1] : دريئة: ما يستتر به الصائد ليخادع فريسته.

- قد عَلِم! وأخذ يَسُبّ الخمر لأنَّها مَلكت عليه نفسه، ويخشى أنْ تَضعُف عزيمته.. ولا يقدر أنْ ينتهي عنها!
- فليستعن بالله؛ وسينتهي عنها –إنْ شاء الله- بحول الله وقوته!
- لنذهب.. نُسلِّم عليه! (هتف ربيعة بنبرةٍ تحضيض)
- اعلما أنَّه.. أصبح –اليوم- صائماً!

جأر الصِمَّة بها.. فيما يتوجَّهون إلى صاحبهم؛ فصاح ربيعة مازحاً.. ومُتعجِّباً: "أُوَيْس الأكول.. صائمٌ؟! إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب!!".

صعدوا مُتسلِّقين صخر الجبل.. حتى بلغوا إلى مجلسه، ألقوا عليه السلام.. فما أجابهم، نهره الصِمَّة.. صائحاً:

- رد السلام على مَن سلَّم عليك.. أيها البائس!
- وعليكم السلام.. ورحمة الله.. وبركاته!
- ما خطبك.. يا أُوَيْس؟ ما يُحزِنك.. يا أخي؟؟! (سأله ربيعة بنبرة مودة.. حالما يرتقي ليجلس إلى جانبه).
- اعلموا أنَّ أُوَيْس لن يُهزَم، والخمر اللعينة.. لن تكسرني!! (صدح مُنفعِلاً.. كأنَّما يريد أنْ يُسمِع شِعاب الجبل وصخوره).
- ثق –يا أخي- أنَّ الله معك.. وسيقوِّيك عليها لو كنتَ صادق العزم!
- يعلم الله.. أنّي صادقُ العزم!!
- ألا تسأل: بأي طعامٍ عُدنا إليك؟؟!
- إنّي.. صائمٌ!!

- الصِّمَّة.. أخبرنا، وسررتُ بذلك.. لأنَّك اعتزمتَ أنْ تغالب شهوات نفسك؛ وسوف تتغلَّب عليها.. إنْ شاء الله!
- أنت رجلٌ صالح.. يا ربيعة! ادع الله لي أنْ أكون مؤمناً صادقاً!!
- أنا وأنت.. حديثا عهدٍ بالإسلام، وأسأل اللهَ لنا.. الثبات على دينه!!
- أشعر مذ أسلمتُ.. وكأنّي وُلِدتُ من جديد؛ لولا العَنَت الذي أصابني.. بامتناعي عن الخمر!!؟
- استعن بالله –يا أخي- واصبر؛ فإنَّما الصبر.. بالتصبُّر! (هتف مُشجِّعاً).. ثم استطرد: "تعال.. لترى الصيد السمين.. الذي أصبناه ببركة اسم الله!".

*****

نزل أُوَيْس مع ربيعة إلى غار مأوى الصعاليك.

عند الوصيد.. رأى الفريسة الضخمة؛ فما أظهر بها عظيم اهتمام، وإنَّما أثنى على صاحبيه باقتضاب.. قائلاً: "شكر الله لكما!".

طفقوا يُقسِّمون فريستهم.. ويرتّبون لتقطيعها وأكلها طازجة وادخار ما يبقى منها في صورة قديد، ثم مضى ربيعة يُعِدّ لهم الطعام.. يعاونه الصِّمَّة؛ فيما عكف أبو بصير يُعلِم أُوَيْس بعض تعاليم الاسلام.. وشيئاً من القرآن.

وأثناء ذلك.. دخل وقت العصر؛ فقام أُوَيْس -الذي تراضوا على أنْ يكون مُؤذِّنهم للصلاة- فأذَّن لصلاة العصر.. ثم أقام، وأَمّهم أبو بصير.. فهو أعلمهم بالقرآن وبشريعة الإسلام، ثم دخل وقت المغرب؛ فصلُّوا.. ثم جلسوا يأكلون مع صائمهم.

فرغوا مِن مائدتهم الشهية.. وحمدوا الله على ما رزقهم من الطعام، ثم تكلَّم أبو بصير.. فقال على استحياء:

- أيا.. أخوتي! أ رأيتُكم لو التمستُ منكم المعونة والنصرة؛ أ كنتم ناصري؟!!
- يا مأوى الصعاليك! أنت رئيسنا إبّان الكفر.. وبعد الإسلام؛ ولك علينا النُصْرة والمؤازرة!! (أجابه أُوَيْس)
- لا أحب أنْ تدعوني.. بهذا اللقب.. يا أُوَيْس!!؟
- يا أبا بصير! لقد سخَّرك الله لنا.. ليهدينا إلى الإسلام، وقد أصبحنا بأُخُوَّة الإسلام والإيمان.. أشدّ صلةً مِن قبلها! (خاطبه ربيعة بلهجةٍ جَادّة).. ثم أردف: "وإنّي أقول لك: لو كانت تلك المعونة والنُصْرة التي تبغي.. تُقرِّبنا إلى ربنا؛ فإنّي معك.. بنفسي وسيفي!!".
- تالله.. لا أرجو بها سِوَى وجه الله.. وإنفاذ الوعد!
- إذاً.. نحن معك!! (جأر ثلاثتهم).. ثم استطرد ربيعة:
- حدِّثنا.. بما تبغي!!

أنشأ يُحدِّثهم بنبأ أبي جندل بن سهيل وإسلامه.. وحبس أبيه له وتعذيبه إياه، وتواعدهما على الهجرة معاً إلى المدينة، ثم إخفاقه في اللِّحَاق بأصحاب رسول الله ﷺ في الحديبية، ثم ختم حديثه.. مُذَيِّلاً:

- وقد عزمتُ على نجدة أخي –أبي جندل- واستنقاذه من أيدي كفار قريش، وأرجو منكم المؤازرة؛ فما قولكم؟؟!

- التسلُّل إلى مكة.. وتهريب قرشي شريف محبوس فيها؛ ذلك.. ليس بالأمر الهين!!؟ (جأر ربيعة.. بشيءٍ من التهيُّب)
- أنا.. معك.. يا أبا بصير! (صاح الصِّمَّة مُتحمِّساً)
- ذلكم.. مغامرة بأرواحنا؛ فكيف نفعلها؟!! (تساءل ربيعة مُتحيِّراً)
- كنا –في جاهليتنا- نغامر بأنفسنا.. لأهون من ذلك، والحين.. سنغامر بها لنجدة أخٍ لنا مسلم.. يريد الفرار بدينه؛ تالله.. نِعم التضحية بالنفس.. تلك التضحية! (صدح الصِّمَّة بحماسٍ وأنفة)
- صدقتَ.. ورب الكعبة!! (أجابه ربيعة مُقِرّاً)
- نتوكَّل على الله –يا أخوة- فهو حسبنا.. ونعم الوكيل! (جأر أبو بصير)
- هل تعرف: أين يُحبَس هذا الرجل.. يا أبا بصير؟؟ (سأل أُوَيْس)
- تركتُ مكة وهو محجوزٌ في فسطاطٍ.. بدار حويطب بن عبد العزى!
- هل تَظنّ أنَّه مازال حبيساً.. في تلك الدار؟؟
- لا أدري!!
- إذاً.. ينبغي أنْ نتحسَّس أخباره أولاً، وأزعم أنَّ عندي خطة لذلك؛ فقد لبثتُ في مكة حين كنتُ أتسمَّع الخبر.. ويُمكنني أنْ أرجع إليها دون أنْ يرتاب فيّ أهلها!! (قال أُوَيْس بجِدّيَّةٍ وحَصافَة)
- أَعَزَّك الله.. يا أُوَيْس! فلنرحل –غداً.. إنْ شاء الله- إلى مكة!

*****

قبل رحيلهم عن الجبل.. أوصدوا فجوة باب المَغَارَة بصخورٍ ضخمة دحرجوها لسد الباب، وأخفوا معالم الحياة حولها.. كيلا يطمع طامعٌ أو مُتطفِّلٌ في طعامهم ومتاعهم الذي في جوفها.. سواءً كان وحشاً أو إنسان.

ثم اِتَّجَهوا إلى مكة.. يعتقبون[1] على الجواد والبعير، وقد حملوا معهم ما يلزمهم من زادٍ.. وسلاح، عندما قاربوا مكة.. راحوا يسرون بالليل ويَكْمُنون بالنهار.. مبالغةً في الحذر والتعمية.

حتى إذا صار ركبهم على مشارفها.. بَقِيَ أبو بصير وربيعة مُستتِرين في أحد الجبال القريبة، ودخل الآخران إلى مكة: أُوَيْس على البعير.. والصِمَّة على الحصان، وقد أوصاهما أبو بصير أنْ يكتما إسلامهما عن أهلها.

لبثوا ثلاثة أيامٍ، ثم أتى أُوَيْس إلى صاحبيه في مخبأهما بالجبل.. فقال:

- أبشر.. يا أبا بصير! إنَّ صاحبك ما زال محجوباً في دار حويطب، والحرس عليه.. ليس بشديد، والفرصة.. مواتيةٌ الليلة!
- أين.. الصِمَّة؟؟
- تركتُه.. مُتوارياً بالجواد.. قرب دار حويطب.
- إنْ شاء الله.. ننطلق إذا جنَّ الليل!

فيما يتحيَّنون دخول الليل.. استلقى أُوَيْس على ظهره مُمدِّداً جسده على الأرض ليستريح ويسترخي، عقد ذراعيه تحت رأسه، ثم تَطلَّع إلى السماء.. وخاطبهما كأنَّه يُحدِّث نفسه:

---

[1] : يعتقبون: يتبادلون الركوب.

- أما علمتما: ما فعل حجاج بن عِلاط السلمي.. بأهل مكة؟؟
- تـالله تَفْتَـأ تَـذْكُر سـيد بني سـليم هـذا.. حتى تَفْقِـد عقلـك! (هتـف ربيعة مُتهكِّماً).. حالما استرسل أُوَيْس في حديثه:
- أظهـر أهـل مكـة الفـرح والسـرور بمـا حـدَّثهم بـه حجـاج –أنَّ اليهـود هزمـوا رسـول الله ﷺ، وسـمع بـذلك العبـاس بـن عبـد المطلـب؛ فبعـث إلى حجـاج يُكـذِّب خبره، ثـم لقيـه سـراً فقـال لـه: "يـا أبـا الفضـل! احفـظ عليَّ حـديثاً ثلاثـة أيـام! ثـم قـل مـا شـئتَ؛ فـإني أخشـى الطلب!"، فقال العباس: "أفعل!!"، فقال حجاج: "إني قد أسلمتُ وإنَّ لي مالاً عند امرأتي وديناً على الناس، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه لي، وإنّي تركتُ رسول الله قد فتح خيبر وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها.. وتركتُه عروساً بابنة ملكهم حيي بن أخطب، وقُتِل ابن أبي الحقيق!".
- الحمد لله! هذا ما حَدَّثنا به الصِمَّة! (هتف أبو بصير)
- إنَّ صاحبك هذا لداهية.. يا أُوَيْس! خدع أهل مكة حتى جمعوا له ماله الذي عندهم!! (صاح ربيعة.. مُعجَباً)
- آه.. آه!! وخُـدِعتُ.. أنـا أيضـاً!!؟ (جـأر أُوَيْـس مُغتاظـاً.. ضـاغطاً على أسنانه).. ثم استأنف: "خرج حجاج وانتظر العباس ثلاث ليالٍ، ثم أقبل –واثق الخُطى- يتبختر حتى أتى مجالس قريش، ثم أخبرهم بما أخبره به حجاج، ثم قال: إنَّما قال حجاج ذلك لكم ليُخلِّص ماله.. وإلا فهو مِمَن أسلم! فاسوَدَّت وجوه أهل مكة وقالوا: انفلت عدو

الله (يعنون: الحجاج بن عِلاط)؛ أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، وما لبثوا أنْ جاءتهم حقيقة الخبر كما أخبر به العباس.

- أحسب أنَّك غاضبٌ لأنَّك خُدِعتَ فيمَن خُدِع!؟؟ (تساءل ربيعة ضاحكاً)، فأجابه أُوَيْس مُتمقِّطاً:
- لم أُخدع.. بمثلها قط.. يا ربيعة!!
- صادف درءُ السيل.. درءً يدفعه! (لمزه أبو بصير)

*****

عسعس الليل، وعسعس الذؤبان الثلاثة.. في مكة، تسلَّلوا إلى دار حويطب بن عبد العزى؛ فما اصطدموا بحراسةٍ على فسطاط أبي جندل خلا حارسٍ واحد.. لم يكن عسيراً على أبي بصير أنْ يُغافِله –في حلكة الليل- ويَكِزه.. فيَخِرّ صريعاً، ثم خَرَق في جانبٍ من الفسطاط خَرْقاً.. ولج منه إلى صاحبه المحبوس.. مُخلِّفاً الآخرين يُقيِّدان الحارس المُغْمى عليه ويكمِّمانه.

ذهل أبو جندل لبرهة.. وما صَدَّق أُذنه حين سمع أبا بصير يخفت بصوته: "جئتُ لنجدتك.. يا أبا جندل!"، ثم انتبه.. وتنبَّهت حواسه لعودة صاحبه، كبت صيحة الفرح في حَلْقه.. وهمس مشدوهاً: "أنت حقاً أبو بصير؟! هل جئتَ –يا صاحبي- لتُحرِّرني؟!!".

جاوبه بصرامةٍ.. وهو يعالج قيوده ليَفُكَّها مُتعجِّلاً: "أجل.. يا أخي! هيا.. انهض.. لنهرب من هنا!".

تحامل على نفسه.. واتكئ على كتف أبي بصير واستقام معه، خرجا من الفسطاط؛ فرأى رجلين غريبين (ربيعة.. وأُوَيْس)، التفت إلى صاحبه

مذعوراً؛ فطمأنه بنظرةٍ مفادها: هما معي، وهرولوا به –على تخوّفٍ وحذر- حتى بلغوا الصِمَّة والجواد.

توقَّفوا.. وحملق أبو بصير بجِديَّة في عيني صاحبه الذي لم يزل مشدوهاً، ثم احتضن وجهه بين كفيه.. وخاطبه هامساً: "انتبه –يا أبا جندل- وانصت جيداً.. لما أقول!!"، فرك عينيه.. ثم أومأ إليه: أنّي مُنتبهٌ وأسمع؛ فأرشده إلى أنْ يمتطي الجواد.. وينطلق –دون أنْ يلتفت وراءه- إلى موضعٍ قُرب العيص عَرَّفه له، هزَّ أبو جندل رأسه مُطيعاً.. ثم تساءل:

- وأنتم؟؟! ألن ألاقكم؟!!
- بلى.. سنلحق بك.. على هذا البعير! (أجابه أُوَيْس)
- احذر أنْ تتوقَّف.. فيلحق بك المُطارِدون من قريش؛ فلا ريب أنَّهم سيُرسِلون في طلبك حين يكتشفون هروبك! (استطرد أبو بصير).. ثم أضاف بصرامةٍ: "هيا.. انطلق! الوقت يداهمنا!!".
- خذ هذا معك ؛ ربما تحتاجه! (خاطبه الصِمَّة.. وهو يوشِّحه سيفاً)
- وهذا.. أيضاً! (أضاف ربيعة.. مادّاً يده بجرابٍ فيه تمرٌ.. وزاد، وقربة ماء)

وثب على الحصان.. إذعاناً ليد أبي بصير التي ما برحت تربت عليه.. تُحفِّزه وتُلِّح في التَعجُّل، وانطلق يعدو -دونما مصافحةٍ أو عناق- إلى العيص.. فيما تُشيِّعه عيونهم المُودِّعة وقلوبهم المُشفِقة.

*****

بعد أيامٍ شديدة الرَكْض والهَلَع.. بلغ الموضعَ الذي سَمَّاه له أبو بصير.. بجوادٍ ضابح[1].. وأنفاسٍ لاهثة.. وجسدٍ مَكْدُود.

تَرجَّل.. وربت على عنق الحصان ومَعرَفته ثناءً عليه لحسن بلائه، ثم سحبه وتَوَلَّى إلى الظِّلِّ، نزع السرج عن الحصان.. وتَخفَّف من أحماله، ثم جلس يتفقَّد جراب زاده؛ فألفى الطعام والماء أوشكا على النفاد: (ماذا أفعل؟!!)، (لا حيلة لي سوى التريُّث والانتظار عسى أنْ يدركني أبو بصير ورفاقه.. عما قريب!!؟).

الساعات تمضي.. والأيام تنقضي.. ولَمَّا يصل أبو بصير، الهواجس والأفكار المُشتِّتة تنهش أعصابه: (لماذا تأخَّروا؟! وهل تأخَّروا.. حقاً؟!!)، (تُرى! هل انكشف أمرهم.. وأمسك بهم مشركو مكة؟؟!)، (أم.. هل أكون أنا الذي ضللتُ الطريق؛ وأنتظرهم في المكان الخطأ؟؟!)، (هل أرجع أَدْراجي.. من حيث أتيتُ؛ وأبحث عنهم؟!!).

الحيرة والوَجل يعبثان بعقله وقلبه، ثم لا يجد حيلةً خلا التريَّث والانتظار، قعد -مُتشبِّثاً بسيفه- يُصبِّر نفسه وحصانه.. بتمراتٍ بقيت في جرابه وعشبٍ ضئيلٍ نابتٍ في الأرض.. وحُسُوات ماءٍ في القِربة، وبين الحين والحين.. يهرول هنا وهناك، ويصعد فوق التلال فينظر: أ ثَمّة قادمٌ.. أو خبر!!؟

ذات صباح.. صعد التل لينظر.. يائساً مِن أنْ يرى جديداً، لكنَّ الأقدار خيَّبت ظنَّه، وانبعث الأمل مِن جديد.. ساعة أبصر –مِن بعيد- بعيراً وفوقه راكب.. وحوله ثلاثة رجالٍ يمشون؛ طرب قلبه واضطرب.. وتَمَنَّى على الله أنْ يكون رَكْب أبي بصير ورفاقه، واستجاب الله دعائه؛ فكانوا هم.

---

[1] : ضبح الحصان: صوتت أنفاسه في جوفه من شدة العدو.

لم يحتمل الانتظار، قفز على صهوة الجواد.. وهرع إليهم، وقف بين يدي أبي بصير، تعانقا عناقاً حاراً.. وذرفت العيون رأفةً وتعاطفاً.

تطلَّع إليه أبو بصير تطلُّع الأخ الحاني على أخيه الصغير، تأمَّله.. فرآه: أشعث الرأس.. مهزول الجسم.. مُتهدِّل الأكتاف.. مُمزَق الثياب، وأبصر –في جسده- نُدوباً.. وجراحاً لَمَّا تندمل بعدُ؛ أشفق عليه.. وهتف مُواسياً: "الحمد لله.. الذي نجاك مِن أيدي الذين ظلموا!"، ردَّدوا: "الحمد لله!"، ثم أردف ربيعة هاتفاً: "هَلُمُّوا بنا إلى مأوى الصعاليك!"، لامَح أبو جندل أبا بصير مُستفهِماً؛ فطمأنه بابتسامةٍ حانية.. ثم انطلقوا.

*****

صعدوا في شَعاب الجبل حتى انتهوا إلى مَغَارَة مأوى الصعاليك، زحزحوا الصخر الذي سَدُّوا به فجوة الباب، وتجلَّت معالمها لأبي جندل، لم يكترث كثيراً لحالها.. ظانّاً أنَّها مرحلةٌ انتقالية قبل الوصول إلى يثرب.

شَمَّر أُوَيْس عن ساعديه، وقام لإعداد الغداء.. قائلاً لأبي بصير.. ومُشيراً إلى أبي جندل: "صاحبك يحتاج إلى الطعام والغذاء.. حتى يستردّ قوته!"، وافقه أبو بصير مُتبسِّماً.. وقام معه ربيعة ليساعده، ثم مكث أبو بصير والصِّمَّة يحكيان لأبي جندل حكاية مأوى الصعاليك.. ويَقُصّان عليه ما جرى لكل منهما في مدينة النبي ﷺ.

دخل وقت العصر؛ فأذَّنوا للصلاة.. ثم أقاموا، وصَلُّوا –في مصلاهم- جماعةً.. وصَلَّى معهم أبو جندل؛ اغرورقت عيناه بالدموع.. وبكى ونشج

فرحاً بالآذان الذي يسمع.. وصلاة الجماعة التي –لأول مرة في حياته- يُصلّيها آمناً مُطمئناً، ثم وضعوا المائدة.. وطفق كلٌ منهم يُطعِمه ويُلقِمه الطعام في فمه.. اللقمة تلو اللقمة، وأَلَحّوا عليه.. حتى أَتْخَمَه الطعام.

صَلُّوا المغرب، ثم خرج أبو جندل يتجوَّل صاعداً في شِعاب الجبل، راح يتنسَّم نسائم الجبل الرقيقة، وجعل يتنشَّق معها هواء الحرية العليل.. ويملأ منه صدره، لحق به أبو بصير؛ رمقه بمحبةٍ وامتنان.. وشرع يدعو له ويُثني عليه حتى خجل أبو بصير.. وهتف بنبرةٍ ودودة:

- كفى.. يا أبا جندل! هل نسيتَ أنَّ هذا ما تعاهدنا عليه؟!! وما فعلتُ إلا كما كنتَ ستفعل لو كنتُ مكانك، بل.. لقد تأخَّرتُ عليك؛ وإنّي حزينٌ لذلك!!
- أشهد أنَّك وفيتَ -يا أبا بصير- فلا تحزن! ولكنَّا.. كنَّا تعاهدنا على الهجرة معاً إلى رسول الله ﷺ.
- لكل أمرٍ.. أوانه.. يا أخي!!
- وأيم الله.. لقد اشتقتُ إلى النبي ﷺ؛ متى سنذهب إلى يثرب؟؟!
- لا يُمكننا الذهاب إلى المدينة.. يا أبا جندل! هل نسيتَ صلح الحديبية وشروطه؟؟!
- كيف لا نذهب؟؟ قد ظننتُ أنَّ النبي هو الذي أرسلك إليَّ؛ فكيف يرضى بهذا الصلح الذي نُفتَن به عن ديننا؟؟!
- مَه.. يا أبا جندل! لقد انعقد الصلح وشروطه، ونبي الله ﷺ لا يغدر؛ ولقد ردَّك إلى أبيك في الحديبية!

- ..... . (أطرق أبو جندل)
- وأخرجني من يثرب.. حين أرسلوا يطالبون بالوفاء بالشرط.. ورَدّني إليهم؛ لكنّي أبيتُ لنفسي الذِّلَّة.. وفعلتُ الذي علمتَ!

سمعا صوت أُوَيْس يصدح بآذان العشاء؛ فمسح على رأسه بمودةٍ.. وهمس:

- هيا.. ننزل.. إلى صلاة العشاء!

أتموا الصلاة.. ولم يزل أبو جندل واجماً، نظر إليه ربيعة.. فلاحظ تَبَدُّل حاله من السرور إلى الكآبة، ورأى التجهُّم في قسماته؛ فسأل مُتودِّداً:

- ما لي أراك عابساً.. يا أخ الإسلام؟!!

لم يجبه، وإنَّما التفت إلى أبي بصير.. وهتف مُنزعجاً مُتحرِّقاً:

- لقد قال لي النبي حين الحديبية: يا أبا جندل! اصبر واحتسب؛ فإنَّ الله جاعلٌ لك ولِمَن معك من المستضعفين.. فرجاً ومخرجا!!
- ولقد قالها لي.. أنا أيضاً! (أجابه أبو بصير مُنفعِلاً).. ثم استطرد: "وقد يسَّر الله لنا مخرجاً.. ولَمَّا يأتِ الفرج بعدُ، ولإنْ أطعتُك وذهبنا إلى المدينة الحين؛ فإنّا بذلك لا ندع للرسول ﷺ خياراً عدا أنْ يردّنا إلى المشركين في مكة؛ وإنَّك تعلم.. عاقبة هذا!!".
- لِمَ أخرجتني –إذاً- مِن بينهم؟؟! قد كنتُ صابراً، أحتسب حبسي وتعذيبي.. في سبيل الله!! (همس مُعاتِباً بنبرةٍ حزينةٍ مُنكسِرة)

سكت أبو بصير.. ولم يدر بما يجيبه، بينما هتف الصِّمَّة بأنفةٍ وغِلظة:

- عجبتُ لك.. أيها الفتى! هل تعتب علينا أنْ غامرنا بأرواحنا وسعينا لنخرجك من السجن والعذاب؟!!

- أحب أنْ أخرج مهاجراً إلى النبي ﷺ.. لا هارباً.. يلوذ بالصعاليك!!
- وما تنقِم من الصعاليك؟! أ تنقِم أنَّهم أحرارٌ.. وأنَّهم أرادوا لك أنْ تكون حراً مثلهم؟؟! (خاطبه أُوَيْس.. زاجراً)
- استعذ بالله من وساوس الشيطان –يا أبا جندل- ولا تجحد نعمة ربك!! (كلَّمه أبو بصير بنبرةٍ لينة)
- ..... . غضَّن جبهته وأشاح عنهم بوجهه.. كأنَّما يُنكِر أنَّها نعمة.

فانبعث ربيعة.. يُؤنِّبه ويُقرِّعه:

- ألا ترى أنَّ خلاصك من عذاب الكفار غير مفتونٍ عن دينك.. نعمة؟ ألا ترى أنَّ نجاتك وحريتك.. نعمة؟ ألم تسمع آذان الصلاة يملأ جنبات هذا الجبل؟؟ ألم تفرح بسماع أُذنك له؟! ألم تر الفرحة على وجهك وأنت تُصلِّي معنا آمناً مُطمئناً؟!! أ ليست هذه كلها نِعَماً عظيمةً مِن الله.. ينبغي أنْ تهتف لأجلها: **الحمد لله**؟!!
- الحمد لله!! (تمتم بها.. ثم دفن وجهه بين كفيه.. وراح يبكي وينتحب)
- ذروه يخلو بنفسه.. مع ربه، ويتفكَّر في حاله.. عسى أنْ يُلهِمه الله البصيرة.. ويثوب إلى رشده! (جأر أبو بصير)

ثم تفرَّقوا –من حوله- إلى مضاجعهم، وبقي هو –الليل كله- يبكي.. ويَبُثُّ حزنه إلى الله، ثم نهض.. وصَلَّى معهم الفجر، ثم التقت عيناه بعيون أبي بصير العاتبة؛ فاستحيا منه ومن الصعاليك، وأقبل عليه وعليهم يعتذر لهم.. ويُقبِّل رؤوسهم.. ويُثني عليهم، رضوا ذلك منه.. وقَبِلوا تَنصُّله.

*****

انتشر شعاع الشمس فوق بطاح مكة وظواهرها، وانتشر النبأ: (فَرَّ أبو جندل بن سهيل مِن فسطاط حويطب)، استشاط سهيل بن عمرو.. واتهم حويطب بالإهمال والتقصير في حفظ ولده، ثم أقسم ليُرسِلنَّ إلى يثرب جنوداً يُروِّعون أهلها.. وينتزعونه من بين أيدي محمدٍ وأصحابه انتزاعاً.

ثم تَلطَّف به أبو سفيان بن حرب.. وأَسَرَّه:

- يا أبا يزيد! إنَّ محمداً لم يخالف عهدنا، وما أرى إلا أنَّ ولدك فرَّ من تلقاء نفسه؛ لذا.. فالرأي عندي: أنْ نبعث –إلى محمدٍ- رجلاً أو رجلين.. ونطالبه بأنْ يَرُدَّ إلينا ولدك بسلام.. وِفق ما شارطناه عليه!
- يا سيد قريش! قد فعلنا –مِن قبلُ- لاسترداد الغادر أبي بصير؛ فأين هو.. الآن؟؟!
- يا سيد بني عامر! أنت الذي أقررتَ هذا الصلح، فلا يَحسُن بك أنْ تُبادئ بالغدر؛ فتُعَيَّر بها.. ونُعيَّر معك!!؟

ألجمت الحيرة لسان سيد بني عامر أمداً، ثم تغضَّنت شفتاه قائلاً:

- اصنع ما تراه صواباً.. يا سيد مكة! لكن.. احذر أنْ يغدر ذاك الصابئ بمَن تبعثهم في طلبه.. كما غدر صاحبه بخُنيس بن جابر!
- سأبعث له.. رجالاً أشداء مُحنكين.. لن يقوى على نزالهم!

مضت أيامٌ.. ثم عاد مبعوثو قريش مِن يثرب ليقولوا:

- أبو جندل ليس في يثرب، ولا أحدٌ فيها يعلم بنبأ فراره، وكذلك أبو بصير.. لا يعلم أهل يثرب عنه شيئاً.. منذ خروجه منها!!؟

احتار الملأ مِن قريش.. وعضوا أصابع الغيظ.. ولا سيما سهيل بن عمرو.

*****

ذات مساءٍ.. جلسوا يتسامرون، ثم حَدَّثهم أبو جندل مخاطباً أبا بصير:

- تالله.. إنّي أعلم رجالاً وشُبّاناً مُستضعَفين –في مكة- أسلموا، لكن حبسهم المشركون عن الهجرة إلى رسول الله ﷺ.
- ولو تَمكَّنوا من الفرار؛ سيُرَدّون إلى المشركين بالصلح الذي شارطوا النبي ﷺ عليه!! (جأر أبو بصير مُتحسِّراً)
- يا مأوى الصعاليك! لِمَ لا نُطلِقهم.. مثل هذا الفتى؟؟ (اقترح أُوَيْس)
- لا فُضّ فوك.. يا رجل! هذا هو القول!! (هتف الصِّمَّة مُستحسِناً)

استملح أبو بصير وصعاليكه الفكرة، واجتمع رأيهم على نجدة المسلمين المُستضعَفين في مكة، عزموا على ذلك.. وتعاهدوا على التضحية بكل شيءٍ في سبيل إغاثة أولئك المُستضعَفين.

أحكم أبو بصير خططه.. وحبَّكها، وأجاد صعاليكه –انضم إليهم أبو جندل- تنفيذها بحنكةٍ واقتدار، وكلما أفلحوا في تحرير رجلٍ من المسلمين؛ اشتعل الحماس في قلوبهم، واشتعلت مكة.. وقلوب ساداتها حنقاً وتَغيُّظاً، بل كان مما يُذكّي نيران الغضب في صدور ملأ قريش أنَّ هؤلاء الفارّين –أمثال أبي جندل- لم يلجأوا إلى محمدٍ في يثرب، وكانت دهشتهم وحيرتهم تزداد يوماً بعد يومٍ.. دون أنْ يعلموا: (أين يختفي أولئك الهاربون.. وبأي ملجأٍ يلوذون؟!).

تكردس عند أبي بصير عشرات الرجال من مسلمي مكة الهاربين.. حتى ضاق عليهم غار مأوى الصعاليك؛ فالتمسوا لأنفسهم كهوفاً ومغاراتٍ مجاورة، وازدادت أعدادهم إلى حد أنْ هرع أُوَيْس وربيعة –ذات يومٍ- إلى أبي بصير يسألان في تَحيُّرٍ وانزعاج: "كيف سنُطعِم هؤلاء؟؟!".

اجتمع أبو بصير مع خاصة رجاله.. ليُعيد السؤال على أسماعهم:

- كيف سنُطعم هؤلاء؟؟!
- ليس هذا هو السؤال.. يا مأوى الصعاليك! بل السؤال الأنسب: ماذا سيفعل هؤلاء؟؟ (همس أُوَيْس.. بنبرةٍ عميقة ذات معنى؛ فأثار الدهشة في قلوبهم.. مما دفع الصِمَّة أنْ يقول بتأفُّف:
- أفصح.. عما تضمر.. يا هذا!!؟
- ماذا تعني بسؤالك هذا.. يا أُوَيْس؟!! (تساءل الآخرون باهتمامٍ)

أشار إلى صاحبيه –الصِمَّة وربيعة-.. ثم استرسل وهو يُوزِّع نظراته على الحاضرين.. بجِدِيَّةٍ وصلابة:

- قد فارقنا قومنا.. لظلمٍ وقع علينا؛ فأبينا الذِّلَّة والهوان.. وتصعلكنا، وغدونا نركض في الصحراء.. ركض الذئاب في البَرِّيَّة، لا نطمع في شيءٍ حاشا قوت الحرية والكرامة؛ وأنتم مثلنا!!
- أ ترضى لنا أنْ نكون صعاليك.. بعد أنْ هدانا الله للإسلام؟! (تساءل أبو جندل مُستهجِناً).. فأجابه بإصرارٍ ورصانة:
- قد ارتضينا هذا الدين لأنفسنا مثلكم؛ لأنَّه يُكرِّم الإنسان.. ولا يرضى بالضيم، وقد ظلمكم قومكم ومنعوكم الهجرة إلى رسول

الله وأصحابه.. وسجنوكم وعذَّبوكم، وقد أُذِن للذين يُقاتَلون بأنَّهم ظُلِموا؛ فأرى أنْ نقاتل قريش!!

- ماذا تقول؟ أين عقلك.. يا أُوَيْس؟ أما تعلم أنَّ النبي عقد مع قريش صلحاً، ووضعوا الحرب بينهم عشر سنين؟؟! (صاح أبو بصير)
- وما شأننا بهذا؟! هل نحن في حِلْف النبي ﷺ وأصحابه؟؟!
- ماذا تعني؟!!
- أعني: أنَّكم.. وإنْ كنتم مسلمين.. إلا أنَّ قريش لا تعترف بإسلامكم.. والدليل: أنَّهم اشترطوا على النبي ﷺ أنْ يردَّكم إليهم؛ أنتم في مذهب قريش: صعاليك مُتمرِّدون.. لا أتباع محمد ﷺ!!؟
- .....
- وفي مذهبي: أنتم صعاليك.. ظلمكم قومكم وبغوا عليكم؛ فرفضتم الظلم والضيم.. وفررتم من طغيان الظالمين، فهَلُمُّوا.. إلى الثأر مِمَن ظلمكم، إلى الثورة.. على قريش وصَلَفها!!

انفض الرجال مِن حول أبي بصير، وانزوى هو مُتفكِّراً فيما تَحدَّث به أُوَيْس: (أُوَيْس صعلوكٌ مُتمرِّد، لم تزل الصعلكة تُخالط حُشاشة قلبه.. رغم إسلامه!)، (دعك من حب أُوَيْس للتصعلك! وانظر في كلامه؛ هل تراه: خطأً.. أم صواب؟؟)، (حقاً! لقد منعتنا قريش أنْ نعبد ربنا على الدين الذي آمنا به، وحبستنا عن الهجرة إلى أصحاب ديننا، وسجنونا وعذَّبونا.. وحجروا على أموالنا.. ونهبوها!)، (فماذا نفعل؟! إنْ مكثنا في مكة؛ فتنونا عن ديننا، وإنْ لجأنا إلى النبي ﷺ استرجعونا بذلك الصلح.. ليفتنونا عن ديننا!)، (ولن نَحِيد عن الدين الحق، ولن نرضى بالضيم؛

والله لا يَرضى بالضيم!)، (إنْ لم نقاتل ملأ قريش؛ فكأنَّما نستسلم لطغيانهم.. ليُطفئوا شمس نهارنا.. ويسلبوا من لياليا القمر!!)، (لن نستسلم! يجب أنْ تعرف قريش أننا سنكون شوكةً في ظهرها.. غُصّةً في حَلْقها!).

*****

"تجارة الشام! نعم.. نكمن على طريق الشام، ونهاجم عير قريش الذاهبة إلى الشام والعائدة منها، سنُغير على تلك القوافل التي هي أحب أموال قريش إليها؛ ليعلم سادة قريش أنَّا لم نعد أذلاء مُستضعَفين، وأنَّ للظلم والطغيان نهاية، وأنَّنا سنستردّ حقوقنا المسلوبة.. بسيوفنا، وأنّنا سنكيل لهم الصاع صاعين!": باده أبو بصير -بلهجةٍ صارمةٍ مُتحمّسة- إخوانه الذين انفرد بهم ليستكملوا النقاش فيما طرحه أُوَيْس عليهم، سرت حماسته في دمائهم.. وتشرَّبت بها قلوبهم.. وكبَّروا وهلَّلوا.

على أنَّ أُوَيْس سَكَّن هتافهم بإشارةٍ مِن يده، ثم خاطبهم بنبرةٍ حازمةٍ:

- يا قوم! ليس بالحماس.. ولا التهليل والتكبير نُدرك غايتنا؛ إنَّها عير قريش.. وكرائم أموالهم، ولا جرم.. سيجالدونكم عنها أشدّ جِلاد!
- ونحن لهم.. يا أُوَيْس! وإنَّك تعلم: مَن أنا! (هتف الصِّمَّة بحميَّة)
- أُوَيْس مُحِقٌّ في قوله.. يا رجال! الأحرى بنا أنْ نخطط.. ونتجهَّز جيداً لما عزمنا عليه؛ لذا.. فإنَّ أول ما ينبغي أنْ نبدأ به: أنْ نختار مِن بيننا أميراً يقودنا! (صاح أبو بصير بجِدِّيَّةٍ عاقلةٍ)
- أنت لها.. يا أبا بصير! (جأر أبو جندل)
- أجل! أنت أشجعنا.. وأفضلنا حنكةً ودرايةً! (أقرَّه أُوَيْس)

- وأنت أعلمنا بدين ربنا.. وشريعة رسوله! (أضاف ربيعة)

وهتف الحاضرون جميعاً: "أنت لها؛ رضينا بك قائداً وأميراً.. يا أبا بصير!"، فقَبِل منهم أبو بصير.. واستعان بالله.. ثم قال: "إذاً.. اسمعوا لي وأطيعوا.. وانصحوا لي فيما أُشاوركم فيه!!"، فأجابوه: "لك علينا السمع والطاعة.. والنصيحة.. وحسن المشورة؛ على ألا تستبد برأيٍ دوننا، وألا تُحمِّلنا ما لا نطيق!"، وافقهم قائلاً: "توكلنا على الله.. هو حسبنا ونعم الوكيل!!".

بادر أبو بصير إلى العمل فوراً، وأول ما بدأ به أنْ اختار لنفسه نائبين: (أبو جندل.. والصِّمَّة)، وعقد مجلس شورى ليُشاور ذوي الرأي من أصحابه في وضع الخطط.. وتذليل العوائق والعقبات التي قد تعترضهم، وكانت أول العوائق هي الامداد؛ فتساءل أبو بصير:

- كيف سنُحصِّل السلاحَ اللازم للغارات، وكذلك.. كيف سنُوفِّر المال اللازم للمؤنة والنفقات؟؟!
- نُغير على قبة بني مخزوم[1]؛ ونسلب منها السلاح! (قال الوليد[2] بن الوليد بن المغيرة المخزومي).
- قبة بني مخزوم.. أمنع مِن أنْ نسطو عليها!
- قد حجر سادة قريش على أموالنا.. وسلبونا إياها؛ لما لا نسطو على بعض خزائنهم.. ونستعيد شيئاً من أموالنا المسلوبة، ونشتري السلاح والمُؤَن.. بتلك الدنانير؟؟! (هتف أبو جندل)

---

[1] : وبنو مخزوم كانوا هم أصحاب قبة السلاح والحرب في قريش.

[2] : هو أخو خالد بن الوليد، وهو أحد الشُبّان الذين هربوا إلى أبي بصير.

استحسن أبو بصير هذا الرأي، وارتأى أنَّه الأقرب إلى التنفيذ، ومِن فوره.. جهَّز مَفرَزةً صغيرةً من رجاله، تسلَّلوا إلى مكة.. وعادوا سالمين بالغنيمة، فرَّق الدنانير على أُوَيْس والصِّمَّة وبعض الرجال، ووجَّههم لشراء السلاح والكراع والمؤنة مِن جهاتٍ مُتفرِّقة.

وكذلك.. بعث مفارز -مِن ذوي الخبرة بدروب الصحراء.. ومِمَن يحسنون إقتفاء الأثر- إلى طريق الشام ليترصَّدوا قوافل قريش، ووضع رجالاً على رؤوس الجبال على الامتداد من طريق الشام إلى العيص.. إلى ذي المروة.. إلى مَقَرِّه في مأوى الصعاليك ليرصدوا مع الآخرين حركة القوافل.. وليكونوا أسرع في نقل الأخبار إليه وإلى فرسانه عن طريق تناقل الخبر من الأول إلى الثاني.. ثم إلى الثالث.. وهكذا إلى أنْ يصل خبر القافلة القادمة إلى مأوى الصعاليك في أقصر وقتٍ.. ويتمكَّن هو وفرسانه من مباغتتها في الوقت المناسب.

تم لهم شراء السلاح والخيل بنجاح.. والمؤنة والطعام، وانبَثَّت العيون والجواسيس على طريق قوافل الشام، وتَربَّص الرجال والفرسان.. بين العيص وذي المروة، وما بقي إلا أنْ تَبزُغ لهم عير قريش؛ فينقضوا عليها ثائرين مُنتقِمين.

*****

لاح رَكْبٌ -قادمٌ من جهة الشام- لبعض العيون، تَحسَّسوا خبره.. وعلموا أنَّه مُقدمةُ قافلةٍ قريشيةٍ عائدةٍ مِن أرض الشام.

وصل النبأ إلى أبي بصير؛ فشَمَّر له.. ورتَّب رجاله وفرسانه، وسرعان ما انتشروا على طريق العير المرصودة.. حتى أحاطوا بها -في ذي المروة- إحاطة السوار للمعصم.

زأر الصِّمَّة زئيراً زلزل الأرض تحت أقدام حامية القافلة.. وقذف الرعب في قلوب رُكْبانها، وتوالت الصيحات الهادرة مِن صدور الفرسان الذين تباغت بهم حماةُ القافلة.. يُحاصرونهم من كل جهة.

اُمْتُشِقت السيوف.. وانهالت سِهام ربيعة والرماة مُصوَّبةً إلى أهدافها.. وإلى نحور الرجال، التحم الفرسان.. واستبسل الشُجعان، وتصاعد غَيْم الغبار.. وأرهق القَتَر الوجوه، ذُبِحت النحور.. وبُتِرَت الأشلاء، واختلط الصهيل بالصليل.. والتراب بالدماء.

أظهر أبو بصير وأبو جندل شجاعةً وجرأة.. هَدَّت صفوف حماة القافلة؛ فتبعثروا بين مقتولٍ ومأسورٍ.. ومهزوم، وانفضت المعركة.. وحاز أبو بصير على عير قريش كلها، لوَّح أبو جندل بسيفه في الهواء مَزهُوّاً بانتصاره وثأره، ثم تَوَلَّى إلى الأسرى.. يحدجهم بنظرات التحدي.. ويهتف:

أبلغ قريشا من أبي جندل ... أني بذي المروة بالساحل
في معشر تخفق أيمانهم ... بالبيض فيها والقنى الذابل
يأبون أنْ تبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجا ... والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرء بإسلامه ... أو يقتل المرء ولم يأتل

هَمَّ أبو بصير أنْ يقتل الأسارى؛ بيد أنَّ أُوَيْس استمهَله هامساً:

- يا مأوى الصعاليك! اِسْتَبقِ نفراً من هؤلاء، واحملهم على دواب ضعيفة، ثم ارسلهم إلى مكة.. ليَشِيع خبرنا بين الناس؛ يكن أنكى بقريش.. وأغيظ لملأها!
- أصبتَ.. أيها الداهية! وهذا أجدر ببَثِّ الرعب في قلوبهم!!

ثم دفن رجال أبي بصير قتلاهم الذين احتسبوهم –عند ربهم- شهداء، وانقَضَّت الصقور والجوارح والضباع على وليمة المعركة.. تلتهمها وتقتات منها، وذاع الخبر في أحياء البدو والأعراب القريبة من ذي المروة.

*****

نمت الأنباء إلى ملأ قريش، وما لبثت أنْ انتشرت في مكة وأجوارها، وانتهب الحزن والأسى قلوب تُجارها، وانكشف غموض سرقات الخزائن، وافتضح سر الصابئين الفارّين مِن بطش قومهم؛ إنَّه.. **أبو بصير**!!

في دار الندوة.. اجتمع سادة قريش، وسمع سهيل بن عمرو شعر ولده أبي جندل؛ فتملَّكه الكِبر والغيظ، وهاجت في صدره الحَمِيَّة الجاهلية.. وصاح:

- لم يعد أبو بصير وحده المطلوب؛ بل.. الصابئ العاصي.. ولدي.. أيضاً مطلوب، ولإنْ ظفرتُ بهما؛ لأقتلنَّهما بيدي!!؟
- وليس أبو جندل فقط؛ وإنَّما الوليد بن الوليد المخزومي.. وكثيرون من الحمقى هربوا.. ولاذوا بأبي بصير! (أضاف عكرمة بن أبي جهل).
- ما لنا مَحيد عن قتالهم.. والانتقام منهم!! (صاح مكرز بن حفص)

- أجل! لو لم نسترجع تلك القافلة سريعاً؛ لضاعت هيبتنا بين العرب.. ولتجرَّأ علينا آخرون! (أقرَّه صفوان بن أُمية والآخرون).
- وحينئذ نخسر تجارتنا مع الشام؛ وإنَّها لخسارةٌ فادحة!!
- جهِّزوا كتيبةً شديدةً من الفرسان، وابعثوهم.. لتأديب أولئك الصابئين!! (هتف أبو سفيان بنبرةٍ صارمةٍ.. حسم بها النقاش).

قبل أنْ تتجهَّز كتيبة انتقام قريش.. تَكرَّرت غارات أبي بصير الناجحة على قافلةٍ ثانية.. بل وثالثة، وغنم رجاله –مِن عير قريش- مغانم أكثر مما توقَّعوا، وما عتَّموا أنْ فشا نبأهم في الحجاز كله.

تحرَّقت قريش غضباً لكرامتها التي أُهدِرت.. وتحسُّراً على أموالها التي فُقِدت؛ فعَجَّل ساداتها.. ببَعْث كتيبة الانتقام.

خرج فرسان قريش الصناديد، وجابوا الصحراء مسحاً وبحثاً، وصعدوا في الجبال.. وفتَّشوا في شعابها؛ وما عثروا على أثرٍ لهؤلاء اللصوص الصابئين.. ولا علامة تدل عليهم، لقد اختفى الصعاليك، وذاب الذؤبان في الصحراء ذوبان الملح في الماء، فشلت كتيبة الانتقام.. وعادت إلى مكة بخفي حنين.

اهتم سادة قريش.. وساءهم غمز الشامتين ولمزهم، واحتاروا: كيف يتصرَّفون، بيد أنَّ مكرز بن حفص مال على أُذن سهيل بن عمرو.. هامساً:
- يا أبا يزيد! إنَّ فِعْل أولئك الصابئين.. لهو فِعْل ذئاب الصعاليك، ولا يَفُلُّ الحديد إلا الحديد؛ فلنستدعي عتاة الصعاليك العرب.. ونضرب أولئك بهؤلاء، ونحفظ هيبتنا التي أُهدِرت.

- أحسنتَ التفكير.. يا مكرز! ادْعُ إليهم –إذاً- أشرس صعاليك العرب، ونَبِّئهُم أنَّ لهم عندي مكافأةٌ عظيمة.. إذا أحضروا إليّ هذين الصابئين[1].. حَيَّين كانا.. أم مَيِّتين!!

*****

شاع نبأ أبو بصير بين الأعراب في الحجاز، وإشرأبَّت إليه الأعناق.. وتطلَّعت إليه القلوب، وتعلَّقت به آمال المسلمين المستضعفين الذين منعهم قومهم –مِن حلفاء قريش- عن الهجرة.. واللحاق بالنبي ﷺ في يثرب.

فهَبَّ مَن استطاع منهم.. يهرب من قبضة قومه، ويَنسلّ إلى أبي بصير وأصحابه.. حتى توافد عليه العشرات من طوائف العرب أمثال: غفار.. وأسلم.. وجهينة، واحتشد عنده –مِن أولئك الرجال- قُرابة الثلاثمائة، وأمسى مأوى الصعاليك وما حوله مِن كهوف -وما حواليه مِن جبال- مأوى للمسلمين المستضعفين العائذين بأبي بصير.

ذات مساء.. جلس أبو بصير يسامر الصِّمَّة، فذكرا نعمة الله عليهم بأنْ جعل لهم مخرجاً من قبضة المشركين وبطشهم، وأنْ أيَّدهم بهذا الحشد من المسلمين.. ليثأروا للمظلوم من الظالمين.. ويَستردُّوا شيئاً من حقوق المستضعفين المهضومة.

ثم حثَّهما الشوق ليتذاكر كلٌ منهما أيامه في المدينة وفي مسجد النبي.. وبين أصحابه، وما انفك أحدهما يَبُثّ الآخر شجونه، ويصارحه بحسرته وأسفه على تلك الأيام التي لا يعدل بها عمراً كاملاً.

---

[1] : يعني: أبا بصير.. وأبا جندل.

سكت أبو بصير مُتحسِّراً على ما أصابه، واجتهد أنْ يكبت تغيُّظه وحنقه على قريش وعهدها الذي أفشل هجرته إلى النبي ﷺ، ولولا أنَّه يعلم أنْ النبي رضي بهذا الصلح؛ لكان كرهه.. وكره اليوم الذي عُقِد فيه؛ لكنَّه يرضى بما رضي به رسول الله.. آمِلاً –وهو على يقين- أنْ يجعل الله له فرجاً قريباً.. كما بشَّره النبي ﷺ.

بيد أنْ سكوت الصِّمَّة لم يطل، ولم يحبذ أنْ يكون حديثه مع صاحبه مجرد حديث شجون وأسى، وإنَّما أحب أنْ يصارحه بما في نفسه.. ويفتح له قلبه، فاستأنف الحديث.. هامساً بعد تردُّدٍ مكبوت:

- وأيم الله.. قد غلبني الشوق إلى النبي ﷺ، وما عدتُ أطيق البُعد عنه وعن مسجده.. وعن أصحابه!!؟
- صدقتَ.. يا صاحبي! وتالله.. إنّي.. مثلك!!
- لكنّي.. لستُ.. مثلك.. يا أبا بصير!!
- ماذا.. تعني.. يا رجل؟؟!
- يا أخي! إنَّ ما يمنعك عن رسول الله ﷺ وصحبته أنَّ قومك يطلبونك، ويطالبون النبي بالوفاء بالعهد فيك! أما أنا.. فقد فارقتُ قومي منذ زمنٍ طويل؛ وإنَّ قومي ليسوا كقريش أو ثقيف، وإنَّ شأني فيهم لأهون مِن أنْ يطلبوني مِن عند رسول الله!!
- هل.. تريد أنْ تفارقنا؟! هل ترغب عن صحبتنا.. يا صِمَّة؟!!
- لا تَجِد عليَّ.. يا أخي! فإني قد تركتكم –آنفاً- وذهبتُ إلى المدينة.. وأنا كافر.. أطمع في أسلابها؛ فهداني الله إلى الإسلام، وأحببتُ

الحياة في المدينة، ولكن.. فارقتُها –حتى قبل أنْ أمتع عيني بالنظر في وجه النبي- رأفةً بك.. وشفقةً عليك أنْ تمكث وحدك؛ مسلمٌ.. بين صعاليكٍ كفار، وقد بقيتُ معك، وصمدتُ وقاتلتُ معك.. حتى أظفرك الله بعدوك، وصبرتُ حتى أعزَّك الله بهذا الجمع من المسلمين.. وأغناك بهم –والحمد لله- عن رجلٍ فردٍ.. مثلي!!؟

- حربنا مع قريش.. لم تزل مستمرة؛ وإنّي أحتاج إليك معي!!
- يا أخي! قد أغناك الله بهذه العَصبة –والحمد لله- عن رجلٍ فردٍ.. كالصِّمَّة، وإنّي أُشهد الله أنّي لستُ راغبٌ عن البقاء معك بغضاً أو نفوراً، ولكنّي.. راغبٌ في الهجرة إلى النبي ﷺ.. وصحبته!
- .....
- ورغم لهفتي واشتياقي إلى النبي ﷺ؛ لا أُفارقك إلا أنْ تأذن لي، وإنّي أعلم أنَّك تشتاق إلى صحبته مثلي؛ لذا.. فحسبي.. أنَّك تَحُسّ بذات النار التي تتلظى في صدري، وأطمع في سماحتك وكرم خُلُقك –وأنت الكريم.. كما عهدتُك- أنْ تأذن لي بالرحيل إلى المدينة!

سكت أبو بصير.. ووَجَم وُجُوماً طويلاً، ثم بكى وبكى.. حتى نشج، وبكى معه الصِّمَّة –الفظ الغليظ- برأفةٍ ورِقَّة، ثم قَبَّل رأسه.. وعانقه، ثم همس.. بصوتٍ تخنقه الدموع والنشيج: "لن أمنعك عن رسول الله.. يا أخي!!".

*****

تواصل مكرز مع صعاليك العرب، وانتخب للمُهِمَّة رجلاً.. يُسمِّي نفسه: العِفْراس؛ ظَنَّ فيه أنَّه أهلها وأفضل مَن يقوم بها، وقال عنه:

"هو أسد الصعاليك.. وآكل أكباد الرجال!"، التقى به.. عَرَّفه بمُهِمَّته، ونبَّهه إلى حُسن الإعداد والتخطيط، ثم منحه المال والسلاح والمؤنة، وقال له: "اختر رجالك بنفسك، واحذر غدر أبي بصير ودهائه، ولك مكافأةٌ سخية عند سيد بني عامر إنْ جئتَه بجثة أبي بصير.. وأبي جندل!".

أخذ العِفْراس[1] المال والسلاح.. وتَخيَّر رجاله من الصعاليك الشُجعاء المغامرين، وانطلق إلى ذي المروة.. حيث شُوهِد أبو بصير ورجاله.

استولى على عين الماء.. وضرب خباءه عليها، ومنع الناس والرعاة أنْ يستقوا منها، وأعلن فيهم:

- أنا العِفْراس.. أسد الصعاليك.. وآكل الأكباد! لن يشرب مِن هذا الماء أحدٌ.. حتى أرتحل عنه، ولن أرحل.. حتى ألتقي بأبي بصير الثقفي.. وأبي جندل العامري، والحاضر منكم.. يُعلِم الغائب!

ثم أمر جنوده بذَبِّ الناس عن الماء.. وقَتْل مَن يعترض، فتفرَّق عنه الناس بذعرٍ ظاهر.. واستياءٍ مكبوت، سأله أحد صعاليكه.. باندهاشٍ:

- يا عِفْراس! كيف تلتقي بهما.. وأنت جالسٌ هنا ولا تبحث عنهما؟!!
- هما مَن سيبحثان عني!! (أجابه.. بعدم اكتراث)
- لقد أخذنا المال مِن سيد بني عامر.. لنسترجع لقريش عيرها؛ فهل سيبحث هذان عنك.. ليَرُدَّا إليك الأسلاب؟؟!

---

[1] : العِفْراس: هو الأسد الشديد.. غليظ العنق.

- أيها الأحمق! هل تَظُنّ أنَّنا -بهذه الشرذمة القليلة مِن الصعاليك- نقدر أنْ نسترجع ما لم تقدر على استرجاعه كتيبةٌ كاملةٌ من فرسان قريش؟! وكيف نعثر على رجلين عجزت قريش وساداتها عنهما؟؟
- لِمَ أخذتَ المال وقَبِلتَ العمل.. وأنت تعلم أنَّك لن تفعل؟؟!
- عُرِض عليَّ مالٌ وسلاح؛ فهل أرفضهما.. أيها الأبله؟!
- تعني: أنَّك.. لن تقاتل صعاليك أبي بصير؟؟!
- مَن زعم هذا؛ بل كُلِّفتُ.. بمغامرةٍ؛ وإنّي أحب أنْ أغامر!!
- لا زلتُ.. لا أفهم: لماذا نمكث هنا.. كاشفين أنفسنا أمام الذين جئنا لقتالهم؟!! (تساءل الرجل مُتبرّماً.. وقد تضاعفت حيرته).
- لا ترتاع؛ لدي.. خطةٌ مُحكَمة!

عَلِم أبو بصير بأمر العِفْراس واستيلائه على عين الماء، وفطن لما يرمي إليه هذا الصعلوك.. وأدرك غايته، وبعد إعمال العقل والمشورة والرأي.. عزم على مواجهته وإنهاء أمره؛ وإلا.. فسيبقى كشوكةٍ في ظهره وظهر أصحابه.

اِنشق الفجر.. وانبعث سناه بين النخيل المُتاخِم لعين ذي المروة، ونظر العِفْراس.. فرأى فارسين قائمين على عَدْوة[1] فرس مِن خباءه، وقف أمام الخباء.. وشرع يتفرَّس فيهما، ثم صاح:

- أنتما: أبو بصير.. وأبو جندل؛ أليس.. كذلك؟؟
- صعلوكٌ.. ذو فراسة! (أجابه أحدهما.. باستخفاف)، وسأله الثاني:
- سمعنا: أنَّك تبغي لقاءنا؛ فماذا تريد؟؟!

---

[1] : عدوة فرس: مسافة خطوة من خطوات الحصان.

- أنا العِفْراس: أسد الصعاليك.. آكل الأكباد! كلَّفني سهيل بن عمرو –سيد بني عامر بن لؤي- بالسعي وراءكما حتى أَرُدّكما إليه.. إما حيّين.. أو ميِّتين؛ ولا أحسب أنّكما.. ترجعان إليه أحياء!!؟
- أصبتَ!! فما بُغيتك؟؟
- أعرض عليكما واحدةً مِن ثلاث: إما أنْ تقاتلاني معاً، أو أُقاتل أحدكما تلو الآخر، أو ترحلا وصعاليككما من هذه الأنحاء، وتُخَلّون بين قريش وطريق عيرها إلى الشام.. بعد أنْ تَرُدُّوا الأسلاب!
- ألا تخشى.. أنْ نقتلك؟؟!
- صعلوكٌ –مثلي- لن يموت إلا على صهوة فرسه.. بسيف عدوه؛ وإنَّها مكرمةٌ.. لا أفرّ منها!!
- ألا تعلم أنَّ رجالي –الآن- يحيطون بأخبيتك؛ ولن تَفلِت منهم.. لا أنت.. ولا صعاليكك؟!!
- لا ريب.. أعلم هذا!!
- ألا تخشى.. على صعاليكك؟؟!
- أنت.. أبو بصير؟؟ إنّي.. أتحداك؛ فما شأن الرجال؟؟! هَلُمَّ إلى مبارزتي.. إنْ كنتَ صعلوكاً حقاً.. وإنْ كنتَ ترى أنَّك كفؤٌ لي؛ فمَن غلب.. صار أسد الصعاليك وضَمَّ إليه الرجال!!
- قد.. أنصفتَ! اختر.. الزمان والمكان!! (هتف أبو بصير).. فيما يرمقه أبو جندل مُعترِضاً؛ بيد أنَّه أعرض عنه.
- الزمان: الحين، والمكان: هناك.. عند منحدر الصخرات.. في سفح الجبل! (زعق -كأنَّما يُسمِع غيرهما- مُشيراً إلى الوادي في سفح الجبل).

- ليكن.. كما تشاء!
- ألبس لأمتي[1].. وأسرج جوادي، ثم انطلق إليكما!

*****

انصرف أبو بصير إلى سفح الجبل.. يتبعه أبو جندل، حتى اختلى به بعيداً عن أخبية العِفْراس وصعاليكه، ثم همس.. مُنتقِداً:

- كيف –يا أبا بصير- تقبل أنْ تُبارِز هذا المجرم؟!!
- ألا تُدرك.. يا أبا جندل؟! هذا آخر سهمٍ في جعبة قريش، فإنْ خاب؛ لم يبقَ لهم خيارٌ.. سِوَى أنْ يُخلُّوا بيننا وبين رسول الله.. أو يفقدوا تجارة الشام إلى الأبد!!
- ألا تخشى.. أنْ يغدر بك؟؟!
- لا أظنّه.. يغدر! أحسبه صعلوكاً ذا نخوةٍ.. يُعظِّم شرف القتال، ويتنزَّه عن الخيانة، وإنّي –إنْ شاء الله- كاسره!
- الحذر والحيطة.. أَوْلَى! سأُخبر الرجال.. وألقاك عند سفح الجبل!

افترقا –أبو بصير إلى سفح الجبل.. وأبو جندل إلى حيث يستتر رجاله- على أنْ يلتقيا عند موضع المبارزة المُرتقَبة.

ما لبث أبو جندل أنْ لحق بأبي بصير الذي سبق إلى أرض النزال؛ وهي أرض صخريةٌ صلدة تقع في واديٍ مُنحدرٍ أسفل الجبل، ويحيط بها صخور ضخمة.. متساقطة من هنا وهناك.

---

[1] : اللأمة: هي أداة الحرب كلها من بيضة ومغفر وسيف ودرع.

ثم لحق بهما العِفْراس في كامل لأمته، تواجه الخصمان.. وبرز كلٌ منهما للآخر، وعلى مرمى حجر.. وقف أبو جندل يشاهد النزال: (فإنْ قُتِل صاحبه.. برز هو لقتال عدوه، ثم يلتحق الرجال بمَن غلب –إنْ شاءوا- أو يتفرَّقوا دون قتال!).. هذا هو العهد الذي بدأ به النزال.

تدانى الخصمان، وابتدآ المبارزة.. مُمتطيان الخيل، اشتدّ الضرب.. ورَدَّدت صخور الجبل أصداءه، حميت المقارعة.. وحميت الشمس.. وما حجبها عنهما إلا جوارح السماء التي طفقت تُحلِق فوقهما.. كأنَّها اعتادت كلما عثرت على أبي بصير أنْ تجد وليمةً من الأشلاء المُمزَّعة.

لم تكن تلك الصقور هي المراقب الوحيد لأرض النزال.. ولا أبو جندل فقط، بل توارى الصعاليك في رأس الجبل وخَلْف الصخور الضخمة.. ليراقبوا القتال عن كثب، مِن بين هؤلاء الصعاليك أُوَيْس وربيعة اللذان ارتابا في نِيَّة العِفراس؛ فاقتربا.. يراقبان مختفيين ومُتهيِّئين إنْ غُدِر بصاحبهما، ومنهم –أيضاً- صعاليك العِفْراس الذين استتروا عن الأعين تَحفُّزاً للانقضاض ساعة تأتيهم إشارة زعيمهم، وعبدٌ حبشي وحربته.. قابعٌ وراء صخرةٍ قريبةٍ من الخصمين المتقاتِلَين.

تناطح الفرسان.. وتواثبا، وتقارع الفارسان.. وتطاعنا، وامتَدَّت المبارزة الضارية.. إلى أنْ زَلَّتْ قدم فرس العِفْراس تحت ضغط خصمه، وأسقط أبو بصير العِفْراسَ من فوق الحصان.

تدحرج العِفْراس مِن فوق فرسه؛ غير أنَّه أسرع.. وعاد مُنتصِباً، وتشبَّث بسيفه ليواجه خصمه الراكب، بيد أنَّ أبو بصير نزل عن فرسه، وسعى إليه راجلاً.. عملاً بمبدأ: النزاهة والقتال الشريف، تصاولا والتحما.. واصطك السيف بالسيف.. والسيف بالدرع، وما كَلَّ أبو بصير.. وما تعب، لكن.. تَبَدَّت أمارات الإرهاق والإجهاد على وجه العِفْراس، وضَعُفت ضرباته.. واختَلَّت، حمل عليه أبو بصير حملةً شديدة الوطأة؛ فصاح صيحةً.. ظنَّها أبو بصير صرخة فزع؛ لكنَّها كانت إشارةً للعبد الحبشي المستتر؛ فوثب.. وارتقى الصخرة –بخفةٍ.. وسرعةٍ كالريح- مُصوِّباً حربته الغادرة إلى صدر أبي بصير، قذفه بها.. فاخترقت كتفه اليسرى.

صرخ أبو بصير مَبْغوتاً بالخيانة.. مُتوجِّعاً مِن الطعنة؛ إلا أنَّه ثبت –لأول وهلة- وتماسك.. واستمسك بمقبض سيفه، وفي لمحة البرق.. ضرب عنق غريمه؛ فذبحه، ثم خَرَّ راكعاً.. تحت وطأة الطعنة الغادرة.

انسل العبد الأسود راكضاً، وانصبت السهام الغادرة صوب أبي بصير؛ فاستتر منها خلف صخرة، وجرى إليه أبو جندل وهو يصيح: "خيانة.. خيانة!! طعنه الغلام الأسود غدراً؛ أدركوا.. الغادرين!!".

انبعث صعاليك أبي جندل يُجيبون سهام صعاليك العِفْراس بمثلها، واندفعوا يطردونهم مِن رؤوس الجبال، وترجَّل أبو جندل؛ عاين الصعلوك المخادع (عِفْراس).. فوجده ميتاً، أقبل على صاحبه، لم يمهله أبو بصير.. إنَّما هتف بصرامة: "ساعدني! انزع الحربة عن كتفي، وهَلُمَّ بنا.. نقاتل الغَدَرَة!".

- إصابتك خطيرة.. يا أخي! سَكِّن جزعك، فرساننا يلاحقونهم!!
- هيا –إذاً- انضم إلى فرسانك.. وأدركوهم؛ لا يَفلِتَنَّ أحدٌ منهم!

ما عتَّم منحدر الوادي أنْ اكتظ بالفرسان والصعاليك؛ فرسان أبو بصير.. وصعاليك العِفْراس، التحم أولئك بهؤلاء.. واشتدّ الطعن والرمي، وتَعقَّب أبو جندل الغلام الحبشي حتى أدركه؛ فما تركه إلا صريعاً مُمَزَّع الأشلاء، ثم مضى مع فرسانه.. يركبون الأكتاف ويضربون الرقاب؛ فكانت مأدبةً مُشبِعة للصقور والجوارح التي تُحَوِّم في السماء.

حُمِل أبو بصير وجرحى فرسانه إلى مأوى الصعاليك، الطعنة عميقةٌ غائرة، والجرح الأليم لا ينفك ينزف بغزارة.. حتى غاب عن وعيه، وكما قيل: (آخِر الطِّبِّ.. الكيّ)؛ فكُوِي جرحه بالنار، لكن.. تقيَّح جرحه وأَصابته حُمّى شديدة؛ أشفق عليه أصحابه، ولازم أبو جندل إلى جواره.. يُطبِّبه ويَرْثِي لحاله.. مُبتهِلاً إلى الله أنْ يكتب له الشفاء والنجاة.

*****

طار النبأ الفادح إلى مكة.. وحَلَّق فوق رؤوس رؤسائها، وسُقِط في أيدي مكرز وسهيل، ومما زادهما خِزْياً أنَّ أبا جندل استأجر بعض الأعراب.. ليبعث معهم بشيءٍ من أسلاب العِفْراس.. تأكيداً لصدق النبأ، وكذلك.. بعث معهم رسالة تقول: "يا معشر قريش! إنْ أردتم رأس أبي بصير أو أبي جندل؛ فابعثوا ألف عِفْراس، إنَّ عِفْراساً واحداً.. لا يكفي!!".

ائتلف ملأ قريش.. في دار الندوة، وصَوَّبوا أصابع الاتهام إلى سهيل بن عمرو، وكلَّمه أبو سفيان بلهجة عتابٍ.. صارمة:

- واللات والعزى.. ما أَيَّدتُ هذا الشرط الذي شارطتَه محمداً.. ولا رضيتُه، ولولا أنَّك دفعتَ أزهر بن عوف والأخنس بن شريق.. ليبعثا في طلب أبي بصير.. لما انفلت إلى العيص وفعل ما فعل، ولو أنَّك تركت ولدك يذهب حيث شاء لما جرت لنا هذه النكبات!!؟
- كنتُ أحسب -حين شارطتُه تلك الشروط- أنّي انتصر لكم.. وأحفظ لكم كبرياءكم وعِزّكم!
- بل.. لقد كان محمدٌ أفطن منك وأحكم.. حينما وافقك فيما تشترط؛ ألا ترى ما هو فيه من عِزٍّ وظهور، وما نحن فيه مِن ذلٍّ وصَغَارٍ.. مِن جَرَّاء شروطك؟؟!
- ..... . (وجم سيد بني عامر.. وتعثَّرت الكلمات بين شفتيه)
- ولقد صَدَّقتْه الأيام، وبرهنتْ أنَّك فتحتَ علينا باباً للشر.. أَنَّى لنا إغلاقه؟! ها هي ذي قوافلنا الرائحة الغادية بين مكة والشام.. باتت في خطرٍ عظيمٍ، وأوشكت تجارة قريش أنْ تبور، فأي فخرٍ.. وأي عِزٍّ.. في تلك المشارطة؟؟!
- فما العمل؟!! دبرنا.. يا سيد مكة!!؟ (تساءل ملأ قريش)
- تالله.. لا أدري: ما العمل؟؟ قد احترتُ.. وذهل عقلي!!

ما انفك سادة قريش يفكرون.. ويُقلِّبون وجوه الرأي في عقولهم.. إلى أنْ هتف أحدهم:

- نكتب إلى محمدٍ.. نُسقِط ذلك الشرط، ونسأله بالرحم أنْ يُؤَوِّيهم؛ فلا حاجة لنا بهم!!
- ماذا؟!! تريدون أنْ نسترحم محمداً؟؟! (اعترض أحدهم).. وصاح ثانٍ:
- بئس الرأي! فما يدريكم بعد أنْ نُذِلّ كبرياءنا لمحمدٍ أنْ يقبل منا ويَضُمّهم إليه دون مساومة؛ ألا ترون أنَّه الفائز الأكبر بما نتكبَّده من خسائر فادحة في التجارة والأموال؟؟! ألا تظنون أنَّ هؤلاء الرَكْب يعملون لمصلحة محمدٍ؟؟!
- قد جانبك الصواب.. يا هذا!! (هتف أبو سفيان).. ثم استرسل: "إنَّ محمداً.. ابن عمنا، وقد عرفناه صادق الوعد.. واصل الرحم، عرفناه –منذ صباه- كريماً.. وما عرفناه لئيماً، وأرى أنَّنا لو كتبنا إليه.. نسأله الله والأرحام؛ فسيَبذُل لنا ما نَرتجِي!
- يا سيد مكة! نخشى أنْ تكون الرسالة المكتوبة لا تكفي وحدها لإسقاط شرطٍ.. شهد عليه الشهود!؟؟
- فماذا ترون؟؟!
- احمل أنت الكتاب بنفسك.. واذهب به إلى محمدٍ.. ليتوثَّق اسقاط ذلك الشرط الذي حسبناه لنا؛ فانقلب علينا!!

شدَّ أبو سفيان بن حرب الرحال إلى يثرب، وقد وَقَرَ في قلبه أنَّ اليوم ليس كأمس، أمس (يوم أُحُد): الذي جاء فيه إلى يثرب.. يقود جيش قريش ليثأر مِن محمد؛ فيكون يوماً بيوم بدر، أمس (يوم الأحزاب): الذي جاء فيه إليها يقود جيوش قريش والأحزاب.. ليستأصل شأفة محمدٍ وأصحابه!!

ذلك الأمس الغابر.. أمسى جُثالةً[1] بدَّدتها ريح محمدٍ.
أما اليوم: فها هو ذا يَقدُم إلى محمدٍ مُستعطِفاً مُسترحِماً.. يرجوه أنْ يُسقِط شرطاً من المعاهدة التي ظنَّها هو وملأ قريش.. ظفراً وعِزّاً؛ ولكنَّها أضحت.. خيبةً وانكساراً.

بقلبٍ واجفٍ ورأسٍ مُنكَّسٍ.. دخل أبو سفيان المدينة.. والتمس لقاء رسول الله ﷺ، جلس بين يده.. وقال بصوتٍ مُشبَعٍ بالخنوع:

- يا ابن العم! إنَّا أسقطنا هذا الشرط.. مِن الشروط، مَن جاء منهم إليك؛ فأمسكه في غير حرج.. فهو آمن؛ فإنَّ هؤلاء الرَكْب[2] قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره، وإنَّنا نسألك بالأرحام إلا ما آويتهم.. فلا حاجة لنا بهم!!

*****

ثقل المرض على أبي بصير.. وألزمه الفراش، وأقعده.. حتى عن شُهود صلاة الجماعة مع أصحابه؛ فوكل أمر إمامة الصلاة وإمارة الجنود إلى أبي جندل الذي دأب على المُكْث إلى جواره -ساعاتٍ- ليلاً ونهاراً.. لفرط جزعه وإشفاقه عليه، ويتناوب عليه معه.. ربيعة وأُوَيْس.. والوليد بن الوليد.

ذات نهار.. بينما هو طريح الفراش، وأبو جندل عند رأسه.. يُطبِّبه ويرقيه؛ إذ أومأ إليه.. وهمس -في أذنه- بكلماتٍ أبهم الإعياءُ والتوجُّع.. بعض حروفها:

---

[1] : الجُثالة: ما تناثر من ورق الشجر.
[2] : يعني: أبو بصير وأبو جندل.. والذين معهما.

- أُوصيك بالرجال.. خيراً، اثبتوا على دينكم، واسألوا لي المغفرة!!
- لا تتكلَّم بهذا.. يا أبا بصير؟!! إنَّك ستُشفى.. إنْ شاء الله!
- إنّي.. أحتضر.. يا أخي! لا.. مَهْرَب.. مِن.. الموت!

سكت أبو جندل.. وما مَلك أنْ يمنع دموعه التي طفرت في عينه، فيما استرسل أبو بصير بصوتٍ واهن.. مُتهدِّج تألُّماً وتأوُّهاً:

- لستُ.. أجزع من.. الموت؛ لكني.. أخشى أنْ أموت.. والنبي غاضبٌ منيّ، أخشى أنْ ألقى ربي وهو غير راضٍ.. عما صنعتُ!؟؟

لم يدر أبو جندل بما يجيبه؛ فقد داهمته -ساعتئذ- حيرةٌ مفاجئة، دفعته.. يتساءل ويتفكَّر: (هل ما نحن عليه –الحين- يُرضي الله ورسوله؟؟ هل نحن مجاهدون في سبيل الله؟؟ أم.. ذؤبانٌ صعاليك خانوا عهد النبي ﷺ.. وقاتلوا حلفاءه ونهبوا أموالهم؟؟!)، (كلا! لسنا ذؤباناً.. ولا خائنين؛ بل.. نحن مظلومون؛ قَهَرنا قومُنا وبغوا علينا.. لا لذنبٍ إلا أنَّنا نشهد أنَّ لا إله إلا الله.. وأنَّ محمداً رسول الله!)، (جريرتنا –في أعينهم- أنَّا نأبى أنْ نعود إلى الكفر.. كما نكره أنْ نقذف في النار)، (فماذا كنا نصنع؟؟! هل نستسلم للقهر والتعذيب.. ونُضيِّع ديننا؟! أم نصمد للعذاب والطغيان؟! وأَنَّى لنا الصمود.. دون أنْ نُفتن عن ديننا؟!!)، (جَرَّبنا الفرار مِن بطشهم.. واللجوء إلى النبي؛ فطالبوه بهذا الشرط المُجْحِف، وأَنَّى للنبي ﷺ أنْ يغدر إذا عاهد؟!!)، (هل نستسلم لهذا التعنيت؟! هل نخضع لطغيان قريش.. وجبروتها؟!).

- كلا.. والله! لا نخضع أبداً، ولا نرضى الدَّنيَّة في ديننا.. يا أبا بصير!

صدح بإصرارٍ وحماس.. رافعاً بها صوته لا ليُسمِع أبا بصير؛ بل.. ليطرد عن رأسه الوساوس، ومع هذا.. لم يسمع أبو بصير كلماته النارية؛ فقد غيَّبته الحمّى عن الوعي، عدَّل له الفراش، ثم أضجعه –بعد أنْ كان مُتكئاً- وغطى جسده بثوبٍ خفيف، وقبل أنْ ينهض من جواره.. جاءه أُوَيْس يسعى ويقول: "تعال! زائرٌ.. ينتظر بالوصيد!!"، اندهش أبو جندل.. وتساءل في نفسه: "مَن.. ذاك الزائر؟؟!".

لم يكد يراه حتى هرول إليه.. والتقطه في أحضانه، تعانقا بحرارةٍ.. والتف حولهما أُوَيْس وربيعة وقدامى الأصحاب.. فرحين مُرحِّبين:

- الصِّمَّة! مرحباً.. أخا الإسلام! أي ريحٍ طيبةٍ.. أرسلتك؟؟!
- السلام عليكم ورحمة الله.. يا أخوة الإسلام!
- وعليكم.. السلام.. ورحمة الله!؟؟
- أبشروا.. يا أخوتي! فوالذي بعث محمداً بالحق.. إنَّ هذا اليوم لهو خير يومٍ طلعت عليكم فيه الشمس.. مذ أسلمتم!
- بشَّرك الله بالخير.. يا صِمَّة! ماذا وراءك.. يا رجل؟؟! شوَّقتَنا للخبر!
- جئتُكم بكتابٍ مِن رسول الله ﷺ!
- ماذا؟؟ أين.. هذا الكتاب؟؟! (جأر أبو جندل.. واللهفة تتلألأ في عيونهم)
- أُمِرتُ أنْ أُسلِّمه لأبي بصير؛ فأين.. هو؟؟

علم الصِّمَّة بما وقع لأبي بصير؛ فتأسَّف.. وهرع إليه مع أبي جندل، تطلَّع إليه؛ فوجده مُمدَّداً في الفراش.. خائر القوى.. مرتعد الأوصال، هزل جسده.. وضعُف بدنه.. وأفقدته الحُمّى وعيه؛ رنا إليه برأفةٍ وإشفاق، ثم هتف بصوتٍ يختلجه التفجُّع والأسى: "إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! شفاك الله.. يا أخي! قتل الله مَن أصابك.. يا أسد الشُجعان!!؟"، ما سمعته أذنه.. وما تنَّبه لقدومه، اضطرب الصِّمَّة جزعاً، والتفت إلى أبي جندل.. كأنَّما يتساءل عن الخطب، شرع أبو جندل يَهُزّه –برفقٍ.. لكي يُفيق- ويناديه:

- أبا بصير! انتبه.. يا أخي! هذا هو الصِّمَّة؛ جاءك.. بكتابٍ من رسول الله ﷺ!!

طفق يَهُزّه.. ويناديه.. ويكرِّر النداء، ثم نضح جبهته بماءٍ باردٍ.. وهو يناديه.. حتى انتبه المريض لكلمة: (رسول الله!)، فتح عينيه.. ونظر إلى صاحبيه نظرةً واهنةٍ صامتة؛ فأعاد أبو جندل: "هذا كتاب رسول الله إليك.. جاءك به الصِّمَّة!"، شغلته لهفته على كتاب النبي.. عن رفيقه القديم والترحيب به، برقت عيناه.. وتهلَّلت أساريره.. وهمس: "رسول الله.. يكتب إليّ.. أنا!؟؟"، ثم تساءل مُتلهِّفاً: "أين.. الكتاب؟ وماذا فيه؟؟!"، فيما يُقعِده أبو جندل.. مَدَّ الصِّمَّة يده إليه بالرسالة.. وهتف مُبشِّراً:

- هاك.. الكتاب! يُخبركم فيه النبي ﷺ: أنَّ قريش تنازلت عن شرطها؛ ويقول لكم: انضموا إليه.. ولا يتعرَّض أحدٌ منكم بسوءٍ لقريش ولا لعِيراتها!

التقط أبو جندل الكتاب مِن يده.. وفَضَّه بتوقيرٍ واهتمام، وأنشأ يرفع صوته.. ويقرأه -على الرجال- بصوتٍ يرقص طرباً.. وشفاهٍ ترتعش سروراً، اِرتَجَّ الغار.. والجبل بالتكبيرات، وتعانق الرجال.. وهنَّأ بعضهم بعضاً، قفزت القلوب.. في الصدور، وفاضت العيون.. بدموع الفرحة والأشواق.

على أنَّ أبا بصير غاب عن الوعي ثانيةً؛ فما سمع تلاوة صاحبه للكتاب، لكنَّه.. انتبه للتكبير والتهليل، فتح عينيه.. وسأل أبا جندل؛ فصدح طَرَباً:

- أبشر.. يا أخي! رسول الله ﷺ بعث.. يستقدمنا إليه!!

أعجزه المرض والوهن عن القيام إلى رجاله ليرقص معهم فرحاً، وخار صوته الهامس بالحمد والتكبير؛ لكن.. لم تخف فرحته عنهم، وأبصروا دموع الانشراح والغبطة تتلألأ في عينيه، التفوا حوله يُهنِّئونه.. فسأل: "أعطني.. كتاب رسول الله!!"، ناوله أبو جندل إياه؛ فتناوله بيدٍ مُرتجِفة، وطفق يُطالعه بعينٍ ذابلةٍ دامعةٍ.. ويُقبِّله ويتشمَّمه، ثم لمعت بين شفتيه بسمةٌ واهنة.. وسقطت يده بالكتاب.

**********

مات أبو بصير.. وكتاب النبي ﷺ في يده.

وَدَّعه أصحابه بقلوبٍ حزينةٍ.. وغَسَّلوه بدموع الأسى،

ثم صَلُّوا عليه خاشعين.. مُتضرِّعين لله أنْ يغفر له ويرحمه،

شيَّعوه.. مغتمّين، ثم دفنوه -واجمين- حيث مات.

ثم انطلق بهم أبو جندل إلى رسول الله ﷺ.

xxxxxxxxxx

xxxxxx

xxxx

xx